فِقهُ اللغةِ العربيّةِ وخَصائِصُها

تأليف
الدكتور إميل بديع يعقوب
أستاذ فقه اللغة في الجامعة اللبنانية

دار العلم للملايين

فقه اللغة العربية وخصائصها

تأليف

الدكتور إميل بديع يعقوب

أستاذ فقه اللغة في الجامعة اللبنانية

(الفرع الثالث)

دار العلم للملايين

ص.ب. : ١٠٨٥ - بيروت

تلكس : ٢٣١٦٦ - لبنان

دار العلم للملايين
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر
شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون: ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا: ملايين - تلكس: ٢٣١٦٦ ملايين
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٨٢

المقدّمة

﴿وقُلْ رَبِّ زِدْني عِلْماً﴾
القرآن الكريم (طه: ١١٤)

ما كتابي سوى محاضرات في فقه اللغة العربية، ألقيتها على طلابي في السنة الرابعة من قسم اللغة العربية، في العام الدراسي ١٩٨١ - ١٩٨٢، رأيتُ، تعميماً للفائدة، وتسهيلاً للطلاب، أن أجعلها ضمن كتاب، يكون أقرب تناولاً، وأسهل دراسةً، من محاضرات تُملى، أو تطبع على الآلة الكاتبة، فتوزَّع على الطلّاب، محشوّة بالأخطاء، مشوّهة الترتيب والتبويب.

وعليه، فإن اسم الكتاب هذا، وموضوعاته، وحجمه، وترتيبه، أمور فرَضها منهاج فقه اللغة في الجامعة اللبنانية، والوقت المخصّص له، ومستلزمات المحاضرة. ولولا ذلك، لكان بإمكاننا أن ندبّج، في كل موضوع من موضوعات محاضراتنا، كتاباً مستقلاً كما فعل بعض من سبقنا[1].

---

(١) من الذين أصدروا كتباً مقتصرين على موضوع واحد من مواضيع محاضراتنا، طاهر الجزائري في كتابه «التقريب لأصول التعريب»، ونفوسة زكريا سعيد في كتابها «تاريخ الدعوة إلى العاميّة وأثرها في مصر»، وعبد الله أمين في كتابه «الاشتقاق»، وفؤاد ترزي في كتابه «الاشتقاق» أيضاً، ومحمد أحمد أبو الفرج في كتابه «مقدّمة لدراسة فقه اللغة». ونحن عازمون على إصدار كتابين، يعالج الأوّل موضوع الخط العربي نشأةً وتطوراً ومشكلاتٍ، ويطرح الثاني موضوع ثنائية اللغة العربية (الفصحى والعامية) وما دار حولها من فعل وردات فعل. وذلك لأن

أما منهجيتنا في هذه الأبحاث، فتتلخّص بالبدء بتعريف الموضوع الذي نكون بصدده، ثم بعرض آراء الباحثين فيه، لننتقل، بعد ذلك، إلى إبداء آرائنا ومقترحاتنا، بعد نقد الآراء الأولى، مبتعدين عن أيّ تعصّب ديني أو عاطفة قوميّة، أو تعسّف في رأي، أو مناصرة فريق ضد آخر على حساب الحق والحقيقة، حتى في أشدّ المواضيع حساسيّة وارتباطاً بقوميتنا وديننا. ولم نلجأ، شأن بعضهم، إلى اتّهام، كل من دعا دعوة لا نرضاها، بالعمالة، والاستعمار، وغيرها من نعوت فقدت مضامينها لكثرة استعمالها، بل عرضنا، بكل موضوعيّة، الآراء والمقترحات جميعاً، حتى الهدّامة منها، مبيّنين ما لها من حسنات وسيّئات، ومستخلصين على ضوء هذا كلّه، ما نراه صواباً ومناسباً. كل ذلك ملتزمين بتقسيم كل بحث، إلى نقاط رئيسة للبحث بغية تسهيل الدراسة، وبإثبات ترجمة موجزة[٢] لكل علم يرد لأول مرّة في المتن[٣].

فقد بدأنا كتابنا بفصل يتناول اللغة تعريفاً ونشأةً ووظيفة، فعرضنا لمختلف الاتجاهات في هذا الشأن، مؤكّدين ما ذهب إليه الباحثون من أن وظيفة «التوصيل» أو «الإيصال» هي الوظيفة الأساسية للغة، ومُظهرين أنّ هناك، إلى جانب هذه الوظيفة، وظائف أخرى، منها مساعدتها الآلية للفكر، وكونها تمثّل أحد مقوّمات الوطن والوطنية، ووسيلة للترابط الدولي والقومي والاجتماعي وللتنفيس عن الاحساسات وبخاصة العنيفة منها..

= هذين الموضوعين يشكلان، من ناحية، قضيتين عاشها اللبنانيون والعرب، فكان لها وقع في حياتهم ومجتمعهم وفكرهم وتربيتهم، بما اتخذوا حيالها من مواقف، ولكونها، من ناحية أخرى، ما زالا مطروحين على ضمير الجيل الحاضر.

(٢) رجعت في ترجمة معظم الأعلام إلى كتاب الزركلي: الأعلام، نظراً لإيجازه ودقته. ومن أراد التوسّع في التراجم عليه العودة إلى مصادر الزركلي التي أثبتها في أمكنتها.

(٣) إلّا الأعلام التي خصصناها بالدراسة، وفي فهارس الكتاب فهرس للأعلام يُظهر مواضع الترجمة.

وفي الفصل الثاني عرضنا لمصطلح « فقه اللغة » من الناحيتين اللغوية والاصطلاحية، ولآراء الباحثين العرب في التفريق بينه وبين مصطلح « علم اللغة »، خالصين إلى وجوب التفريق بين المصطلحين، ومبيِّنين الفوارق بينهما.

وفي الثالث، تناولنا مفهوم « فقه اللغة » وموضوعاته، في الكتب العربية القديمة، وأوائل الكتب التي صدرت في العصر الحديث، خاصّين بالدراسة « الصاحبي في فقه اللغة » لابن فارس، و « فقه اللغة وسرّ العربية » للثعالبي، و « خصائص » ابن جني، و « مزهر » السيوطي، و « فقه اللغة » لعلي عبد الواحد وافي، و « فقه اللغة وخصائص العربية » لمحمد المبارك، و « دراسات في فقه اللغة » للشيخ صبحي الصالح. ثم ألحقنا بهذا البحث بعض النصوص[٤] من « الصاحبي » و « الخصائص » و « فقه اللغة وسر العربية »، و « المزهر ».

وبدأنا الفصل الرابع بالحديث عن نشأة المنهج الوصفي الاستقرائي في دراسة اللغة، على أيدي أهم روّاده، ثم أظهرنا أهم خصائصه، فمآخذه على النحو العربي، خاتمينه بالدعوة إلى إعادة النظر بالنحو العربي وقواعده التقليدية المعقّدة، لتقعيده من جديد على ضوء هذا المنهج الوصفي الحديث.

وفي الفصلين: الخامس والسادس، عرضنا لموطن اللغات السامية، وخصائصها، وبعض وجوه الاختلاف بين ما تضمّه من لغات، خاصّين نشأة اللغة العربية بنوع من التفصيل والدراسة.

وفي موضوع الإعراب، بحثنا تعريفه، ونشأته، وموقف الباحثين منه،

---

(٤) اجتهدنا أن تكون النصوص المختارة مميِّزة، من ناحية، عن خصائص الكتب المأخوذة منها، ومرتبطة، من ناحية ثانية، بمواضيع محاضراتنا.

رافضين الدعوة إلى إلغائه، وداعين، في الوقت نفسه، إلى تخليصه، وتخليص النحو عامّة، من الآراء الفلسفية الداخلة فيه، كفكرة العامل، والقول بالعلّة، وما إليها، وذلك لأنّ أكثر صعوبات النحو العربي تعود إلى هذه الآراء، لا إلى اللغة نفسها.

وفي البحث الثامن بدأنا بتعريف الفصحى والعامية وازدواجية اللغة Le bilinguisme وثنائيتها La diglossie، ثم تحدّثنا عن نشأة الثنائية في اللغة العربية، وموقف الباحثين منها، متوقّفين عند نقطتين أساسيتين: أثر ثنائية اللغة في المجتمع، والدعوة إلى العامية، وذلك نظراً لما أثارتا من فعل وردّات فعل في المجتمع العربي. ثم ختمنا بحث «الثنائية» برفض تبنّي العامية لانعكاساتها السلبية في شتّى المجالات الدينية والثقافية والقومية والاقتصادية وغيرها.

وفي الفصلين: التاسع والعاشر، عرّفنا الترادف والاشتراك والتضاد والاشتقاق بأنواعه الأربعة[٥]، وموقف الباحثين منها، وأسبابها.

وفي الفصل الحادي عشر ركّزنا على مشكلات التعريب في العصر الحديث، مُبدين بعض الاقتراحات بشأنها.

أما في الفصل الأخير، فقد عرضنا لنشأة الخط العربي، وتطوّره، وعيوبه، ودعوات إصلاحه، مركّزين على الدعوة إلى اللاتينية، لما أثارته من ضجّة حولها، خاصّة بعد أن عرضها عبد العزيز فهمي على مجمع اللغة العربية في القاهرة، ولأنها ما زالت تظهر بين الحين والآخر. وقد أظهرنا أضرار هذه الدعوة، خالصين إلى رفضها، ومقترحين بعض الآراء للتخفيف من مشكلات الخط العربي.

ويُلاحظ أنّ مواضيع هذه الأبحاث، مختلفة فيا بينها، مما يستلزم

---

(٥) هي الاشتقاق الصغير والكبير والأكبر والنحت.

الرجوع إلى مصادر ومراجع كثيرة ومختلفة. ولم نألُ جهداً في ذلك، بل عمدنا إلى كل ما عرفنا أنه كُتِبَ في تلك المواضيع، فدرسناه واستخلصنا أهمّ ما فيه، ثم نقدناه نقداً موضوعياً. وبما أنه يستحيل على فرد إيجاد علم، ابتداءً من ذاته، كان لا بدّ من الاعتماد على ما توصّل إليه الآخرون، للانتفاع به، وبخاصّة تلك الكتب المتخصّصة في المواضيع التي نعالج. والحقيقة أنّ هذه الكتب قد أفادتنا كثيراً، وخاصّةً: «الاشتقاق» لفؤاد ترزي، و «التقريب لأصول التعريب» لطاهر الجزائري، و «تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر» لنفوسة زكريا سعيد، و «مقدّمة لدراسة فقه اللغة» لمحمد أحمد أبو الفرج، و «التضاد في ضوء اللغات السامية» لربحي كمال، و «فقه اللغة» لعلي عبد الواحد وافي، وغيرها.

وبعد... إننا نعتبر هذه الأبحاث عملاً متواضعاً، على الرغم من الجهد الذي بذلناه في كتابتها، آملين أن تساهم مساهمة متواضعة في تطوير الدراسات اللغوية، وراجين أن تساعد ملاحظات دارسيها وناقديها، على التقدّم بطبعتها الثانية، شوطاً نحو الكمال.

والله نسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه، وبه وحده التوفيق.

إميل بديع يعقوب

كفرعقا في ٢١/٣/٨٢

الفصل الأوّل

اللغة [illegible]

«وظيفة اللغة الجليلة الأولى والعظمى هي تكوين العالم الإنساني».

سوزان. ك. لانجر.

١ - تعريفها

لم يتّفق علماء اللغة على تعريف واحد للغة، ويعود عدم اتفاقهم، إلى ارتباط علم اللغة، بعلوم عدّة، أهمها: علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم المنطق، والفلسفة، والبيولوجيا، وغيرها. فكان كل عالم، ينظر إلى اللغة من زاوية العلم الذي يعمل في ميدانه. فنظر فريق من الباحثين إلى اللغة، من الزاوية الفلسفية المنطقية، ونظر إليها فريق آخر، من الناحية العقلية النفسية، كما عالجها فريق ثالث من زاوية وظيفتها في المجتمع. ولكل فريق آراؤه الخاصة في تعريفها. ولعل من أشمل تعريفاتها، التعريف القائل: «اللغة ظاهرة بسيكولوجية اجتماعية، ثقافية، مكتسبة، لا صفة بيولوجية ملازمة للفرد، تتألّف من مجموعة رموز صوتية لغوية، اكتسبت عن طريق الاختيار، معاني مُقرَّرة في الذهن، وبهذا النظام الرمزي الصوتي، تستطيع جماعة ما أن تتفاهم وتتفاعل»[1].

---

(١) أنيس فريحة: نظريات في اللغة. ط ١. دار الكتاب اللبناني. بيروت. ١٩٧٣. ص ١٤.

٢ - نشأتها

اهتمّ الباحثون منذ أقدم العصور بموضوع نشأة اللغة، ذلك أن اللغة، من أهم المؤسَّسات الاجتماعية عند الإنسان، وهي بالتالي، إحدى مميِّزاته الرئيسة التي تميِّزه عن الحيوان(٢)، ولقد قيل: «الإنسان حيوان ناطق». وربما كان موضوع نشأة اللغة، من أقدم المشاكل الفكرية التي جابهت عقل الإنسان، فكثرت البحوث فيه، وتعدَّدت الآراء بصدده. ويمكننا، عموماً، أن نردّ هذه الآراء جميعاً، إلى نظريات أهمها(٣):

أ - **نظرية التوقيف**: وتذهب إلى أن ألفة وحي من عند الله، وقد قال بهذه النظرية ابن فارس(٤)، وكثيرون غيره(٥). ودليل هؤلاء دليل نقلي لا عقلي، ذلك أنهم يعتمدون على قوله تعالى: «وعلَّم آدم الأسماء كلّها»(٦)،

---

(٢) رصد العلماء، أصوات الحيوانات، فعرفوا أن بعضها يهدفُ إلى غايات معينة (الشمبزي، سمكة الدولفين - رقصة النحل). لكن «اللغة الحيوانية» إن صحّ التعبير، تحتوي عدداً محدوداً من الصرخات، أو الإشارات الاتصالية، مرتبط كل منها، بسلوك أو شعور معيَّن. أما اللغة الإنسانية فتتميَّز بالإبداعية (القدرة على إنتاج عدد غير متناه من الجمل)، والتلفظ المزدوج (دلالة كل لفظة في الجملة على معنى معين، وإمكانية تحليل الصورة الصوتية لكل كلمة إلى وحدات صوتية مميزة لا تحمل أي دلالة) والتحول اللغوي (القدرة على التكلّم على الأشياء والأحداث عبر الأزمنة) والانتقال اللغوي (اكتساب اللغة في المجتمع). (انظر ميشال زكريا: الألسنية: علم اللغة الحديث. مبادؤها وأعلامها. لا ط. بيروت. ١٩٨٠ ص ١٩ - ٣٦).

(٣) انظر أنيس فريحة: نظريات في اللغة ص ١٥ - ٢٦. وعلي عبد الواحد وافي: علم اللغة. ط ٧. دار نهضة مصر. القاهرة لا. ت ص ٩٦ - ١٠٦. وإبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ. ط ١. القاهرة. ١٩٥٨ ص ١٦ - ٢٣. وعبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية. دار النهضة العربية. بيروت. ١٩٧٩ ص ٧٧ - ٩٤.

(٤) انظر كتابه: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. تحقيق مصطفى الشويمي. مؤسسة بدران. بيروت. ١٩٦٣. ص ٣١ - ٣٢.

(٥) منهم هيراكليت (Héraclite) والأب لامي (Lami) والفيلسوف دوبونالد De bonald. (انظر علي عبد الواحد وافي: علم اللغة ص ٩٧).

(٦) سورة البقرة. آية ٣١.

وعلى ما ورد في العهد القديم من الإنجيل المقدس، من أنّ الله جبل «من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء. فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها. وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية»[٧]. وعلم اللغة، اليوم، يرفض هذه النظرية، فقوله تعالى «وعلّم آدم الأسماء كلها»، يحتمل أن يكون معناه، كما أوضح ابن جني[٨] وكثيرون غيره، أن الله أقدر الإنسان على وضع الألفاظ. وما ورد في العهد القديم يكاد يكون دليلاً على هذه النظرية، لا معها.

ب- نظرية الاصطلاح، وتذهب إلى أن اللغة ابتدعت بالتواضع والاتفاق، ومن أنصار هذه النظرية ابن جني وكثيرون غيره[٩]. يقول ابن جني: «غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف»[١٠]. لكن ليس لهذه النظرية سند نقلي أو

---

(٧) سفر التكوين. الإصحاح الثاني. الآيتان ١٩ و ٢٠.

(٨) يقول ابن جني في باب خصّصه للقول على أصل اللغة: «... إلا أن أبا علي، رحمه الله، قال لي يوماً: هي من عند الله، واحتج بقوله سبحانه: «وعلم آدم الأسماء كلها» وهذا لا يتناول موضع الخلاف. وذلك أنه يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة». (ابن جني: الخصائص. تحقيق محمد علي النجار. دار الكتاب العربي. ١٩٥٢. ج ١. ص ٤٠ - ٤١).

(٩) منهم الفيلسوف اليوناني ديوكريت Démocrite وآدم سميث Adam Smith وريد Reid ودجلد ستيوارت Dugald Stewart. (انظر علي عبد الواحد وافي: علم اللغة ص ٩٨).

(١٠) ابن جني: الخصائص. ج ١ ص ٤٠. ويقول ابن جني في الصفحة ٤٤ من المصدر نفسه: «ثم لنعد فلنقل في الاعتلال لمن قال بأن اللغة لا تكون وحياً. وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة، لا بد فيه من المواضعة، قالوا: وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً، إذا ذكر عرف به مسمّاه، ليمتاز من غيره، وليغني بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلّف إحضاره، لبلوغ الغرض في إبانة حاله». وإن كان ابن جني يكتفي بعرض آراء اللغويين في مسألة نشأة اللغة، فمن الواضح أنه يميل إلى القول بأنها اصطلاح. (للمزيد من الإفادة انظر عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية. ص ٨٣ - ٨٨).

تاريخي، «بل إنّ ما تقرره ليتعارض مع النواميس العامة التي تسير عليها النظم الاجتماعية. فعهدنا بهذه النظم، أنها لا ترتجل ارتجالاً ولا تخلق خلقاً، بل تتكوّن بالتدريج من تلقاء نفسها. هذا إلى أنّ التواضع على التسمية، يتوقّف في كثير من مظاهره، على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون. فما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة، يتوقّف هو نفسه على وجودها من قبل»[11].

ج- نظرية محاكاة أصوات الطبيعة، أو نظرية البو-وو **Bow-wow**:

وتذهب إلى أن أصل اللغة محاكاة أصوات الطبيعة، كأصوات الحيوان، وأصوات مظاهر الطبيعة، والتي تحدثها الأفعال عند وقوعها، ثم تطورت الألفاظ الدالة على المحاكاة، وارتقت بفعل ارتقاء العقلية الإنسانية وتقدم الحضارة. وقد عرض ابن جني لرأي أصحاب هذه النظرية، في بحثه مسألة نشأة اللغة، فقال: «وذهب بعضهم إلى أنّ أصل اللغات كلّها، إنّما هو من الأصوات المسموعات، كدوي البحر، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس، ونزيب[12] الظبي، ونحو ذلك. ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبَّل»[13]. ويظهر أنّ ابن جني، كان معجباً بهذه النظرية، إذ أفرد باباً سمّاه «باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني»، قال فيه: «... ولو لم يُتنبّه على ذلك، إلا بما جاء عنهم من تسميتهم الأشياء بأصواتها، كالخازباز[14] لصوته، والبط لصوته... ونحو منه قولهم: حاحيت، وعاعيت، وهاهيت، إذا قلت: حاء، وعاء، وهاء. وقولهم: بسملت، وهيللت، وحولقت، كل

---

(11) علي عبد الواحد وافي: علم اللغة ص ٩٨ - ٩٩.

(12) النزيب: صوت تيس الظباء عند السفاد.

(13) ابن جني: الخصائص. ج ١ ص ٤٦ - ٤٧.

(14) الخازباز: الذباب.

ذلك وأشباهه، إنما يرجع في اشتقاقه إلى الأصوات. والأمر أوسع »[١٥]. والواقع أنّ لهذه النظرية ما يؤيدها، فالطائر المسمّى في الإنكليزية Cuckoo، إنما سمّي بالصوت الذي يحدثه، والهرة سمّيت « مو » في المصرية القديمة وفي اللغة الصينية، نسبة إلى الصوت الذي تحدثه[١٦]. ويذهب بعض اللغويين المحدثين إلى أن « هذه النظرية هي أدنى نظريات هذا البحث إلى الصحّة، وأقربها إلى المعقول، وأكثرها اتفاقاً مع طبيعة الأمور وسنن النشوء والارتقاء الخاضعة لها الكائنات وظواهر الطبيعة الاجتماعية... ومن أهمّ أدلتّها أن المراحل التي تقرّرها بصدد اللغة الإنسانية، تتّفق في كثير من وجوهها مع مراحل الارتقاء اللغوي عند الطفل. فقد ثبت أن الطفل في المرحلة السابقة لمرحلة الكلام، يلجأ في تعبيره الإرادي إلى محاكاة الأصوات الطبيعية... ومن أدلتها أنّ ما تقرّره بصدد خصائص اللغة الإنسانية، في مراحلها الأولى، يتّفق مع ما نعرفه من خصائص اللغات في الأمم البدائية. ففي هذه اللغات، تكثر المفردات التي تشبه أصواتها أصوات ما تدل عليه »[١٧].

وقد وُجّه إلى هذه النظرية انتقاد أساسي، من جهة أنها « تعجز عن أن تفسّر لنا كيف استُغل مبدأ « حكاية الصوت » في آلاف الكلمات التي لا نرى الآن أيّة علاقة بين معناها وصوتها. ما العلاقة بين لفظة « إبريق » ومعناها؟ وما العلاقة بين لفظة « المنضدة » ومعناها؟ ما العلاقة بين لفظ « الكتـاب » ومعناه؟ ليس هنـاك من علاقة ظاهرة، إنّما العلاقـة

---

(١٥) ابن جني: الخصائص، ج ٢ ص ١٦٥. ومعنى « بسمل »: قال: بسم الله الرحمن الرحيم. و « هيلل »: قال: لا إله إلا الله. و « حولق »: قال لا حول ولا قوة إلا بالله.

(١٦) أنيس فريحة: نظريات في اللغة ص ١٧.

(١٧) علي عبد الواحد وافي: علم اللغة ص ١٠٥ – ١٠٦.

بسيكولوجية، أي من نوع قرْن الأصوات بصور قائمة في العقل»[١٨]. كذلك رُفِضَت أدلّة هذه النظرية، لأنّ الطفل لا يُعيد تاريخ نشأة اللغة، ولأنّ الدراسات الفيلولوجية للغات الشعوب البدائية (كلغات الهنود الحمر، والزنوج، وأهل استرالية الأصليين) أثبتت، أنّ هذه اللغات ليست بدائية ولا قديمة، بل حديثة بالنسبة إلى عمر اللغة، فوراء كل منها تاريخ مديد لا يُعلَم له بدء، تطوَّر خلاله صرفها ونحوها وأساليبها[١٩].

د - **نظرية محاكاة الأصوات معانيها، أو نظرية Ding dong**: وهذه النظرية لا تختلف كثيراً عن نظرية البو - و و Bow-waw، إذ تؤكّد أن جرس الكلمة، يدل على معناها. ويظهر أن هذه النظرية أعجبت ابن جني أشد الإعجاب. فأفرد لها بابين سمّى الأول: «باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني»، وأطلق على الثاني اسم «باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني». يقول في الباب الثاني: «اعلم أن هذا موضع شريف لطيف. وقد نبّه عليه الخليل[٢٠] وسيبويه[٢١]، وتلقته الجماعة بالقبول له، والاعتراف بصحته. قال الخليل: كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومداً فقالوا:

---

(١٨) أنيس فريحة: نظريات في اللغة ص ١٨.

(١٩) أنيس فريحة: نظريات في اللغة ص ٢٢ - ٢٩. وفندريس: اللغة. ترجمة الدواخلي والقصاص. مطبعة لجنة البيان العربي. القاهرة. ١٩٥٠ ص ٣٠ - ٣١.

(٢٠) الخليل بن أحمد (٧١٨ م - ٧٨٦ م)، ولد في عُمان، لكنه نشأ وتعلّم وعلّم بالبصرة، فاشتهر بالبصري. برز في العلوم اللسانية من نحو ولغة وشعر، كما كان بارعاً بالعلوم الرياضية والشرعية والموسيقى. له «كتاب العين»، وهو أول معجم لغوي وصل إلينا، ومؤلفات عدة لم يصلنا شيء منها. (الزركلي: الأعلام. ط ٥. بيروت. دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٠. ج ٢ ص ٣١٤.

(٢١) هو عمرو بن عثمان (٧٦٥ م - ٧٩٦ م) الملقب بسيبويه (ومعناه بالفارسية رائحة التفاح). ولد في إحدى قرى شيراز، وقدم البصرة، فلزم الخليل بن أحمد ففاقه. هو إمام النحاة وأول من بسط علم النحو. له «كتاب سيبويه» وهو أول كتاب نحوي وصل إلينا (الزركلي: الأعلام. ج ٥ ص ٨١).

صَرّ، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرصر. وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفعلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة؛ نحو النَقَزان[22]، والغَليان، والغَثَيان. فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال. ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمتِ ما حدّاه، ومنهاج ما مثّلاه. وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعَّفة تأتي للتكرير، نحو الزعزعة، والقلقلة، والصَّلصلة، والقمقمة، والصَّعصعة والجرجرة، والقرقرة»[23]. و«... من ذلك قولهم: شدّ الحبل ونحوه. فالشين بما فيها من التفشّي، تُشبّه بالصوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد، ثم يليه إحكام الشد والجذب، وتأريب العقد، فيعبر عنه بالدال التي هي أقوى من الشين، لا سيما وهي مدغمة، فهو أقوى لصفتها وأدل على المعنى الذي أريد بها»[24]. ويظهر أن الشيخ صبحي الصالح[25]. أعجب بدوره بهذه النظرية، فعقد فصلاً في كتابه «دراسات في فقه اللغة»، سمّاه «مناسبة حروف العربية لمعانيها»[26]، أكّد فيه أنّ الظاهرة اللغوية التي أوضحها ابن جني في المناسبة الطبيعية بين الألفاظ والمعاني، «تُعدُّ فتحاً مبيناً في فقه اللغات عامّة»[27].

---

(٢٢) نقز الظبي يعني وثب صعداً.

(٢٣) ابن جني: الخصائص. ج ٢ ص ١٥٢ - ١٥٣.

(٢٤) المصدر نفسه. ج ٢ ص ١٦٣.

(٢٥) باحث لغوي وفقيه لبناني علاّمة. (١٩٢٦ - ...). نال شهادة الدكتوراه في الآداب. شغل منصب أستاذ فقه اللغة والإسلاميات في جامعتي بغداد ودمشق، ومدير كلية الآداب في الجامعة اللبنانية (الفرع الأول)، ولمّا يزل أستاذ فقه اللغة والإسلاميات في هذه الكلية، له مؤلفات وأبحاث عدّة في اللغة والفقه، منها: «دراسات في فقه اللغة»، و«مباحث في علوم القرآن»، و«علوم الحديث ومصطلحه»، و«النظم الإسلامية نشأتها وتطورها».

(٢٦) صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة. ط ٩. دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٨١. ص ١٤١.

(٢٧) المرجع نفسه ص ١٥١.

وقد رفضت هذه النظرية لعدّة اعتبارات، منها أن الكلمات التي يمكن أن تفسَّر على مبدأ هذه النظرية قليلة جداً. فأنت «إذا نظرت في كلمات عديدة [الصحيح عدّة]، يشترك فيها فونيم[٢٨] واحد، تجد أن معانيها متقاربة. ولكن أن نردّ معاني ألوف الألفاظ إلى ثلاثين أو خمس وثلاثين فونيماً أو وحدات صوتية، فإننا لا نفسّر أصل اللغة، بل نزيد في غموض المشكلة. إذ لك أن تسأل كيف تطوّرت هذه المعاني القليلة التي تمثلها الفونيمات القليلة التي تشكّل النظام الصوتي للغة إلى معان لا حصر لها؟ وهل المفردات العربية المدوَّنة في «لسان العرب» مشتقّةٌ من ثمانية وعشرين فونيماً؟»[٢٩]. وإذا كان حرف الغين يدل على الظلمة والانطباق والخفاء والحزن، كما ذهب بعضهم، مستشهدين بكلمة «غم»، و«غيم» و«غبن»، فكيف نفسّر كلمة «غني»، و«غنج»، و«غبطة»[٣٠]؟ زد على ذلك أنه لو كانت هذه النظرية صحيحة، لكان كل إنسان يهتدي إلى كل لغة، ولما صحّ وضع اللفظ للضدّين، كالحميم للبارد والحار، والجون للأبيض والأسود، ولما كانت اللغات مختلفة في الرمز على الشيء الواحد[٣١].

هـ- نظرية الأصوات التعجبية العاطفية، أو نظرية Pooh-pooh:

وتذهب إلى أن اللغة الإنسانية بدأت في صورة تعجبية عاطفية، صدرت عن الإنسان بصورة غريزية للتعبير عن انفعالاته من فرح، أو وجع، أو حزن، أو استغراب، أو تقزّز.. الخ. فنحن عندما نتأفّف نقول: «أفّ»

---

(٢٨) الفونيم هو الوحدة الصوتية الصغرى، كفونيم الباء، وفونيم النون.

(٢٩) أنيس فريحة: نظريات في اللغة ص ١٩ - ٢٠.

(٣٠) المرجع نفسه ص ١٩.

(٣١) فلفظة «ولد» العربية، يعبّر عن مدلولها بلفظة «enfant» في الفرنسية، وبلفظة «Boy» في الإنكليزية، دون أن يكون للكلمات «ولد» و«enfant» و«Boy» أي تناسب لفظي فيما بينها، أو بينها وبين ما تدل عليه.

أو « أوف » وكذلك يقول الألماني «Pfui». والساميون عامة يتحسّرون أو يتلهّفون فيقولون: « وي »[٣٢]. وقد رفضت هذه النظرية للأسباب نفسها التي رفضت بها النظرية السابقة.

و- **نظرية الاستجابة الصوتية للحركات العضلية، أو نظرية yô-hê-hô** وملخّصها أنّ اللغة الإنسانية بدأت بالمقاطع الطبيعية التي يتفوّه بها الإنسان عفوياً، عندما يستعمل أعضاء جسمه في العمل اليدوي، كما نسمع إذا وقفنا بقرب عامل يقطع شجرة أو صخراً، أو بجانب رجل يحمل ثقلاً، أو حداد يعمل.. الخ. وقد رفضت هذه النظرية كسابقتها وللأسباب نفسها.

وهكذا نرى أن النظريات التي حاولت تفسير نشأة اللغة، رُفضت جميعاً، لأنها لم تفسّر إلا جانباً ضيّقاً جدًّا من اللغة. وتطوّر الإنسان من حيوان أبكم، إنْ صحّ التعبير، إلى « حيوان ناطق »، يكتنفه كثير من الحجب والغموض بسبب رجوعه إلى عهود سحيقة في القدم، ولا نستطيع هتك هذه الحجب، إلا بالحدس والخيال، والغيبيات، وهذه الأمور، يرفضها علم اللغة الحديث، لأنّ هذا العلم، لا يبحث إلا فيما تؤكّده « المادة » المحسوسة. وهذا ما جعل الجمعية اللغوية الفرنسية La société de linguistique، تمنع بقانون إلقاء محاضرات في موضوع نشأة اللغة[٣٣].

٣ - وظائفها

أ- **وظيفة « الاتصال » أو التوصيل »**. يقول أندريه مارتينيه André

---

(٣٢) أنيس فريحة: نظريات في اللغة. ص ١٨.

(٣٣) Berezin: Lectures on linguistics, Moscow 1969 p 15. عن عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية ص ٧٧. وأنيس فريحة: نظريات في اللغة ص ١٦.

Martinet[٣٤]: « إنّ الوظيفة الأساسية لهذه الآلة التي هي لغة، هي الاتصال »[٣٥]. وما أكثر الذين ذهبوا مذهب مارتينيه، فشدّدوا على أنّ « الوظيفة الأساسية للغة، هي أنها وسيلة من الاتصال، أو التوصيل، أو النقل، أو التعبير، عن طريق الأصوات الكلامية. وأنّ ما توصله اللغة أو تنقله، أو تعبّر عنه، هو الأفكار والمعاني والانفعالات والرغبات و... الخ، أو « الفكر » بوجه عام »[٣٦]. وهذه الوظيفة تبدو واضحة في مظهر اللغة الراقي، كما في لغة المعلّم، عندما يشرح دروسه لطلابه، وكما في لغة المحامي عندما يقدّم مرافعته، أو كما في لغة الأديب والفيلسوف والعالم... الخ. ولعلّ من أسباب تطوّر اللغة عبر الزمن، حاجتها للتكيف، وبأكثر الطرق توفيراً، مع حاجات الاتصال، التي تتطلبها الجماعة اللغوية المتكلّمة بها.

لكن وظيفة « الاتصال » أو « التوصيل » للأفكار والمشاعر وغيرها، ليست الوظيفة الوحيدة للغة، فالكلام الموجّه إلى الحيوان، وإلى الجماد أحياناً، لا يكون وسيلة « للتواصل »، أو « التوصيل ». ومن الأمثلة التي تبدو فيها، وظيفة « التوصيل » غير أساسية، ما يلي:

أ- المناجاة والقراءة الانفرادية بصوت عال.

ب- استعمال اللغة في السلوك الجماعي كالصلاة والدعاء وغيرها.

ج- استعمال اللغة في المخاطبات الاجتماعية، التي لا تستهدف غاية، مثل لغة التحيّات ولغة التأدّب، والكلام على الطقس.. الخ.

---

(٣٤) لغوي فرنسي، ومتخصّص في اللغات الألمانية. (١٩٠٨-). يشغل حالياً منصب أستاذ الدراسات الألسنية في معهد الدروس العليا في باريس. له: Eléments de Linguistique Générale, La Linguistique Synchronique. (ميشال زكريا: الألسنية مبادئها وأعلامها. ص ٢٥٢).

(٣٥) André Martinet: Eléments de linguistique générale. Collection U. Paris. 1970. p 9.

(٣٦) محمود السعران: اللغة والمجتمع. دار المعارف بمصر. ١٩٦٣. ص ١٢.

د - استعمال اللغة أحياناً، لإخفاء أفكار المتكلّم، على ما يتضح في لغة السياسة واللصوص وغيرهم(٣٧).

وللغة، بالإضافة إلى وظيفة «الاتصال» و «التوصيل» وظائف أخرى أهمها، إنها:

ب - مساعد آلي للفكر. فاللغة طريق تسهّل الفكر، أو هي، كما يقول سابير Sapir(٣٨): «طريق ممهّد أو أخدود كالأخاديد التي تراها على سطح أسطوانة، تمهّد وتحدّد السبيل للإبرة لتمر فيه لتردد الصوت»(٣٩). وإن كانت اللغة تسهّل الفكر وتساعد على نموه، فإنّ الفكر نفسه يعود فيؤثّر في نمو اللغة وتطورها. «فالتفاعل بين اللغة والفكر أمر واقع. إنّ ولادة فكرة ما يسبقها عادة نوع من التعبير اللغوي الواضح أو غير الواضح، ولكن هذه الفكرة المولودة جديداً، لا يصبح لها كيان ذاتي، ما لم تتلبّس رمزاً لغوياً»(٤٠). ولقد أكّد أكثر الباحثين أننا «نفكّر بجمل» وأنّ «اللغة وعاء الفكر» كما أنه «لا وجود للفكر دون اللغة». وعلم المنطق الذي يعتبر علم «قوانين الفكر»، قد اتخذ اسمه عند الأوروبيين لفظة «logic» أو «logique» مشتقاً من لفظة «logos» اليونانية، التي تعني الكلمة أو اللغة، كما أن العرب اشتقوا كلمة «المنطق» من «النطق»، إشارة إلى ما بين

---

(٣٧) المرجع السابق ص ١٦ - ٢٤.

(٣٨) ادوار سابير (١٨٤٨ م - ١٩٣٩ م)، لغوي أميركي، متخصّص في اللغة الألمانية والأنتروبولوجيا. يعتبر من الألسنيين الأوائل الذين ساهموا في نشأة الألسنية. له: «Culture, language, and personality» و «Language, an introduction to the study of speech». (ميشال زكريا: الألسنية مبادئها وأعلامها. ص ٢١٨).

(٣٩) عن أنيس فريحة: نظريات في اللغة ص ٥٩. وكان الأصح أن يقول «حزّ كالحزوز» عوضاً من أخدود كالأخاديد.

(٤٠) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

« اللفظ » و « الفكر » من صلات[41].

ونتيجة لهذه الوظيفة، تصبح اللغة سجل تاريخ الشعب، ترتقي برقيّه وتنحطّ بانحطاطه، ونحن نستطيع أن نستبين من دراسة اللغة، الكثير من الآداب والعادات وضروب التفكير، وأنواع المشاعر، التي تسود مجتمعاً ما.

لكن العلاقة بين اللغة والفكر، ليست « إيجابية » دائماً، إذ إنّ اللغة قد تعوق الفكر أحياناً، بفرضها سبلاً محدودة للتعبير. وكم من مرّة نود التعبير عن بعض الأفكار والمشاعر، فتخوننا اللغة، ولا نجد الكلمات المناسبة لغرضنا.

ج – أحد مقوّمات الوطن والوطنية، وذلك نظراً لما تخلف من شراكة في الفكر والإحساس بين المتكلّمين بها، فتكون، بالتالي، مدعاة للوحدة الوطنية، ورابطاً قوياً يجمع الشعب الناطق بلغة واحدة. واللغات المختلفة في الأمّة الواحدة، أو الوطن الواحد، مدعاة إلى التفكك والانهيار.

ونظراً لطول ملازمة اللغة لنا، تصبح كأنّها وطننا الروحي، أو كما يقول أنيس فريحة[42]: « جزء من كياننا البسيكولوجي الروحي »[43]. واللغة، بارتباطها بالفكر، تصبح معيناً للتراث وقطعة من تاريخ الأمة، وتصبح كل كلمة فيها مستودع ذكرى.

---

(٤١) عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية ص ٧٤.

(٤٢) أنيس فريحة (١٩٠٢ –) لغوي وأديب لبناني. ولد في قرية رأس المتن من أعمال جبل لبنان تخصّص في اللغات السامية. نال شهادة الدكتوراه فيها من جامعة شيكاغو في الولايات المتحدة الأميركية. له مؤلفات عدة منها: « نظريات في اللغة »، و« تبسيط قواعد اللغة العربية على أسس جديدة » و« نحو عربية ميسّرة » و« اسمع يا رضا ». (أنظر أطروحتنا: آراء أنيس فريحة في تبسيط اللغة العربية وأساليب تدريسها. أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها). جامعة القديس يوسف في بيروت سنة ١٩٨٠. ص ١ – ٥ وص ٢٦٢ – ٢٦٤.

(٤٣) أنيس فريحة: نحو عربية ميسّرة. دار الثقافة. بيروت. ١٩٥٥. ص ٣٦.

وتبدو أهمِّية وظيفة اللغة في الوطنية، في الصراع الذي ينشب بين الدول، فالدول المستعمرة تفرض لغاتها على الدول المحتلَّة. وأبرز الأمثلة على ذلك، فرض الإيطالية في ليبيا، والفرنسية في تونس أثناء الاستعمار. لكن الدول المحتلَّة تحتفظ، عادة، بلغتها أثناء استعمارها، وقد احتفظ البولنديون بلغتهم القومية عندما كانت بلادهم مقسَّمة على ثلاث امبراطوريات في القرن الثامن عشر. ولعل من أهم ما تطالب به الشعوب في ثورتها ضد المستعمر: استعمال لغاتها في الأمور الرسمية، وفي التعليم. والشعوب تعتزّ بلغاتها، وقد حدّثنا التاريخ كيف أنّ الأمويين نقلوا الدواوين إلى العربية، وكيف سَعَت الدولة الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر، إلى تطهير لغتها من الألفاظ الفرنسية الدخيلة، وكيف حاولت تركيا كذلك، إبعاد الألفاظ العربية عن لغتها.

د- وسيلة للترابط الدولي والقومي. فجامعة الدول العربية هي في وجه من وجوهها، لا بل في أهم وجه من وجوهها، جامعة اللغة العربية. ووجود اتحاد الدول الناطقة بالفرنسية «franco phone»، خير دليل على وظيفة اللغة هذه، كما أن الكومنولث لم يوجد إلا نتيجة اللغة الإنكليزية المشتركة بين أعضائه. ويذكر المؤرخون، أنه من أسباب دخول الولايات المتحدة الأميركية، الحرب العالمية الأولى بجانب الحلفاء، الروابط اللغوية بينها وبين انكلترة.

هـ- وسيلة للترابط الاجتماعي: فاللغة نشاط اجتماعي، قد يقصد بها أحياناً الحصول على العون والمساعدة، وإقامة الود والإلفة بين المواطنين. ولهذا السبب يُنظر أحياناً إلى الصمت في الاجتماعات على أنّه مظهر عدائي، أو أنّه مظهر اختلاف في وجهات النظر. وتظهر هذه الوظيفة اللغوية، بشكل واضح، في لغة التحيات والتخاطب والسؤال عن الصحة والأحوال، ولغة التأدّب، والكلام على الطقس.

و – وسيلة للتنفيس عن الإحساسات وبخاصّة العنيفة منها. فالإنسان، عندما يخلو إلى نفسه، وينشد الأشعار الحزينة، باكياً من فقدهم من الأحباب، يستعمل اللغة قصد التفريج والتنفيس عن آلامه وأحزانه، دون أن يبغي نقل إحساسات أو أفكار معيّنة. «وتبدو الأشكال العليا للوظيفة التنفيسية في التعبير الجمالي. فكل الفن الأدبي تنفيس، طالما حركته الدوافع الجمالية كالشعر والقصّة والمقالات والدراما. وتوصيل الأفكار العلمية، غالباً ما يتخذ وظيفة جمالية، وذلك حين يُعنى الرياضي مثلاً، لا بالتطبيق العملي للرياضيات، بل بمجال التفكير المنظّم نفسه، ساعياً إلى مشاركة الآخرين في المتعة بهذا»[44].

و- وسيلة للتسلية أحياناً: فكثيراً ما يتلاعب الكبار والصغار بأصواتهم، قصد التلذّذ والانتشاء والسرور. وما أعضاء النطق، أحياناً، إلا آلات موسيقية يجب تشغيلها، أو «آلة يحب الإنسان أن يلعب بها، وهي تحرّك النفوس، كالموسيقى عند أقوام، والخمور عند آخرين»[45]. ومن هذا المنطلق، نرى أن الحكم على المرأة بالثرثرة فيه أحياناً بعض التجنّي، «فالمرأة مخلوق طبيعي، وتشعر أنّ هذه الهبة العظيمة – اللغة – للثرثرة والكلام في غير المواقف الرسمية. اللغة عندها شيء مستحب، والثرثرة بهجة ومتعة. وفي هذا كثير من الصحة»[46].

وخلاصة القول في وظائف اللغة في المجتمع، أنه، إلى جانب الوظيفة الأساسية للغة التي هي التواصل بين أفراد المجتمع، هناك وظائف أخرى لها، قد تقلّ عن الوظيفة الأساسية من حيث الأهمية، لكننا لا نستطيع

---

(٤٤) موريس، ميشال لويس: اللغة في المجتمع. ترجمة تمام حسّان. مراجعة ابراهيم أنيس. مطبعة البابي. القاهرة. ١٩٥٩ ص ٤٣.

(٤٥) هذا القول لمدام دي ستايل وقد أخذناه عن محمود السعران: اللغة والمجتمع. ص ٣٢.

(٤٦) أنيس فريحة: نحو عربية ميسَّرة. ص ٣٦.

نكران وجودها. وهذه الوظائف المتعدّدة للغة، تجعلها من أهم الظواهر أو «المؤسّسات» الاجتماعية.

يقول كمال الحاج[٤٧]: «لكن اللغة أكثر من واسطة، إنها غاية شرط أن نفهمها فهماً ديناميا. هي ليست أجزاء تتركّب فيا بينها بصورة اصطلاحية. هذا فهم مومياني لها، وتحديد جامد لحياتها. اللغة أصوات في حروف، وحروف في كلمات، وكلمات في جمل، وجمل في نحو، ونحو في بيان. والبيان وحدة لا تتجزّأ. هو الإنسان رمّة في أفكاره ومشاعره، والإنسان كائن مجتمعي، واللغة تعكس هذا الإنسان. عليها إذاً أن تعكس حياة أمّته في مظهريها النفسي والمادّي»[٤٨].

---

(٤٧) لغوي وفيلسوف وأحد أساتذة الجامعة اللبنانية. ولد في الشبانية (لبنان) في السنة ١٩١٤ وتوفي في السنة ١٩٧٦. له «في فلسفة اللغة»، و«دفاعاً عن العربية الفصحى»، و«اللغة العربية بين المبدأ والتطبيق».

(٤٨) كمال الحاج: في فلسفة اللغة. ط ٢. دار النهار للنشر. بيروت. ١٩٦٧. ص ١٧٢.

الفصل الثاني

بين « فقه اللغة » و « علم اللغة »

﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾.

القرآن الكريم (طه: ٢٥ - ٢٨)

١ - « فقه اللغة » و « علم اللغة » من الناحية اللغوية

جاء في مادّة « فَقَه » في لسان العرب: « الفقه: العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم... والفِقْه في الأصل: الفهم. يقال: أُوتي فلان فقهاً في الدِّين أي فهماً فيه. قال الله عزَّ وجلَّ: « لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّين ». أي ليكونوا علماء به... وفَقِهَ فقهاً بمعنى عَلِم علماً »[1]. وجاء في المعجم الوسيط، في المادة نفسها: « الفِقْه: الفهم والفطنة والعلم. وغلب في علم الشريعة وفي علم أصول الدين »[2]. وهكذا تؤكّد سائر المعاجم العربية، أن لفظة « فِقْه » تعني « العِلْم » و « فِقْه اللغة » عندها هو « عِلْم اللغة ».

---

(١) ابن منظور: لسان العرب. دار صادر. بيروت. المجلّد ١٣. ص ٥٢٢.

(٢) مجمع اللغة العربية. المعجم الوسيط. ط ٢. مطابع دار المعارف بمصر. السنة ١٩٧٣. ج ٢. ص ٦٩٨.

٢ - « فقه اللغة » و « علم اللغة » من ناحية الاصطلاح، في الكتب العربية

إذا كان « فقه اللغة » هو « علم اللغة » بعينه من الناحية اللغوية، فهل هو كذلك من الناحية الاصطلاحية؟ أي هل « فقه اللغة » المرادف للكلمة الفرنسية: Philologie وللكلمة الإنكليزية: Philology[٣] هو بالتحديد « علم اللغة »، أو « اللسانية »، أو « الألسنية »[٤]، المرادف للفظة الفرنسية: Linguistique ، وللفظة الإنكليزية Linguistic؟

يظهر أنّ القدماء من علماء العربية، لم يكونوا يفرّقون بين هذين المفهومين، ودليلنا على ما نذهب إليه ثلاثة أمور: أولها أنّ كتاب ابن فارس « الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها » - وهو أول كتاب وصل إلينا يحمل في عنوانه مصطلح « فقه اللغة » - لم يعلّل لنا سبب تسمية الكتاب، وقد عنونه بـ « الصّاحبي » نسبة إلى الصّاحب بن عبّاد[٥] الذي أهداه إليه[٦]. وثانيها أنّ كتاب الثعالبي: « فقه اللغة وسر العربية » - وهو الكتاب الثاني الذي وصلنا حاملاً في عنوانه مصطلح « فقه اللغة » - إنّما تسمّى بهذا الاسم وفقاً لاختيار الأمير الذي أهداه إليه[٧]، لا وفق خطة

---

(٣) هذه الكلمة مركبة من لفظين إغريقيين أولها: «Philos» بمعنى: « الصديق » أو « المحب »، وثانيها: «Logos» بمعنى « الكلام ».

(٤) ويعرف أيضاً باسم « علم اللسان »، « اللسانيات »، « الألسنيات »، « اللّسْنيات ». ونفضّل التسمية « علم اللغة » أو « اللسانية » (لأن النسبة تكون للمفرد على الأفصح).

(٥) هو إسماعيل بن عباد بن العباس (٩٣٨ - ٩٩٥م). لقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه، فكان يدعوه بذلك. كان وزيراً له، لكن غلب عليه الأدب. له تصانيف عدة منها « المحيط » و « الكشف عن مساوىء شعر المتنبي » و « المختار من رسائل الوزير ابن عباد ». (انظر الزركلي: الأعلام، ج ١ ص ٣١٦).

(٦) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، ص ٢٩.

(٧) يقول الثعالبي معلّلاً تسمية كتابه: « وقد اخترت لترجمته (ترجمة الكتاب)، وما أجعله عنوان معرفته، ما اختاره (الممدوح) أدام الله توفيقه (من فقه اللغة وشفعته بسر العربية) ليكون =

للبحث اتفق عليها علماء عصره، كما أنّ القسم الأول من كتابه، وهو المعنون بـ «فقه اللغة» ليس إلا معجماً لألفاظ عربية، اختارها الثعالبي، ورتّبها حسب المعنى الذي تشترك فيه، وفق نسق خاص من الترتيب تراءى له[8]. وثالثها أنّ كتاب ابن جني «الخصائص» - وهو أقرب الكتب القديمة إلى كتب «فقه اللغة» التي نعرفها اليوم، قد ضنّ عليه صاحبه باسم «فقه اللغة»، فعنونه بـ «الخصائص» مشيراً إلى «الخصائص»، أو «القوانين» التي تنتظم العربية.

هذا الاتجاه نحو التسوية بين «فقه اللغة» و «علم اللغة» ظلّ مستمراً عند بعض الباحثين المحدثين. يقول علي عبد الواحد وافي[9]: «أما بحوث علم اللغة نفسه فقد درس المؤلّفون من العرب بعضها تحت أسماء مختلفة، أشهرها «فقه اللغة». وهذه التسمية هي خير ما يوضع لهذه البحوث، فإنّ فقه الشيء هو كل ما يتّصل بفلسفته وفهمه والوقوف على ما يسير عليه من قوانين... وقد كنّا نودّ أن نسمي كتابنا هذا [أي كتابه: علم اللغة] باسم فقه اللغة لولا أنّ هذا الاسم قد خصّص مدلوله في الاستعمال المألوف، فأصبح لا يفهم منه، إلا البحوث المتعلّقة بفقه اللغة العربية وحدها»[10].

= اسماً يوافق مسمّاه ولفظاً يطابق معناه» (الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية. المطبعة الأدبية. القاهرة. ١٣١٧ هـ. ص ١٢).

(٨) وبهذا المفهوم لفقه اللغة ألّف حسين يوسف موسى وعبد الفتاح الصعيدي كتاب «الإفصاح في فقه اللغة» وهو معجم على نهج «المخصّص» لابن سيده، وقد نشر في القاهرة مرتين: الأولى في السنة ١٩٢٩ والثانية في السنة ١٩٦٤. (انظر محمد أحمد أبو الفرج: مقدمة لدراسة فقه اللغة. ط ١. بيروت. دار النهضة العربية. سنة ١٩٦٦. ص ٥١).

(٩) هو عالم مصري لغوي واجتماعي. نال درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس. كان عضو المجمع الدولي لعلم الاجتماع، وعميد كلية الآداب بجامعة أم درمان، وكلية التربية بجامعة الأزهر. له مؤلفات عدة، منها: «علم اللغة»، و «فقه اللغة»، و «نشأة اللغة عند الإنسان والطفل»، و «اللغة والمجتمع»، و «علم الاجتماع»، و «الأسرة والمجتمع».

(١٠) علي عبد الواحد وافي: علم اللغة. ص ١٥ - ١٦.

ويقول الشيخ صبحي الصالح: « من العسير تحديد الفروق الدقيقة بين علم اللغة وفقه اللغة، لأن جلَّ مباحثهما متداخل لدى طائفة من العلماء في الشرق والغرب، قديماً وحديثاً... وإذا التمسنا التفرقة بين هذين الضربين من ضروب الدراسة اللغوية، من خلال التسميتين المختلفتين اللتين تطلقان عليهما، وجدناها تافهة لا وزن لها... وإنّه ليحلو لنا أن نقترح على الباحثين المعاصرين ألاّ يستبدلوا بهذه التسمية القديمة شيئاً، وأن يعمّموها على جميع البحوث اللغوية، لأن كل علم لشيء فهو فقه، فما أجدر هذه الدراسات جميعاً أن تسمّى فقهاً[11] ».

لكن إن كان علي عبد الواحد وافي، وصبحي الصّالح وغيرهما، يسوّون بين المصطلحين: « فقه اللغة »، و « علم اللغة »، فإن ثمّة باحثين آخرين محدثين ميّزوا بينهما، ومنهم كمال بشر[12] الذي يذهب إلى أنّ مصطلح « فقه اللغة » كان يعني في القديم نوعين رئيسين من الأبحاث اللغوية، يشمل أولهما البحث في المعجمات وما إليها، بالإضافة إلى مشكلات المفردات من حيث معانيها وأصالتها وسماتها، وترادفها ونحتها واشتقاقها (غير الصرفي)، وصورها المجازية والحقيقية، ويتضمّن الثاني الدراسات العامّة التي تعدّ مقدّمة للعلوم أو ممهّدة لها، كالكلام على اللهجات، ووظيفة اللغة، وأصلها، ومصادرها، وفكرة القياس، والتعليل. ثم يقول: « أمّا في الحديث، فلم يزل

---

(11) صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة. ص ١٩ – ٢٠

وكذلك انظر: محمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية (دراسة تحليلية مقارنة للكلمة العربية وعرض لمنهج العربية الأصيل في التجديد والتوليد). ط ٢. دار الفكر الحديث. لبنان ١٩٦٤، ص ٣٩.

(12) لغوي مصري (١٩٢٦ –) نال شهادة الدكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٥٦ بموضوع « دراسات نحوية في اللغة اللبنانية ». يشغل حالياً منصب رئيس قسم الدراسات اللغوية في كلية دار العلوم في جامعة القاهرة. له « علم اللغة العام »، و « دراسات في علم اللغة »، و « قضايا لغوية ».

«فقه اللغة» يعني البحث في هذه القضايا وأضرابها، غير أنّ بعض الدارسين يخلطون بينه وبين علم اللغة بالمفهوم الجديد، فيطلقونها في مناقشاتهم كما لو كانا مترادفين، وهو خلط واضح. ففقه اللغة بمفهومه القديم أو الحديث لا يعدو أن يكون حلقة من حلقات الدرس في علم اللغة، وبهذا يمكن الاستغناء عنه والاكتفاء بهذا المصطلح العام «علم اللغة» الذي يجري تطبيقه الآن على أي نوع من أنواع الدرس اللغوي»[١٣]. وكذلك يخلص عبده الراجحي[١٤] من فصله الأول «فقه اللغة وعلم اللغة» من كتابه: «فقه اللغة في الكتب العربية»، إلى القول: «وغني عن البيان الآن أن هناك فرقاً واضحاً بين موضوعي العلمين ومنهجيهما في درس اللغة، وهذا التفريق ينبغي أن يكون واضحاً عند بحث المنهج اللغوي عند العرب»[١٥].

وهكذا نرى أن ثمّة اتجاهين عند علمائنا المحدثين الذين كتبوا في فقه اللغة: اتجاه استند إلى الناحية اللغوية، وإلى المنهج العربي القديم، فسوّى بين المصطلحين: «فقه اللغة» و «علم اللغة»، واتجاه تأثّر بالدراسات اللغوية الحديثة التي طوّرها علماء اللغة الأوروبيون والأميركيون، ففرّق بينهما.

---

(١٣) كمال بشر: دراسات في علم اللغة. القسم الثاني. دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٩. ص ٤٨ - ٤٩..

(١٤) باحث ولغوي مصري نال شهادة الدكتوراه في «اللهجات العربية في القراءات القرآنية»، يشغل حالياً منصب عميد كلية الآداب في جامعة بيروت العربية، له مؤلفات عدة منها: «فقه اللغة في الكتب العربية»، و «النحو العربي والدرس الحديث» و «اللهجات العربية في القراءات القرآنية»، و «التطبيق النحوي».

(١٥) عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية. ص ٢٩.

كذلك انظر عبد الصبور شاهين: في علم اللغة العام. ط ٣. بيروت. مؤسسة الرسالة ١٩٨٠، ص ٥ - ٦ ومحمود السعران: علم اللغة، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢. ص ٣٦٧. ومحمود حجازي: علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة. المكتبة الثقافية. العدد ٢٤٩. ص ٦.

٣ - الفوارق بين « فقه اللغة » و « علم اللغة »

بعد هذه الجولة في بعض الكتب اللغوية التي تطرّقت إلى مفهومي « علم اللغة » و « فقه اللغة »، نشير إلى أن الحركة اللغوية التي تطوّرت تطوراً سريعاً في السنوات الأخيرة، تميل إلى التمييز بينهما على أساس:

١ - أنّ منهجية « فقه اللغة » تختلف عن منهجية « علم اللغة »، بحيث أنّ الأولى تدرس اللغة كوسيلة لدراسة الحضارة أو الأدب من خلال اللغة، بينما تدرس الثانية اللغة لذاتها، يقول أحدهم[١٦]: « إن التفريق بين الاصطلاحين: « فقه اللغة » و « علم اللغة »، واجب للتفريق بين دراسة اللغة باعتبارها وسيلة، وبين دراستها باعتبارها غاية في ذاتها ». ويؤكد دي سوسير De Saussure « أنّ موضوع علم اللغة الصحيح والوحيد هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها »[١٧].

٢ - أن ميدان « فقه اللغة » أوسع وأشمل، إذ إنّ الغاية النهائية منه دراسة الحضارة والأدب، والبحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها، لذلك اهتم فقهاء اللغة بتقسيم اللغات وبمقارنتها بعضها مع بعض، وبإعادة صياغة النصوص القديمة لشرحها في سبيل التعرّف على ما تتضمّنه من مضامين حضارية بمختلف وجوهها، « ففقه اللغة هو الأرض الواسعة بين « علم اللغة » من ناحية وبين الدراسات الأدبية والإنسانية من ناحية أخرى »[١٨]. أما علم اللغة فيركّز على التحليل لتركيب اللغة ووصفها

---

(١٦) هو الأستاذ ألن Allen الذي شغل كرسي فقه اللغة المقارن. Comparative Philology في جامعة كمبردج. وقد أخذنا قوله عن محمد أحمد أبو الفرج: مقدمة لدراسة فقه اللغة، ص ١٧.

(١٧) Ferdinand de Saussure: Course in general linguistics, Translated by Wade Baskin, 1964. P 232.

وقد أخذنا قوله عن عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية ص ١٩.

(١٨) John B. Caroll. The study of language, Harvard. University press. 1959. P 3.

كميدانه الأساسي، وعندما يوسّع علماء اللغة ميدان موضوعهم فيعالجون المعنى فإنهم يقتربون من مجال فقه اللغة »[١٩].

٣ – أن اصطلاح « فقه اللغة » سبق، من الناحية الزمانية، اصطلاح « علم اللغة »، الذي جاء «لتوضيح التركيز اللغوي دون غيره كأساس للفرق بين الاثنين وذلك واضح في وصف اللغة غالباً بأنه مقارن، أما علم اللغة فهو تركيبي [Structural] أو شكلي [Formelle] (أي يعنى بالشكل فقط ولا يعني بما حول اللغة أو ما يتصل بالشكل اللغوي)[٢٠].

٤ – أن « علم اللغة » اتصف منذ نشأته بكونه « علماً » Science، حسب المفهوم الدقيق لهذا المصطلح، وقد شدّد معظم علماء اللغة على هذه الناحية[٢١]، لكن لم يحاول أحد أن يصف « فقه اللغة » بكونه علماً.

٥ – أنّ عمل فقهاء اللغة عمل تاريخي مقارن في أغلبه[٢٢] Historique Comparative أما عمل علماء اللغة فوصفي تقريري (Descriptive).

هذه الفوارق بين « فقه اللغة » و « علم اللغة »، أصبحت المعاجم اللغوية الحديثة تثبتها، وقد جاء في أحدها: « أن « علم اللغة » و « فقه اللغة » غير مترادفين، والعلوم التي يتضمناها مختلفة أشدّ الاختلاف. وهذا التمييز (بين فقه اللغة وعلم اللغة) حديث، لأن علم اللغة لم ينتشر إلا في أواخر

---

(١٩) R. H. Robins: General linguistics, an introductory survey, longmans, 1964. p.

(٢٠) محمد أحمد أبو الفرج: مقدمة لدراسة فقه اللغة. ص ١٨.

(٢١) يقول محمود السعران مثلاً: « وعلم اللغة هو العلم الذي يتخذ اللغة موضوعاً له »(انظر كتابه: علم اللغة، ص ٥١ – ٥٢) والجدير بالملاحظة هنا أن تشدُّد علماء اللغة في هذه الناحية دفعتهم إلى ترك كل ما لا يتوافر فيه المادّة الصالحة للبحث العلمي الصحيح، كالبحث في « نشأة اللغة » وأصول اللغة الأم » و « أفضلية لغة على أخرى ».

(٢٢) لذلك اشتهر « فقه اللغة » في الجامعات المصرية بأنه الدراسة المقارنة داخل اللغات السامية. (انظر عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية: ص ٢٨).

القرن التاسع عشر. وفقه اللغة علم تاريخي غايته معرفة الحضارات الماضية بوساطة الوثائق المكتوبة التي تركتها، والتي تساعدنا على فهم تلك الحضارات وتفسيرها».

«Linguistique et philologie ne sont pas synonymes, et les sciences avec lesquelles, elles sont en contact sont très différentes; cette distinction est récente dans la mesure où la linguistique ne s'est développée qu'à la fin de XIXème siècle. la philologie est une science historique qui a pour objet la connaissance des civilisations passées par les documents écrits qu'elles nous ont laissés: ceux – ci nous permettent de comprendre et d'expliquer ces sociétés anciennes» (٢٣)

بعد هذا التفريق بين «فقه اللغة» و «علم اللغة» لا بد من الإشارة، إلى أن هذا الأخير يدرس اللغة على مستويات أربعة(٢٤) وهي:

١ – المستوى الصوتي، ويدرس فيه الأصوات، إما من ناحية صفاتها دون النظر إلى وظائفها، وعند ذلك يسمّى «الفوناتيك» Phonétique أو علم الأصوات العام، وإما من ناحية وظائفها، فيطلقون عليه اسم «الفونولوجيا» Phonologie أو علم الأصوات التشكيلي.

٢ – المستوى الصرفي Morphologie ويدرس الصيغ اللغوية والوحدات الصرفية.

---

(٢٣) Jean Dubois et autres: Dictionnaire de linguistique. Larousse. Paris 1973. P371.

(٢٤) يجعل بعضهم هذه المستويات ثلاثة: صوتية ونحوية ودلالية. (انظر محمود السعران: علم اللغة ص ٨٩ وص ٢٢١ وص ٢٨٣) كما يجعلها آخرون خمسة: علم الأصوات، الصرف، النحو، الدراسات المعجمية وعلم المعنى (انظر كمال بشر: دراسات في علم اللغة. القسم الثاني. ص ١٠ – ١٢).

٣ - المستوى النحوي Grammaire, syntaxe وميدانه الجملة ودراسة عناصرها وتركيبها.

٤ - علم الدلالة Sémantique ويدرس المعاني، سواء معاني الألفاظ المفردة ويسمّى عند ذلك Lexicologie، أم الجمل والعبارات.

وينقسم «علم اللغة» حسب المنهج الذي يسير عليه إلى: تاريخي Linguistique Historique ووصفي Descriptive وعـام Générale، ووظيفي Fonctionnelle وبنائي Structurale، وتطبيقي Appliquée، ومقارن Comparative.

الفصل الثالث

فقه اللغة في الكتب العربية القديمة

«من أحبّ الله أحبّ رسوله المصطفى ﷺ، ومن أحبّ الرسول أحبّ العرب، ومن أحبّ العرب أحبّ اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العرب والعجم، ومن أحبّ العربية عُني بها وثابر عليها، وصرف همّته إليها».

الثعالبي

١ - تمهيد

عرف العرب منذ فجر نهضتهم الحضارية، التي كان الإسلام السبب الرئيس في نشوئها، ثلاثة مصطلحات لغوية هي: العربية، النحو، اللغة. أما مصطلح «العربية» فكان يعني في بادىء أمره، اللغة العربية التي صيغ بها الشعر، ونزل بها القرآن الكريم، وقد نقل عن عمر بن الخطاب[١] قوله:

---

(١) عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي أبو حفص (٥٨٤ - ٦٤٤ م)، ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقّب بأمير المؤمنين. كان صحابياً جليلاً وشجاعاً حازماً، وخليفة عادلاً وقد ضرب المثل بعدله. أسلم قبل الهجرة بخمس سنين وشهد الوقائع. له كلمات وخطب ورسائل غاية في البلاغة. وكان لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر. (الزركلي: الأعلام: ج ٥، ص ٤٥ - ٤٦).

« تعلّموا العربية، فإنها تشبّب العقل، وتزيد في المروءة »[2]، ثم ما لبث أن أصبح هذا المصطلح مرادفاً للنحو، يقول ابن سلاّم[3]: « وكان أبو الأسود أوّل من استنّ العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها »[4]، ويقول ابن فارس: « وكذلك الحاجة إلى علم العربية، فإن الإعراب هو الفارق بين المعاني، ألا ترى أن القائل إذا قال: « ما أحسن زيد »، لم يفرّق بين التعجب والاستفهام والذم إلا بالإعراب »[5].

وأما مصطلح « النحو »، فالأرجح أنّ العرب عرفوه، كمصطلح « العربية » منذ القرن الأول الهجري، ويؤيد هذا ما نقله ابن سلاّم الجُمحي عن أبيه عن يونس بن حبيب[6]: « قال: وقلت ليونس: هل سمعت من أبي إسحق شيئاً؟ قال: قلت له: هل يقول أحد الصَّويق؟ يعني: السَّويق[7]، قال نعم، عمرو بن تميم تقولها، وما تريد من هذا، عليك بباب من النحو يُطّرد وينقاس[8] ». وكذلك ذكر هذا المصطلح في كتاب سيبويه[9]، وهو أوّل كتاب نحوي وصل إلينا. وكان النحو يشمل الدراسات النحوية والصرفية معاً

---

(٢) الزبيدي: طبقات النحويين واللغويين. ط ٢. القاهرة، ١٩٧٣. ص ١٣.

(٣) محمد بن سلاّم الجمحي بالولاء، أبو عبد الله. إمام في الأدب، من أهل البصرة. له « طبقات الشعراء والجاهليين والإسلاميين »، و« بيوتات العرب » و« غريب القرآن » (الزركلي الأعلام. ج ٦ ص ١٤٦).

(٤) محمد بن سلاّم: طبقات فحول الشعراء. القاهرة، ١٩٧٤ ج ١. ص ١٥.

(٥) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. ص ٦٦.

(٦) يونس بن حبيب، أبو عبد الرحمن، النحوي (٧١٣ – ٧٩٨). كان إمام نحاة البصرة في عصره. أعجمي الأصل. أخذ عنه سيبويه والكسائي والفراء وغيرهم من الأئمة. له « معاني القرآن »، و« اللغات »، و« النوادر » و« الأمثال ». (الزركلي: الأعلام. ج ٨ ص ٢٦١).

(٧) السَّويق طعام يُتّخذ من مدقوق الحنطة والشعير. وسمّي بذلك لانسياقه في الحلق.

(٨) محمد بن سلاّم: طبقات فحول الشعراء. ج ١ ص ١٥.

(٩) انظر مثلاً: سيبويه: الكتاب. تحقيق عبد السلام هارون. ط ٢. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ ج ٢ ص ٣٦٤.

وبعض أشتات من الدرس اللغوي، وقد عرَّفه ابن جني بقوله: « هو انتحاء سمت كلام العرب، في تصرّفه من إعراب وغيره، كالتثنية، والجمع، والتحقير، والتكسير، والإضافة، والنسب، والتركيب، وغير ذلك، ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة، فينطق بها وإن لم يكن منهم، وإن شذّ بعضهم عنها رُدّ به إليها »[١٠].

وأما مصطلح « اللغة » فكانت تعني مجموع المفردات ومعرفة دلالاتها، وكان « اللغوي » من يبحث في المفردات جمعاً وتصنيفاً وشرحاً وتأليفاً، لذلك اعتبر أصحاب المعاجم[١١] لغويين. وقد ميّز عبد اللطيف البغدادي[١٢] اللغوي من النحوي بقوله: « اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه، وأما النحوي فشأنه أن يتصرّف فيما نقله اللغوي ويقيس عليه، ومثالهما المحدّث والفقيه، فشأن المحدّث نقل الحديث برمته، ثم إنّ الفقيه يتلقّاه ويتصرّف فيه، ويبسُط فيه علله، ويقيس عليه الأمثال والأشباه »[١٣].

وأما مصطلح « فقه اللغة » فلم يعرفه العرب إلا في أواخر القرن الرابع

(١٠) ابن جني: الخصائص. ج ١ ص ٣٤.

(١١) ومن هؤلاء الخليل بن أحمد الفراهيدي، وابن دريد، والأزهري، والقالي، وابن سيده، والفيروزبادي، والزبيدي، وابن منظور، وغيرهم (أنظر أسماء أصحاب المعاجم في كتابنا: المعاجم اللغوية العربية، بداءتها وتطورها. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٨١ ص ٣٠ - ٣١).

(١٢) هو عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي. مولده ووفاته ببغداد. من فلاسفة الإسلام وأحد العلماء المكثرين من التصنيف في الحكمة وعلم النفس والطب والبلدان والأدب. من مؤلفاته « الجامع الكبير »، و« تهذيب كلامَ أفلاطون »، و« بلغة الحكيم » و« في التجريد » (الزركلي: الأعلام. ج ٤ ص ٦١).

(١٣) السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، ط ٢ دار إحياء الكتب العربية. القاهرة. لا.ت. ج ١. ص ٥٩.

الهجري، حين أطلق أحمد بن فارس على أحد كتبه اسم « الصاحبي[١٤] في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها »، ثم تبعه أبو منصور عبد الملك الثعالبي، فكتب كتاباً سمّاه « فقه اللغة وسرّ العربية ». لكن، يظهر أن ابن فارس والثعالبي، لم يُفردا، عبارة « فقه اللغة » بمدلول خاص، بل استعملاها على سبيل الاختيار، لا على سبيل التعيين، وذلك لأنها ما كانا يفرّقان في الاستعمال بين مفهومي العبارتين: « علم اللغة »، و « فقه اللغة ».

لكن إن كنا لا نعرف سوى كتابين من الكتب القديمة، حملا اسم « فقه اللغة »، فهذا لا يعني أنّ العرب لم يتناولوا أبحاث فقه اللغة إلا في هذين الكتابين، إذ هناك كثير من الكتب التي تناولت قضايا اللغة، كالمصنّفات النحوية والصرفية، والمباحث البلاغية، والمعاجم، ووجوه القراءات الشاذّة والمتواترة، وما إليها. لكن أكثر الكتب اتصالاً بفقه اللغة حسب ما نفهم من هذه التسمية في أيامنا هذه، هو كتاب « الخصائص » لابن جني، وكتاب « المزهر في علوم اللغة وأنواعها » للسيوطي. لذلك سنقتصر بحثنا في هذا البحث على الكتب الأربعة: « الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها »، و « فقه اللغة وسر العربية »، و « الخصائص »، و « المزهر في علوم اللغة وأنواعها ».

٢ - « الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها »

أ- مؤلّفه

هو أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (٩٤١ - ١٠٠٤ م) أحد أئمة اللغة والأدب. أصله من قزوين. أقام مدّة في همذان، انتقل بعدها إلى

(١٤) وقد سمّاه « الصاحبي » نسبة إلى الصاحب بن عباد المهدى إليه الكتاب. (انظر ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. ص ٢٩).

الرَّي فتوفي فيها. قرأ عليه بديع الزمان الهمذاني والصّاحب بن عبّاد وغيرهما. له مؤلّفات عدّة، منها معجم «المقاييس» ومعجم «المجمل»، وكتاب «ذم الخطأ في الشعر» و«الإتباع والمزاوجة»، و«الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها»[١٥].

ب- محتوياته

بدأ ابن فارس كتابه «الصاحبي» بمقدّمة مختصرة شرح فيها سبب تسمية الكتاب[١٦]، ثم قال: «إنّ لعلم العرب أصلاً وفرعاً: أما الفرع فمعرفة الأسماء والصفات كقولنا: رجل وفرس وطويل وقصير، وهذا هو الذي يبدأ به عند التعلّم. وأما الأصل فالقول على موضوع اللغة وأوّليتها ومنشئها، ثم على رسوم العرب في مخاطباتها، وما لها من الافتنان تحقيقاً ومجازاً[١٧]». وقد اعترف ابن فارس في هذه المقدّمة بأنّ الذي جمعه في مؤلّفه كان مفرّقاً في مؤلّفات العلماء والمتقدّمين، وليس له فيه سوى «اختصار مبسوط أو بسط مختصر أو شرح مشكل أو جمع متفرّق»[١٨]. أما محتويات الكتاب فيمكننا تقسيمها إجمالاً إلى قسمين:

١ - قسم أول عبارة عن عدّة أبواب تتناول نشأة اللغة، وفصيحها ومذمومها ومأخذها، والاحتجاج بالعربية، والخط العربي،.... إلخ. ومن أبواب هذا القسم:

---

(١٥) الزركلي: الأعلام. ج ١ ص ١٩٣.

(١٦) يقول ابن فارس: «وإنما عنونته بهذا الاسم، لأني لما ألّفته، أودعته خزانة الصّاحب الجليل (كافي الكفاة - عمَّر الله عِراص العلم والأدب والخير والعدل بطول عمره) تجمّلاً بذلك وتحسناً». (ابن فارس: الصاحبي في فقه الله وسنن العرب في كلامها. ص ٢٩).

(١٧) المصدر نفسه. ص ٢٩.

(١٨) المصدر نفسه ص ٣١.

- باب لغة العرب توقيف أم اصطلاح (ص ٣١). وفيه يذهب إلى أن لغة العرب توقيف، ودليله قوله تعالى: «وعلّم آدم الأسماء كلها» (البقرة: ٣١).
- باب الخط العربي وأول من كتب فيه(ص ٣٤).(الخط عنده توقيف، وآدم أول من كتب الكتب كلها).
- باب لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها (ص ٤٠).
- باب لغة العرب هل يجوز أن يحاط بها (ص ٤٧). (لا يحيط بالعربية إلّا نبي).
- باب اختلاف لغات العرب (ص ٤٨). (في الحركات والإبدال والهمزة والتليين، والتقديم والتأخير والحذف والإثبات والإمالة والتفخيم... إلخ).
- باب أفصح العرب (ص ٥٢). (وهم عنده قريش).
- باب اللغات المذمومة (ص ٥٣) (عنعنة تميم وكشكشة أسد وكسكسة ربيعة).
- باب الأسباب الإسلامية ص ٧٨. (وفيه يقرِّر أنّ اللغة تتطوّر بتطوّر أسباب حياة الإنسان).

٢ - قسم ثانٍ، يشتمل مسائل متنوعة منها.

- مسائل نحوية كباب أقسام الكلام (ص ٨٣)، وباب النعت (ص ٨٥)، وباب الحروف (ص ١١١) (يبدأها بالألف وينتهي بالياء)، وباب حروف المعاني. (ص ١٢٥).
- مسائل صرفية كباب معاني أبنية الأفعال في الأغلب الأكثر (ص ٢٢٢)، وباب الفعل اللازم والمتعدِّي بلفظ واحد، وباب البناء الدال على الكثرة (٢٢٤)، وباب البسط في الأسماء (ص ٢٢٧).

- مسائل بلاغية وتقع في باب معاني الكلام (ص ١٧٩) (ويتحدّث فيه عن الخبر والاستخبار والأمر والنهي والدعاء والطلب.. إلخ) وباب معاني ألفاظ العبارات التي يعبَّر بها عن الأشياء (ص ١٩٢) (ويتحدث فيه عن المعنى والتفسير والتأويل.... إلخ) وباب سنن العرب في حقائق الكلام والمجاز (ص ١٩٦) (ويتحدّث فيه عن الحقيقة والمجاز والقلب والاستعارة والحذف والاختصار... إلخ).
- مسائل صوتية وهي منتشرة في الأبواب النحوية وبخاصة في الباب الذي خصّصه لدراسة الحروف. (ص ١٠٠ - ١٢٤).

٣ - « فقه اللغة وسرّ العربية »[١٩]

أ - **مؤلّفه:** هو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبو منصور الثعالبي: (٩٦١ - ١٠٣٨) من أئمة اللغة والأدب. نيسابوري الأصل. لقّب بالثعالبي، نسبة إلى صناعته التي كانت خياطة جلود الثعالب. نبغ في اللغة والأدب والتاريخ. صنّف كتباً كثيرة، منها « يتيمة الدهر »، و « فقه اللغة وسر العربية »، و « سحر البلاغة »، و « لطائف المعارف »، و « طبقات الملوك »، و « الإيجاز والإعجاز »، و « الأمثال »... إلخ[٢٠].

ب - **محتوياته:** يبدأ الثعالبي كتابه بمقدّمة يستهلّها بحمد الله والصلاة على نبيّه، ثم يُظهر وجوب دراسة العربية، معتبراً أن « من أحبّ الله، أحبّ رسوله المصطفى ﷺ ومن أحبّ الرسول أحبّ العرب، ومن أحبّ العرب، أحبّ اللغة العربية التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العرب

(١٩) نقدّمه في الدراسة على كتاب الخصائص، بالرغم من تأخره الزمني، لسببين: أولهما حمله عنوان « فقه اللغة » وثانيهما اعتماده على ابن فارس.

(٢٠) الزركلي: الأعلام. ج ٤ ص ١٦٣ - ١٦٤.

والعجم، ومن أحبَّ العربية عُنِيَ بها وثابر عليها، وصرف همّته إليها »[٢١].

ولقد خصَّص الثعالبي القسم الأكبر من هذه المقدّمة لمدح الأمير أبي الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي[٢٢] مبيِّناً بأن كتابه إنما تسمّى بهذا الاسم، وفقاً لاختيار الأمير الذي أهداه إليه، يقول: «وقد اخترت لترجمته [ترجمة الكتاب]، وما أجعله عنوان معرفته، ما اختاره [أي الممدوح] أدام الله توفيقه [من فقه اللغة] ليكون اسماً يوافق مسمّاه، ولفظاً يطابق معناه »[٢٣]. وهذا يدلّ على أنّه لم يجرِ في تأليفه على خطّة اتفق عليها الباحثون آنذاك. ولكن الفصل بين «فقه اللغة» و«سر العربية» واضح عنده، إذ قصر المصطلح الأول على دراسة الألفاظ اللغوية. وقد نصَّ على ذلك في آخر القسم الأوّل من كتابه، قائلًا: «إلى هنا انتهى آخر القسم الأول الذي هو فقه اللغة، ويليه القسم الثاني في أسرار العربية »[٢٤]، ثم يتبع ذلك بعنوان: «القسم الثاني مما اشتمل عليه الكتاب وهو سرّ العربية في مجاري كلام العرب وسننها».

أما باقي محتويات الكتاب فتنقسم إلى قسمين متميّزين:

١ - القسم الأول، ويسمّيه «فقه اللغة»، عبارة عن معجم لألفاظ عربية، اختارها وجمعها حسب المعنى. وقد ضمّنه ثلاثين باباً جاعلًا في كل باب عدّة فصول. ومن هذه الأبواب:

- باب في الكليات وهي ما أطلق أئمة اللغة في تفسيره لفظة كل.

---

(٢١) الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية ص ٦ - ٧.

(٢٢) هو أحمد الأمراء الكتاب الشعراء (؟ - ١٠٤٥ م)، من أهل خراسان. من مؤلفاته «مخزون البلاغة»، و«المنتحل»، و«ديوان رسائله»، و«ديوان شعره» (الزركلي: الأعلام. ج ٤ ص ١٩١).

(٢٣) الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية ص ١٢.

(٢٤) المصدر نفسه ص ٢٥٦.

- باب في التنزيل والتمثيل.
- باب في أشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها.
- باب في أوائل الأشياء.
- باب في صغار الأشياء وكبارها وعظامها وضخامها.
- باب في الطول والقصر.
- باب في اليبس واللين.
- باب في اليبس.

ومن الملاحظ أن تسميته للأبواب كانت بعبارة يتحرّى أن تعطي فكرة عن مضمونها، لكن القارىء لا يفهم عنوان الباب إلا إذا قرأ بعضاً مما فيه.

٢ - القسم الثاني، ويسمّيه سر العربية، يشتمل على جوانب مختلفة من الأبحاث اللغوية، ومنها:

- مسائل في النظم موجودة في فصول أول هذا القسم، (ص ٢٥٦ - ٢٧٢) وبخاصة فصل تقديم المؤخّر وتأخير المقدّم، وفصل في الحمل على اللفظ والمعنى والمجاورة، وفصل فيما يذكّر ويؤنّث.. إلخ.
- مسائل في الصرف متفرّقة هنا وهناك، ومنها فصل في أبنية الأفعال (ص ٢٩٥)، وفصل في الإبدال (ص ٣٠٢)، وفصل في اشتقاق نعت الشيء من اسمه عند المبالغة. (ص ٣٠٣).
- مسائل في النحو نجدها حين يتحدّث الثعالبي عن الحروف من الألف إلى الياء، عاقداً لكل حرف فصلاً، ومنهياً فصول الحروف، بفصل يبين فيه وقوع حروف المعنى بعضها مكان بعض[٢٥].

---

(٢٥) المصدر السابق ص ٢٧٨ - ٢٨٦.

- مسائل بلاغية نجدها بشكل خاص في آخر الكتاب، حيث يعقد فصولاً في الاستعارة والتجنيس والطباق والكناية والالتفات والحشو.

ج- التشابه والاختلاف بين «الصاحبي» و«فقه اللغة وسر العربية»

يتفق الثعالبي مع ابن فارس في أن الغرض الأساسي من دراسة اللغة، إنما هو التعلم وخدمة الدين[٢٦]، وهو يعتمد عليه اعتماداً كبيراً (وقد ذكره في مقدمة كتابه)، حتى أنه نقل عنه أبواباً بأكملها لم يغيّر عناوينها ولا المادّة التي تحتويها[٢٧]. ولعلّ الفرق الأهم بين «الصاحبي» و«فقه اللغة وسر العربية» هو أن الثعالبي، لم يعرض، كما فعل ابن فارس، للقضايا اللغوية العامة، كالحديث عن نشأة اللغة، والخط العربي، واختلاف لغات العرب، واللغات المذمومة... إلخ.

٤ - «الخصائص»

أ- مؤلّفه: هو عثمان بن جنّي الموصلي، أبو الفتح (-، ١٠٠٢ م)، من أئمة الأدب والنحو. ولد بالموصل، وتوفي ببغداد. له تصانيف عدّة منها: «الخصائص»، و«شرح ديوان المتنبي»، و«المحتسب»، و«سر صناعة

---

(٢٦) قارن: «فقه اللغة وسر العربية» ص ٢ – ٣، و«الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها» ص ٣٠.

(٢٧) قارن مثلاً باب «الخصائص» عند ابن فارس (ص ٢٦٤) بـ«فصل في خصائص من كلام العرب» (ص ٣٠٤) عند الثعالبي، وباب النحت في الكتابين (ابن فارس ص ٢٧٠، والثعالبي ص ٣٠٢)، وباب الإتباع (ابن فارس ص ٢٧٠ والثعالبي ص ٣٠٣) و«باب في إخراجهم الشيء المحمود بلفظ يوهم غير ذلك (ابن فارس ص ٢٦٧ والثعالبي ص ٣٠٣).

الإعراب »، و« اللمع » و« التصريف الملوكي »، و« المذكّر والمؤنّث » إلخ[٢٨].

محتوياته

ب- يبدأ ابن جني كتابه « الخصائص » الذي يقع في ثلاثة أجزاء، بمقدّمة يستهلّها بحمد وصلاة، على عادة كتاب عصره، ثم يُثني على المؤيَّد بهاء الدولة[٢٩] المهدي إليه الكتاب، مظهراً ميزة كتابه من الكتب التي سبقته في مجاله. ومحتويات الكتاب ملتصقة التصاقاً وثيقاً بأبحاث « فقه اللغة » المعروفة اليوم. ويمكننا أن نجملها بالمسائل التالية:

١ - مسائل عامّة تتضمن البحث في ماهية اللغة ونشأتها وتفرّعها وتطوّرها، ومنها الأبواب التالية:

- باب القول على اللغة وما هي (ج ١ ص ٣٣ - ٣٤) وفيه يقرّر « أنها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم »[٣٠] وهذا التعريف يقترب اقتراباً شديداً من كثير من تعريفات المحدثين[٣١].
- باب القول على أصل اللغة إلهام هي أم اصطلاح (ج ١ ص ٤٠ - ٤٨)، وفيه يرجّح أنّ اللغة تواضع واصطلاح[٣٢].
- باب في تركّب [تداخل] اللغات (ج ١ ص ٣٧٤ - ٣٩١).
- باب في هذه اللغة، أفي وقت واحد وُضِعَت أم تلاحق تابع منها بفارط (ج ٢ ص ٢٨ - ٤٠).

---

(٢٨) الزركلي: الأعلام. ج ٤ ص ٢٠٤.

(٢٩) هو منصور بن دبيس بن علي الأسدي، بهاء الدولة: أمير الحلّة وبادية العراق. كان فاضلاً عارفاً بالأدب شجاعاً شاعراً. (الزركلي: الأعلام. ج ٧ ص ٢٩٩).

(٣٠) ابن جني: الخصائص: ج ١. ص ٣٣.

(٣١) انظر عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية. ص ٦٠ - ٦٥.

(٣٢) انظر للمزيد من الإيضاح حول هذا الموضوع، المرجع السابق ص ٨٣ - ٨٧.

٢ - مسائل منهجية تتعلّق بمنهج البحث في اللغة ومنها:

- باب في الاحتجاج بقول المخالف (ج ١ ص ١٨٨ - ١٨٩).
- باب القول على إجماع أهل العربية متى يكون حجّة (ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٤).
- باب اختلاف اللغات وكلها حجة (ج ٢ ص ١٠ - ١٢).
- باب في العربي يسمع لغة غيره، أيراعيها ويعتمدها، أم يلقيها ويطّرح حكمها (ج ٢ ص ١٤ - ١٧).
- باب في اللغة المأخوذة قياساً (ج ٢ ص ٤٠ - ٤٣).
- باب فيما يحكم به القياس مما لا يسوغ به النطق (ج ٢ ص ٤٩٣ - ٤٩٧).

٣ - مسائل صوتية، ومنها الأبواب التالية:

- باب في المِثْلَين كيف حالهما في الأصلية والزيادة، وإذا كان أحدهما زائداً فأيهما هو (ج ٢ ص ٥٦ - ٦٩).
- باب في الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما مكان صاحبه (ج ٢ ص ٨٢ - ٨٨).
- باب في مضارعة الحروف للحركات والحركات للحروف (ج ٢ ص ٣١٥ - ٣٢١).
- باب الساكن والمتحرّك (ج ٢ ص ٣٢٨ - ٣٤٢).
- باب تحريف الحرف (ج ٢ ص ٤٤٠ - ٤٤١).

٤ - مسائل صرفية، ومنها الأبواب التالية:

- باب في قلب لفظ إلى لفظ، بالصنعة والتلطّف، لا بالإقدام والتمجرف (ج ٢ ص ٨٨ - ٩٣).

- باب في الاشتقاق الأكبر (ج ٢ ص ١٣٣ - ١٣٩).
- باب في الاشتقاق الأصغر (ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤٥).
- باب في زيادة الحرف عوضاً من آخر محذوف (ج ٢ ص ٢٨٥ - ٣٠٦).
- باب في الغرض في مسائل التصريف (ج ٢ ص ٤٨٧ - ٤٨٨).

٤ - مسائل نحوية، وأبوابها كثيرة منها:

- باب القول على النحو (ج ١ ص ٣٤ - ٣٥).
- باب القول على الإعراب (ج ١ ص ٣٥ - ٣٧).
- باب القول على البناء (ج ١ ص ٣٧ - ٤٠).
- باب في تخصيص العلل (ج ١ ص ١٤٤ - ١٦٤).
- باب حذف الفعل (ج ١ ص ٣٧٩ - ٣٨١).
- باب حذف الحرف (ج ١ ص ٣٨١).

٥ - مسائل بلاغية ودلالية، ومن أبوابها:

- باب في الحروف بين الحقيقة والمجاز (ج ٢ ص ٤٤٢ - ٤٤٧).
- باب في أنّ المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة (ج ٢ ص ٤٤٧ - ٤٥٧).
- باب في قوّة اللفظ لقوّة المعنى (ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٩).
- باب في الدلالة اللفظية والصناعية والمعنوية (ج ٣ ص ٩٨ - ١٠١).

٥ - «المزهر في علوم اللغة وأنواعها»

أ - **مؤلّفه**: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (١٤٤٥ - ١٥٠٥ م) إمام ومؤرّخ وأديب. نشأ في القاهرة يتيماً، خلا بنفسه لما بلغ الأربعين، وانقطع عن الناس، إلى تأليف الكتب. له نحو ستمئة

مصنَّف، منها: «الجامع الصغير»، و«الألفية في النحو»، و«الألفية في مصطلح الحديث»، و«الدر النثير في تلخيص نهاية ابن الأثير»، و«شرح شواهد المغني»، و«همع الهوامع في شرح جمع الجوامع»، و«المزهر في علوم اللغة وأنواعها»[٣٣].

ب- محتوياته: بدأ السيوطي كتابه بمقدّمة استهلها بحمد الله والصلاة على نبيّه، ثم ذهب إلى أنّ كثيراً ممّن تقدّموه ألمّوا بأشياء من كتابه، لكن مجموع ما فيه لم يسبقه إليه سابق. ثم فصّل مواضيع كتابه، خاتماً مقدّمته بنقل مقدّمة ابن فارس لكتابة «الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها»، ومصرّحاً بهذا النقل[٣٤].

وفصول الكتاب ليست إلا جمعاً لما قاله المتقدّمون مع إضافة بعض البدوات القليلة، وبعض الفقرات التي يقدّم أو يختم بها بعض الأبواب. وقد جعل السيوطي مؤلّفه في خمسين نوعاً أو باباً[٣٥]: «ثمانية في اللغة من حيث الإسناد، وثلاثة عشر من حيث الألفاظ، وثلاثة عشر من حيث المعنى، وخمسة من حيث لطائفها ومُلَحِها، وواحد راجع إلى حفظ اللغة وضبط مفاريدها، وثمانية راجعة إلى حال اللغة ورواتها، ونوع لمعرفة الشعر والشعراء، والأخير لمعرفة أغلاط العرب[٣٦]». و«الأنواع» الأولى من الكتاب مرتّبة كالتالي:

- النوع الأول: معرفة الصحيح ويقال له الثابت والمحفوظ. ويتناول فيه

---

(٣٣) الزركلي: الأعلام. ج ٣ ص ٣٠١ - ٣٠٢.

(٣٤) السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. ص ٤.

(٣٥) وقد قسّم بعض الأنواع (الأبواب) إلى فصول. انظر مثلاً النوع التاسع (ص ١٨٤) والباب التاسع والعشرين (ص ٤٢٦) والنوع التاسع والثلاثين (ص ٥٦٧).

(٣٦) عن مقدّمة محقّقي كتاب المزهر. ص أ.

حدّ اللغة وتصريفها (ص ٧)، وواضع اللغة (ص ٨)، والألفاظ ودلالتها (ص ١٦)، ومأخذ اللغات (ص ٢١)... إلخ.

- النوع الثاني: معرفة ما روي من اللغة ولم يصح ولم يثبت. وفي هذا النوع يثبت السيوطي الأمثلة من المعاجم التي سبقته (ص ١٠٣ - ص ١١٢).
- النوع الثالث: معرفة المتواتر والآحاد (ص ١١٣)[٣٧].
- النوع الرابع: معرفة المرسل والمنقطع (ص ١٢٥)[٣٨].
- النوع الخامس: معرفة الأفراد (ص ١٢٩)[٣٩].

ويمكننا عموماً أن نجمل مسائل الكتاب بما يلي:

١ - مسائل عامّة احتلّت القسم الأكبر من الكتاب، وبخاصّة أبوابه الأولى، ومنها فصله في حدّ اللغة وتصريفها (ج ١. ص ٧)، وواضع اللغة (ج١. ص ٨) ومأخذ اللغات (ج ١. ص ٢١)، وسبب اختلاف لغات العرب (ج ١ ص ٥٥)، ومعرفة المتواتر والآحاد (ج ١. ص ١١٣)، ومعرفة الفصيح (ج ١ ص ١٨٤)، ومعرفة الرديء والمذموم من اللغات (ج ١ ص ٢٢١)... إلخ.

٢ - مسائل صوتية ومنها معرفة ما ورد بوجهين بحيث يؤمَن فيه التصحيف (ج ١ ص ٥٣٧)، وفصل في اللُّثْغَة (ج ١ ص ٥٦٦) والألثغ (ج ١. ص ٥٦٦)... إلخ.

---

(٣٧) المتواتر هو لغة القرآن وما تواتر من السنّة وكلام العرب، أما الآحاد فما تفرّد بنقله بعض أهل اللغة، ولم يوجد فيه شرط التواتر.

(٣٨) المرسل، عنده، هو الذي انقطع سنده.

(٣٩) هو ما انفرد بروايته أحد أهل اللغة ولم ينقله أحد غيره، وحكمه القبول إذا كان المتفرّد به من أهل الضبط والإتقان.

٣ - مسائل صرفية ومنها كلامه على الاشتقاق (ج ١ ص ٣٤٦)، والاشتقاق الأصغر (ج ١ ص ٣٤٧)، والاشتقاق الأكبر (ج ١ ص ٣٤٧)، ومعرفة الإبدال (ج ١ ص ٤٦٠).

٤ - مسائل نحوية. ككلامه على الإعراب (ج ١ ص ٣٢٧)، وذكر ما يذكر ويؤنث (ج ٢ ص ٢٢٤)، وذكر الألفاظ التي تقال للمجهول (ج ٢ ص ٢٤٤).

٥ - مسائل دلالية، ككلامه على الاستعارة (ج ١ ص ٣٣١)، وذكر الواحد والمراد الجمع (ج ١ ص ٣٣٣)، وذكر الجمع والمراد واحد أو اثنان (ج ١ ص ٣٣٣)، ومعرفة الحقيقة والمجاز (ج ١ ص ٣٠٥)، والمشترك (ج ١ ص ٣٦٩) والأضداد (ج ١ ص ٣٨٧)، والترادف (ج ١ ص ٣٠٨)... إلخ.

٦ - موقع هذه الكتب من « فقه اللغة »

بعد أن عرضنا لكتاب ابن فارس « الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها »، وكتاب الثعالبي « فقه اللغة وسر العربية » وكتاب ابن جني « الخصائص »، وكتاب السيوطي « المزهر في علوم اللغة وأنواعها »، لا بدّ من التساؤل حول موقع هذه الكتب من كتب « فقه اللغة »، حسب ما يفهمه الدرس الحديث من هذا المصطلح. والواقع أننا بمقارنة هذه الكتب بأعمال علماء فقه اللغة الغربيين المحدثين، نستنتج أن ثمّة فروقاً بين هذه الأعمال وتلك الكتب، تتمثّل بما يلي[٤٠]:

١ - إن كلّاً من علماء « فقه اللغة » وعلماء العربية الأقدمين، درس اللغة باعتبارها وسيلة إلى غاية، لكن هذه الغاية مختلفة، فهي عند الأوائل

---

(٤٠) انظر عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية ص ٥٤ - ٥٥.

دراسة الثقافة والحضارة بما تشتملان عليه من ديانة وعادات وتقاليد وآداب، وهي عند علماء العربية درس لغة القرآن الكريم لفهم نصوصه.

٢- لم يعتنِ علماء العربية كعلماء فقه اللغة بإعادة تشكيل اللغات القديمة الأصلية.

٣- درس علماء العربية لغتهم باعتبارها لغة حيّة منطوقة، بينما درس علماء فقه اللغات المحدثون، اللغة باعتبارها لغة ميتة مكتوبة.

٤- لم يعمد اللغويون العرب إلى المقارنات اللغوية، كما فعل علماء فقه اللغة المحدثون، وكل ما عندهم من مقارنات لا يعدو مقارنة بعض الكلمات بالفارسية أو الرومية.

٥- لم يهتم اللغويون العرب، كعلماء فقه اللغة، بدراسة التطور الدلالي، ولا بدراسة اللهجات، بل قصروا درسهم على اللغة الفصحى المشتركة التي نزل بها القرآن الكريم.

هذه الفروق بين أعمال فقهاء اللغة المحدثين وبين علماء العربية الأقدمين، دفعت عبده الراجحي إلى القول بأن «الدرس اللغوي كما تمثّله كتب ابن فارس وابن جني والثعالبي لا يصح إدراجه تحت «فقه اللغة» كما يفهمه أصحابه من الغربيين»[٤١] وعنده أن هذا الدرس يندرج تحت «علم اللغة» وليس تحت «فقه اللغة»[٤٢].

وعندنا أن هناك فرقاً كبيراً[٤٣] بين منهج علم اللغة ومنهج علماء

---

(٤١) المرجع السابق ص ٥٥.

(٤٢) المرجع نفسه ص ٥٦.

(٤٣) لا ينكر الراجحي هذا الفرق فيقول: «فإننا لا ننكر أن هناك فرقاً كبيراً بين منهج العرب في دراسة لغتهم وبين منهج اللغويين في علم اللغة» (المرجع نفسه ص ٥٥).

العربية الأقدمين، يتمثّل أكثر ما يتمثل في أنّ علم اللغة علم وصفي موضوعي، في حين أنّ الدرس اللغوي العربي القديم معياري تعليلي في أغلبه. زد على ذلك أن هذا الدرس، وإن كان قد تناول مجمل المستويات اللغوية التي يتناولها علم اللغة الحديث، فإنّه لم يميِّز بين هذه المستويات في الدراسة، إذ غالباً ما كان يعمد اللغوي العربي إلى مزج هذه المستويات ودراسة بعضها مع البعض الآخر. وعليه، نرى أنه من التعسّف أن ننظر إلى الدرس اللغوي عند القدماء بمنظار علماء «فقه اللغة» المحدثين، أو وفق منهج «علم اللغة» الحديث، لأن هذا الدرس قد شكّل منهجاً خاصاً به ومتميِّزاً. لذلك علينا أن ننظر إلى كتب «فقه اللغة» القديمة، فنحكم عليها، من خلال هذا المنهج الخاص.

٧ - «فقه اللغة» في أوائل الكتب العربية الحديثة المؤلّفة فيه

لا تفوتني الإشارة، في نهاية هذا، الفصل، إلى أن كتب «فقه اللغة» العربية الحدثة، وبخاصة الأولى منها، قد نهجت نهجاً أقرب إلى المفهوم القديم لمصطلح «فقه اللغة» من مفهومه الحديث. ولعله من المفيد أن نقف وقفة قصيرة عند الكتب الثلاثة الأولى التي صدرت في العصر الحديث والتي حملت مصطلح «فقه اللغة» في عناوينها. وهي «فقه اللغة». لعلي عبد الواحد وافي، و«فقه اللغة وخصائص العربية». لمحمد المبارك[٤٤]، و«دراسات في فقه اللغة» للشيخ صبحي الصالح.

أما كتاب علي عبد الواحد وافي «فقه اللغة» فهو أول كتاب عربي يحمل هذا المصطلح في العصر الحديث، وقد اعتبره مؤلّفه الجزء الثاني من

---

(٤٤) باحث سوري متخصّص بالدراسات اللغوية، وأستاذ فقه اللغة في جامعة دمشق. له مؤلفات عدة، منها: «فقه اللغة»، و«فقه اللغة وخصائص العربية»، و«فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ»، و«الأمة والعوامل المكوّنة لها».

كتابه «علم اللغة»[45]، مساوياً بين «علم اللغة» و«فقه اللغة»[46]، اللذين يشمل كل منهما، عنده[47]، الفصول المتعلّقة بحياة اللغة وعلم اللهجات dialectologie-dialectology، ودراسة الأصوات phonétique-phonétics[48]، وعلم الدلالة[49] sémantique-sémantic، وعلم المفردات lexicologie lexicology، والصرف morphologie-morphology، والنحو syntaxe-syntax، والبحث في أصول الكلمات Etymologie-Etymology، وأساليب اللغة stylistique-stylistic، وبحوث أخرى نفسية واجتماعية تدرس العلاقة بين اللغة والحياة الاجتماعية من ناحية، وبين اللغة والظواهر النفسية من ناحية أخرى[50].

ويتضمّن الكتاب تمهيداً في الشعوب السامية ولغاتها، وستة أبواب على النحو التالي:

الباب الأول: اللغات الأكادية (ص ٢٥ – ص ٣٣).

الباب الثاني: اللغات الكنعانية (ص ٣٤ – ص ٥٥).

---

(٤٥) يقول في مقدّمة الطبعة الأولى من كتابه «فقه اللغة»: «فمؤلفنا هذا في منزلة الجزء الثاني من كتابنا «علم اللغة»، غير أننا آثرنا أن نطلق عليه اسماً خاصاً شاع استعماله في الموضوعات التي يعرض لها، وخاصة فيما يتعلق منها باللغة العربية».

(٤٦) انظر كتابه «فقه اللغة» ص ١٥ – ١٦.

(٤٧) انظر كتابه «علم اللغة» ص ٦ – ١٥.

(٤٨) لم يميز الوافي بين علم الأصوات phonétique وبين علم وظائف الأصوات phonologie.

(٤٩) خالف الوافي علماء اللغة المحدثين في وضعه الاشتقاق والنظم في أبحاث هذا العلم.

(٥٠) لا يجعل علماء اللغة المحدثون، الفصول النفسية والاجتماعية من فصول علم اللغة. انظر:

Halliday, M.A.K, Mcintosh. A. and Strevens, P: The linguistic science and language teaching, longmans, London, 1964 pp 1-4.

الباب الثالث: اللغات الآرامية (ص ٥٦ - ص ٧١).

الباب الرابع: اللغات اليمنية القديمة (ص ٧٢ - ص ٨٦).

الباب الخامس: اللغات الحبشية السامية (ص ٨٧ - ٩٥).

الباب السادس: اللغة العربية (ص ٩٦ - ٣٠٤) وعناصرها (ص ١٦٤) وقواعد بنيتها (ص ٢١٦) وأسلوبها (ص ٢٢٥)، وكفاية اللغة العربية ومنزلتها (ص ٢٤٤)، وصيانتها (ص ٢٥١).

وأما الكتاب الثاني «فقه اللغة وخصائص العربية» فيبدأه مؤلفه محمد المبارك، ملقياً بعض الضوء على علم اللغة، مسوّياً بينه وبين «فقه اللغة»[51]: وأقسام علم اللغة عنده هي[52]:

١ - الأصوات التي تتألّف منها الألفاظ.

٢ - الألفاظ المفردة أو الكلمات.

٣ - التراكيب.

٤ - فصول أخرى كدراسة تأثير اللغات بعضها في بعض، ودراسة اللهجات والرسم أو الكتابة... إلخ.

وتشمل فصول الكتاب دراسة الأصوات اللغوية (ص ٤٣ - ٦٨) والاشتقاق (ص ٦٩ - ص ١١١)، والأبنية والأوزان (ص ١١٢ - ص ١٤٦)، ومعاني الألفاظ (ص ١٥٣ - ص ١٨٤)، ووضع الألفاظ ونشأة اللغة (ص ١٨٥ - ص ٢٠٥)، وحياة الألفاظ (ص ٢٠٦ - ص ٢٢٦)، وخصائص العربية (ص ٢٢٧ - ص ٢٩٠)، والتعريب (ص ٢٩١ - ص ٣٠١).. إلخ. وقد عالج هذه الموضوعات دون أن يخرج عن دائرة اللغة العربية، إلا عندما أورد بعض المقارنات باللاتينية والإسبانية والفرنسية هنا وهناك.

---

(٥١) انظر محمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية. ص ٣٩.

(٥٢) المرجع نفسه ص ٢١ - ٢٤.

وأما الكتاب الثالث «دراسات في فقه اللغة» فقد بدأه مؤلفه الشيخ صبحي الصالح بمقدّمة نقد فيها كتب اللغة السابقة عليه، ثم عنون الباب الأول «فقه اللغة نشأته وتطوره» مسوّياً فيه بين «فقه اللغة» و«علم اللغة» ومعرّفاً «فقه اللغة» بأنه «منهج للفصل استقرائي وصفي، يُعرف به موطن اللغة الأول وفصيلتها وعلاقتها باللغات المجاورة أو البعيدة، الشقيقة أو الأجنبية، وخصائص أصواتها، وأبنية مفرداتها وتراكيبها، وعناصر لهجاتها، وتطور دلالتها، ومدى نمائها قراءةً وكتابة»[٥٣]. وقد اعتبر أنّ البحوث الأساسية المذكورة في هذا التعريف، تتعلّق بعلوم ثلاثة: التاريخ، علم الصوت، وعلم الدلالة[٥٤].

ويشمل الكتاب مقدّمة وثلاثة أبواب وخاتمة، يتناول الباب الأول، كما أشرنا، «فقه اللغة نشأته وتطوّره»، ويدرس الباب الثاني المعنون بـ«العربية بين أخواتها السامية»، أشهر فصائل اللغات (ص ٤١ – ص ٤٦)، ولمحة تاريخية عن اللغات السامية (ص ٤٧ – ٥٨)، والعربية الباقية وأشهر لهجاتها (ص ٥٩ – ص ٧٠)، ولهجة تميم وخصائصها (ص ٧٢ – ص ١٠٥). ويتضمّن الباب الثالث المعنون بـ«خصائص العربية الفصحى»، مقاييس اللغة الفصحى (ص ١٠٩ – ص ١١٦)، وظاهرة الإعراب (ص ١١٧ – ص ١٤٠)، ومناسبة حروف العربية لمعانيها (ص ١٤١ – ص ١٧٢)، والمناسبة الوضعيه وأنواع الاشتقاق (ص ١٧٣ – ص ٢٤٢)، والنحت (ص ٢٤٣ – ص ٢٧٤)، والأصوات العربية وثبات أصولها (ص ٢٧٥ – ص ٢٩١)، واتساع العربية في التعبير (ص ٢٩٢ – ص ٣١٣)،

---

(٥٣) صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة ص ٢١ – ٢٢.
(٥٤) المرجع نفسه ص ٢٢.

وتعريب الدخيل (ص ٣١٤ – ٣٢٧)، وصيغ العربية وأوزانها (ص ٣٢٨ – ص ٣٤٦)، والعربية في العصر الحديث (ص ٣٤٧ – ص ٣٦١). وقد عالج هذه الموضوعات معتمداً على الكتب القديمة، بشكل عام، ومكثراً من النصوص المستقاة منها.

ملحق

نصوص مختـــــارة من «الصّاحـــــبي» و«الخصائص» و«فقه اللغة» و«المزهر»

النصّ الأوّل من «الصّاحبي»: باب القول في أفصح العرب[1]

أخبرني أبو الحسن أحمد بن محمد مولى بني هاشم بقزوين قال: حدَّثنا أبو الحسن محمّد بن عبّاس الخُشكي، قال: حدّثنا إسماعيل بن أبي عبيد الله قال: أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيّامهم ومحالّهم أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغةً. وذلك أن الله - جلّ ثناؤه - اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختار منهم نبيَّ الرحمة محمّداً - ﷺ - فجعل قريشاً قطّان حرمه وجيران بيته الحرام وولاته، فكانت وفود العرب من حجّاجها وغيرهم، يفدون إلى مكّة للحج، ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم. وكانت قريش تعلّمهم مناسكهم وتحكم بينهم. ولم تزل العرب تعرف لقريش فضلها عليهم، وتُسمّيها أهل الله لأنّهم الصَّريح من ولد إسماعيل عليه السلام - ولم تَشُبْهُم شائبة، ولم تَنْقُلْهم عن

(١) أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ص ٥٢. وستعرض لهذا الموضوع في فصلنا السادس.

مناسبهم ناقلة، فضيلة من الله - جلّ ثناؤه - لهم وتشريفاً، إذ جعلهم رهْط نبيِّه الأدنين وعِترته[2] الصّالحين. وكانت قريش مع فصاحتها، وحسن لغاتها، ورقّة ألسنتها، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيَّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم. فاجتمع ما تخيَّروا من تلك اللّغات إلى نحائرهم وسلائقهم التي طُبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصحَ العرب. ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة[3] تميم، ولا عجرفيّة قيس، ولا كشكشة[4] أسد، ولا كسكسة[5] ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس مثل: تِعلمون ونِعلم، ومثل: شِعير، وبِعير.

النص الثاني من «الصّاحبي»: باب ذكر ما اختصَّت به العرب[6]

من العلوم الجليلة التي خُصَّت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللّفظ، وبه يُعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما مُيِّز فاعل من مفعول، ولا مُضاف من منعوت، ولا تعجّب من استفهام، ولا صدر من مصدر، ولا نعت من تأكيد. وذكر بعض أصحابنا أنّ

---

(٢) عترته: نسله.

(٣) هي إبدال الهمزة في «أن» عيناً نحو قول ذي الرمّة: أعن ترسّمت.

(٤) هي أن تجعل بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً، فتقول في: رأيتكِ، بكِ»: «رأيتكِش، بكِش»، أو هي إبدال هذه الكاف تاء ثم زيادة الشين فتقول: «أبوتِش» في «أبوكِ» و«أمتِش» في «أمكِ»، أو هي إبدال كاف المؤنث شيناً فتقول: «عيناشِ» و«جيدشِ» في «عيناكِ» و«جيدكِ». وفائدة الكشكشة في ربيعة ومَضر تمييز المؤنّث من المذكر.

(٥) هي إبدال كاف المؤنّث سيناً نحو: «عليسِ» في «عليكِ»، وهذا في الوقف دون الوصل. أو هي زيادة السين بعد كاف المؤنث نحو: أمّكِس في «أمّكِ»، أو إبدال الكاف تاء، ثم زيادة السين نحو: «أمتِس» في «أمكِ»، و«أبوتِس» في «أبوكِ». وفائدة الكسكسة في هوزان تمييز المؤنث من المذكر.

(٦) أحمد بن فارس: الصّاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ص ٧٧.

الإعراب يختصّ بالإخبار، وقد يكون الإعراب في غير الخبر أيضاً، لأنّا نقول: أزيدٌ عندك؟ وأزيداً ضربت؟ فقد عَمِل الإعراب وليس هو من باب الخبر.

وزعم ناس يُتَوقَّف عن قبول أخبارهم، أنّ الذين يُسمّون الفلاسفة، قد كان لهم إعراب ومؤلّفات نحو. قال أحمد بن فارس: وهذا كلام لا يُعرَّج على مثله، وإنما تشبّه القوم آنفاً بأهل الإسلام، فأخذوا من كتب علمائنا، وغيّروا بعض ألفاظها، ونسبوا ذلك، إلى قوم ذوي أسماء منكرة بتراجم بشعة لا يكاد لسان ذي دين ينطق بها. وادّعوا مع ذلك للقوم شعراً. وقد قرأناه فوجدناه قليل الماء، نزر الحلاوة، غير مستقيم الوزن. بلى الشعر شعر العرب وديوانهم وحافظ مآثرهم ومقيّد أحسابهم. ثم للعرب العروض التي هي ميزان الشعر، وبها يعرف صحيحه من سقيمه. ومن عرف دقائقه وأسراره وخفاياه علِم أنّه يُربي على جميع ما يبجّح به هؤلاء الذين ينتحلون معرفة حقائق الأشياء من الأعداد والخطوط والنقط التي لا أعرف لها فائدة، غير أنها مع قلّة فائدتها تُرِقّ الدين، وتنتج كلّ ما أعوذ بالله منه.

وللعرب حفظ الأنساب، وما يُعلَم أحد من الأمم عُني بحفظ النَّسب عناية العرب. قال الله – جلّ ثناؤه – «يا أيها الناس إنّا خلَقْناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» (الحجرات ٤٩: ١٣)، فهي آيةٌ ما عمل بمضمونها غيرهم. وممّا خصّ الله – جلّ ثناؤه – به العرب طهارتهم ونزاهتهم عن الأدناس التي استباحها غيرهم، من مخالطة ذوات المحارم، وهي منقبة تعلو بجمالها كل مأثرة، والحمد لله.

النصّ الثالث من «الخصائص»: باب القول على اللغة وما هي [٧]

أما حدّها فإنها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم. هذا حدها.

(٧) الخصائص ج ١ ص ٣٣. وقد عرضنا لتعريف اللغة في الفصل الأول.

وأما اختلافها فلما سنذكره في باب القول عليها: أمواضعة هي أم إلهام.
وأمّا تصريفها ومعرفة حروفها فإنها فُعْلَة من لغوت، أي: تكلّمت، وأصلها لُغْوَة ككُرة، وقُلَة، وثُبة، كلها لاماتها واوات؛ كقولهم: كَرَوْت بالكرة، وقَلَوْت بالقلة، لأنَّ ثُبة كأنّها من مقلوب ثاب يثوب. وقد دلّلت على ذلك وغيره من نحوه في كتابي في «سر الصّناعة». وقالوا فيها: لُغات ولُغُون، ككُرات وكُرون، وقيل منها لَغِي يلغى إذا هَذَى، ومصدره اللّغا، قال:

ورِبٍّ أسرابِ حجيجٍ كُظَّمِ عن اللّغا ورَفَثِ التّكلُّمِ

وكذلك اللّغو؛ قال الله سبحانه وتعالى: «وإذا مرّوا باللغوِ مرّوا كِراماً[9]»، أي بالباطل، وفي الحديث: «من قال في الجمعة: صه فقد لغا»، أي تكلّم وفي هذا كاف.

النص الرابع من «الخصائص»: باب في الاشتقاق الأكبر[10]

هذا موضع لم يسمّه أحد من أصحابنا، غير أن أبا علي[11] – رحمه الله – كان يستعين به، ويُخلد إليه، مع إعواز الاشتقاق الأصغر. لكنه مع

---

(٨) أسراب جمع سرب وهو في الأصل القطيع من الوحش والظباء، استعير للطائفة من الحجيج. كظم: سكوت.

(٩) ك: ٧٢.

(١٠) الخصائص ج ٢ ص ١٣٣. والتسمية «الاشتقاق الأكبر» اقترحها ابن جني، لكن اللغويين بعده أطلقوا على هذا النوع من الاشتقاق اسم «الاشتقاق الكبير»، أما الاشتقاق الأكبر فهو عندهم ما كان فيه اشتراك في بعض الحروف، وكان بين الحروف المتغايرة تشابه أو تقارب في المخرج، مع وجود تقارب في المعنى. نحو جَذَم وجَذَل (قطع) ونقق ونهق. وسنعرض لموضوع الاشتقاق في الفصل العاشر.

(١١) هو الحسن بن أحمد (٩٠٠ – ٩٨٧ م) فارسي الأصل، أحد أئمة العربية، كان أستاذاً لابن جني ولعضد الدولة البديهي. له مؤلفات عدّة منها «الإيضاح»، و«التذكرة»، و«تعاليق سيبويه»، و«الشعر»، و«ما أغفله الزجاج من المعاني». (الزركلي: الأعلام ج ٢ ص ١٧٩ – ١٨٠).

هذا لم يسمِّه، وإنّما كان يعتاده عند الضرورة، ويستروح إليه ويتعلَّل به. وإنّما هذا التلقيب لنا نحن. وستراه فتعلم أنه لقب مستحسن. وذلك أنّ الاشتقاق عندي على ضربين: كبير وصغير.

فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم، كأن تأخذ أصلاً من الأصول فتتقرّاه فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيغه ومبانيه. وذلك كتركيب (س ل م) فإنك تأخذ منه معنى السلامة في تصرفه، نحو: سلم، ويسلم، وسالم، وسلمان، وسلمى، والسلامة، والسليم: اللديغ، أطلق عليه تفاؤلاً بالسلامة. وعلى ذلك بقية الباب إذا تأوّلته، وبقية الأصول غيره، كتركيب (ض ر ب) و (ج ل س) و (ز ب ل) على ما في أيدي الناس من ذلك. فهذا هو الاشتقاق الأصغر. وقد قدَّم أبو بكر[12] - رحمه الله - رسالته فيه بما أغنى عن إعادته[13]، لأن أبا بكر لم يألُ فيه نصحاً، وإحكاماً، وصنعة وتأنيساً.

وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية، فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستّة معنى واحداً، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرّف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد شيء من ذلك عنه، ردّ بلطف الصنعة والتأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد. وقد كنّا قدمنا ذكر طرف من هذا الضرب من الاشتقاق في أوّل هذا الكتاب عند ذكرنا أصل الكلام، والقول، وما يجيء من تقليب تراكيبها، نحو (ك ل م)، (ك م ل)، (م ك ل)، (م ل ك)، (ل ك م)، (ل م ك)، وكذلك (ق و ل)، (ق ل و)، (و ق ل)، (و ل ق)، (ل ق و)، (ل و ق)، وهذا أعوص

---

(١٢) هو محمد بن السري بن سهل، أحد أئمة الأدب والعربية، من أهل بغداد. تلميذ المبرد وشيخ البصرة بعده. من مؤلفاته «شرح كتاب سيبويه»، و «الشعر والشعراء»، و «الخط والهجاء» و «الموجز في النحو». (الزركلي: الأعلام ج ٦ ص ١٣٦).

(١٣) يعترف ابن جنّي هنا بفضل أبي بكر بن السراج في كتابه عن الاشتقاق وقد قيل، إن هذا الكتاب لم يتم.

مذهباً، وأحزن مضطرباً. وذلك أنّا عقدنا تقاليب الكلام الستة[14] على القوة والشدّة، وتقاليب القول الستة على الإسراع والخفّة. وقد مضى ذلك في صدر الكتاب[15].

لكن بقي علينا أن نُحضر هنا مما يتصل به أحرفاً، تُؤنِّس[16] بالأول، وتشجِّع منه المتأمل.

فمن ذلك تقليب (ج ب ر) فهي - أين وقعت - للقوّة والشدّة، منها «جبرت» العظم، والفقير: إذا قوّيتها وشددت منها، و «الجبر» الملك لقوته، وتقويته لغيره.

ومنها رجل «مجرَّب»: إذا جرّسته[17] الأمور ونجّذته، فقويت مُنّته، واشتدّت شكيمته.

ومنه «الجراب» لأنه يحفظ ما فيه، وإذا حُفظ الشيء، وروعي، اشتدّ وقوي. وإذا أغفل وأهمل، تساقط ورذي. ومنها «الأبجر» و «البجرة»[18]، وهو القوي السُّرّة. ومنه قول علي صلوات الله عليه: إلى الله أشكو عُجَري وبُجَري، تأويله همومي وأحزاني. وطريقه أن العُجْرة كل عقدة في الجسد، فإذا كانت في البطن والسرّة فهي البُجْرة والبَجَرة، تأويله أن السرّة غلظت ونتأت فاشتدّ مسّها وأمرها. وفُسِّر أيضاً قوله: عُجَري وبُجَري، أي ما أبدي وأخفي من أحوالي. ومنه «البرج» لقوته في نفسه

---

(١٤) كان ينبغي أن يقول: «الخمسة»، لأن (ل م ك) مهملة، كما سبق أن ذهب إليه. (انظر الجزء الأول من الخصائص ص ١٣).

(١٥) الجزء الأول ص ٥.

(١٦) أنّسته: أحسسته ووجدته، ويؤنسه: يجعله ذا أنس.

(١٧) جرّسته: قوّته وأحكمته.

(١٨) البَجر: خروج السُّرة ونتوؤها. والبُجرة: السُّرّة (التجويف الصغير في وسط البطن) أو العقدة في الوجه أو العنق أو البطن، ومثلها العُجْرة.

وقوّة ما يليه به، وكذلك «البَرَج» لنقاء بياض العين وصفاء سوادها، هو قوة أمرها، وأنه ليس بلون مستضعف، ومنها «رجَّبْتُ» الرجل: إذا عظَّمته وقوّيت أمره. ومنه «رجب» لتعظيمهم إياه عن القتال فيه، وإذا كرُمت النخلة على أهلها فمالت دعموها بالرُّجبَة، وهو شيء تسند إليه لتقوى به. و«الراجبة» أحد فصوص الأصابع، وهي مقوِّية لها. ومنها «الرُّباجيّ» وهو الرجل يفخر بأكثر من فعله، قال:

وتلقاه رباجيًّا فخوراً

تأويله أنه يعظِّم نفسه، ويُقوّي أمره.

ومن ذلك تراكيب (ق س و)، (ق و س)، (و ق س)، (و س ق) (س و ق) وأهمل (س ق و). وجميع ذلك إلى القوّة والاجتماع. منها «القسوة» وهي شدّة القلب واجتماعه، ألا ترى إلى قوله:

يا ليت شِعري - والمُنى لا تنفع ... هل أغْدُوَنْ يوماً وأمري مُجْمَعُ

أي قويّ مجتمع، ومنها «القوس» لشدتها، واجتماع طرفيها. ومنها «الوقس» لابتداء الجرَب، وذلك لأنّه يجمع الجلد ويُقحله، ومنها «الوسْق» للحِمل، وذلك لاجتماعه وشدته، ومنه استوسق الأمر، أي اجتمع، «والليلِ وما وسق»[19]، أي جمع، ومنها «السَّوْق»، وذلك لأنه استحثاث وجمع للمسوق بعضه إلى بعض، وعليه قال:

مستوسقات لو يجدن سائقاً[20]

فهذا كقولك: مجتمعات لو يجدن جامعاً.

فإن شذَّ شيء من شُعَب هذه الأصول عن عَقْده ظاهراً، رُدَّ بالتأويل

(١٩) سورة الانشقاق: ١٧.

(٢٠) من رجز العجاج، وقبله: «إن لنا لإبلاً حقائقاً».

إليه، وعطف بالملاطفة عليه. بل إذا كان هذا قد يعرض في الأصل الواحد حتى يُحتاج فيه إلى ما قلناه، كان فيما انتشرت أصوله بالتقديم والتأخير أولى باحتماله، وأجدر بالتأوّل له.

ومن ذلك تقليب (س م ل)، (س ل م)، (م س ل)، (م ل س)، (ل م س)، (ل س م)، والمعنى الجامع لها المشتمل عليها الإصحاب والمُلاينة. ومنها الثوب «السَمَل» وهو «الخَلَق»[٢١]. وذلك لأنه ليس عليه من الوبر والزئبر[٢٢] ما على الجديد. فاليد إذا مُرّت عليه للّمس، لم يستوقفها عنه جِدّة المَنسج، ولا خُشنَة الملمس. والسَمَل: الماء القليل: كأنه شيء قد أخْلَق وضعف من قوة المضطرَب، وجَمّة المُرْتكض، ولذلك قال:

حوضاً كأنّ ماءه إذا عَسَلْ   من آخرِ الليلِ رُويزيٌّ سَمَلْ[٢٣]

وقال آخر:

ورّاد أسمال الميــــاه السُدْمِ   في أُخْرياتِ الغبش المِغَمّ[٢٤]

ومنها السلامة. وذلك أنّ السليم ليس فيه عيب تقف النفس عليه، ولا يعترض عليها به. ومنها المسْل والمسَل كله واحد، وذلك أن الماء لا يجري إلاّ في مذهب له وإمام منقاد به، ولو صادف حاجزاً لاعتاقه فلم يجد متسرّباً معه. ومنها الأملس والملساء، وذلك أنه إن عارض اليد شيء حائل بينها وبين الملموس، لم يصحّ هناك لمس، فإنما هو إهواء باليد نحوه، ووصول منها

---

(٢١) الخَلَق: البالي.

(٢٢) الزئبر: ما يعلو الثوب الجديد من وبر الثوب أو نحوه.

(٢٣) عَسَل الماء عسلاً وعسلاناً: حركته الريح فاضطرب وارتفعت حبكه.
الرويزي: الطيلسان. (وهو كساء أخضر لا تفصيل فيه ولا خياطة. يلبسه خواص العلماء والمشايخ). وقد شبّه الشاعر الماء في صفائه بخضرة الطيلسان.

(٢٤) المياه السدم: الغائرة، وهي جمع سدوم (كرسول ورسل). الغَبش: الظلمة، وقيل ظلمة آخر الليل. المِغَم: ذو غم أو الذي يضيق الأنفاس من شدّة الحرّ.

إليه لا حاجز ولا مانع، ولا بدّ مع اللمس من إمرار اليد وتحريكها على الملموس، ولو كان هناك حائل لاستوقفت به عنه. ومنه الملامسة، «أو لامستم النساء»[٢٥] أي جامعتم، وذلك أنه لا بدّ هناك من حركات واعتمال، وهذا واضح. فأمّا (ل س م) فمهمل. وعلى أنهم قد قالوا: نسمت الريح إذا مرّت مرًّا سهلاً ضعيفاً، والنون أخت اللام[٢٦]، وسترى نحو ذلك.

ومرَّ بنا أيضاً أَلْسَمْتُ الرجل حجّته إذا لَقّنته وألزمته إياها. قال:

لا تُلسِمَنّ أبا عمران حُجّته ولا تكوننْ له عوناً على عمرا

فهذا من ذلك، أي سهلتها وأوضحتها.

واعلم أنه لا ندّعي أنّ هذا مستمر في جميع اللغة، كما لا ندّعي للاشتقاق الأصغر أنّه في جميع اللغة. بل إذا كان ذلك الذي هو في القسمة سدس هذا، أو خمسه متعذّراً صعباً، كان تطبيق هذا وإحاطته أصعب مذهباً وأعزّ ملتمساً. بل لو صَحَّ من هذا النحو وهذه الصنعة المادةُ الواحدة، تتقلّب على ضروب التقلّب كان غريباً معجباً. فكيف به وهو يكاد يساوق الاشتقاق الأصغر، ويُجاريه إلى المدى الأبعد.

وقد رسمتُ لك منه رسماً فاحتذِه، وتقيّله[٢٧] تحظَ به، وتُكثر إعظام هذه اللغة الكريمة من أجله. نعم، وتسترفده في بعض الحاجة إليه، فيعينك ويأخذ بيديك، ألا ترى أنّ أبا علي رحمه الله، كان يقوّي كون لام «أُثْفِيَّة» فيمن جعلها «أفعولة» واواً، بقولهم: جاء يثفه، ويقول: هذا من الواو لا محالة كيَعِده. فيرجّح بذلك الواو على الياء التي ساوقتها في «يَثفوه» وَ «يَثفيه». أفلا تراه كيف استعان على لام «ثفا» بفاء «وثف». وإنما

---

(٢٥) النساء: ٤.

(٢٦) أي تشبهها في المخرج.

(٢٧) أي احتذه وتقلّده.

ذلك لأنّها مادّة واحدة شكّلت على صور مختلفة، فكأنّها لفظة واحدة. وقلت مرّة للمتنبّي[٢٨]: أراك تستعمل في شعرك ذا، وتا وذي كثيراً. ففكّر شيئاً ثم قال: إنّ هذا الشعر لم يُعمل كله في وقت واحد. فقلت له: أجل لكن المادّة واحدة. فأمسك البتّة، والشيء يذكر لنظيره، فإنّ المعاني وإن اختلفت معنيّاتها، آوية إلى مضجع غير مُقِضّ[٢٩]، وآخذ بعضها برقاب بعض.

النصّ الخامس من «فقه اللغة وسر العربية»: في أوائل الأشياء وأواخرها[٣٠]

الفصل الأول: في سياقة الأوائل

الصُّبحُ أول النهار. الغسق أول الليل. الوسميُّ أول المطر. البارِض أوّل النبت. اللّماع أوّل الزرع (وهذا عن الليث)[٣١]. اللِّباء أوّل اللبن. السُّلاف أوّل العصرِ. الباكورة أول الفاكهة. البِكر أوّل الولد. الطّليعة أوّل الجيش. النَّهَل أوّل الشُّرب. النَّشوةُ أول السكر. الوَخْط أوّل الشَّيب. النّعاس أوّل النوم. الحافِرةُ أوّل الأمر (ومنها قولُه: «أإنّا لمردودون في

---

(٢٨) أحمد بن الحسين (٩١٥ – ٩٦٥ م)، من كبار شعراء العرب. ولد في محلة كندة في الكوفة، وقتل في عودته من فارس إلى بغداد. أفضل شعره في المدح، والحكمة، ووصف المعارك على صياغة قوية محكمة. له ديوان شرحه طائفة من كبار الأدباء، كانت تربطه صداقة قوية مع ابن جني (الزركلي: الأعلام ج ١ ص ١١٥).

(٢٩) تقضّى عليه المضجع: خشن ولم يستقرّ به ولم يهنأ.

(٣٠) الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية. دار الكتب العلمية. بيروت. لا. ت. ص ١٩.

(٣١) الليث بن رافع بن نصر بن سيار (؟ – ٧٩٦ م). أحد أئمة الأدب والشعر والغريب والنحو، كما كان من الفقهاء والزهاد. ينسب إليه بعضهم «كتاب العين» المنسوب إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي. (ياقوت الحموي: معجم الأدباء. دار الشرق. بيروت. لا. ت. ج ١٧ ص ٤٣ – ٥٢).

الحافرة »[٣٢] أي في أول أمرنا. ويقال في المثل: النَّقد عند الحافرة أي عند أوّل كلمة). والفَرَط أوّل الورّاد (وفي الخبر: أنا فَرَطكُم على الحوض أي أوّلكم). الزُّلَف أول ساعات الليل (واحدتها زَلفة عن ثعلب[٣٣] عن ابن الأعرابي)[٣٤]. الزَّفير أوّل صوتِ الحمار (والشَّهيقُ آخره عن الفرّاء)[٣٥]. النُّقبةُ أوّل ما يظهر من الجرب (عن الأصمعي)[٣٦]. العَلَقَة أوّل ثوب يُتَّخذ للصبي (عن أبي عبيد عن العَدَبَّس). الاستهلال أوّلُ صُياح المولود، إذا وَلْوَل. النَّبط أوّل ما يظهر من ماء البئر إذا حُفِرت. الرَّسُّ والرَّسيس أوّل ما يأخذ من الحمّى. الفرعُ أوّلُ ما تنتجه النَّاقةُ (وكانت العرب تذبحه لأصنامها تبرُّكاً بذلك).

الفصل الثاني: في مثلها

صدر كل شيء وغرَّته أوَّله. فاتحةُ الكتاب أوَّله. شرخُ الشَّباب وريعانُه وعنفوانُه ومَيْعَتُه وغُلَواؤه وريِّقه أوّله. ريِّق المطرِ أوّل شُؤبوبه. حِدْثان

---

(٣٢) النازعات: ١٠.

(٣٣) أحمد بن يحيى (٨١٦ – ٩٠٤ م) إمام الكوفيين في النحو واللغة. كان راوية للشعر، محدثاً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة. ولد ومات في بغداد. من كتبه «الفصيح»، و«قواعد الشعر»، و«ما تلحن فيه العامة» و«إعراب القرآن» (الزركلي: الأعلام ج ١ ص ٢٦٧).

(٣٤) محمد بن زياد (٧٦٧ – ٨٤٥ م) راوية وناسب وعلاّمة باللغة. من أهل الكوفة. من تصانيفه «أسماء الخيل وفرسانها»، و«النوادر»، و«تفسير الأمثال» و «شعر الأخطل». (الزركلي: الأعلام ج ٦ ص ١٣١).

(٣٥) يحيى بن زياد (٧٦١ – ٨٢٢ م): إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. ولد في الكوفة. من كتبه «معاني القرآن»، و«المقصور والممدود»، و«المذكر والمؤنث» و«ما تلحن فيه العامة» (الزركلي: الأعلام. ج ٨ ص ١٤٥ – ١٤٦).

(٣٦) عبد الملك بن قريب (٧٤٠ – ٨٣١ م) راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. مولده ووفاته بالبصرة. كان الرشيد يسميه شيطان الشعر. له تصانيف كثيرة منها: «الإبل»، و«خلق الإنسان»، و«المترادف» و«الفرق» (الزركلي: الأعلام. ج ٤ ص ١٦٢).

الأمر أوّله. قرن الشمس أوّلها. عثنون الريح أوّلها. غزالةُ الضُّحى أوَّلها سَرَعانَ الخيل أوائلها تباشير الصبح أوائله.

الفصل الثالث: في الأواخر

الأهزع آخر السِّهام الذي يبقى في الكِنانة. السكّيتُ آخر الخيل التي تجيء في آخر الحلبة. الغَلَس والغبشُ آخرُ ظلمة الليل. الزُّكمة والعجزَةَ آخر وُلدِ الرجل (عن أبي عمرو)[٣٧]. الكيُّول آخر الصفِّ (عن أبي عبيد)[٣٨]. الفَلْتةُ آخر يوم من الشهر الذي بعده الشهر الحرام. البراء آخر ليلة من الشهر (عن الأصمعي. وعن ابن الأعرابي أنه آخر يوم من الشهر وهو السَّعد عندهم. قال الراجز:

إنَّ عبيــــداً لا يكون غُسًّا   كما الــــبراءُ لا يكونُ نحسا)

الغائرة آخر القائلة. الخاتمة آخر الليل. ساقةُ العسكر آخره. عُجْمَةُ الرمل آخره.

النصّ السادس من «فقه اللغة وسر العربية»: في اليُبْس واللّين[٣٩]

الفصل الأول: في تفصيل الأسماء والأوصاف الواقعة على الأشياء اليابسة (عن الأئمة)

الخبيز الخبز اليابس. الجليد الماء اليابس. العشب التّمر اليابس. القَشع

---

(٣٧) اسحق بن مرار (٧١٣ - ٨٢١ م) لغوي وأديب كوفي. من كتبه: «كتاب اللغات»، «كتاب الخيل»، و«كتاب الجيم» و«النوادر». (الزركلي: الأعلام ج ١ ص ٢٩٦).

(٣٨) القاسم بن سلّام (٧٧٤ - ٨٣٨) من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه. ولد في هراة وتعلم بها. من كتبه «الغريب المصنَّف»، و«الأمثال»، و«المذكر والمؤنث» و«المقصور والممدود» (الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ١٧٦).

(٣٩) الثعالبي: فقه اللغة وسر العربية. دار الكتب العلمية. بيروت. لا. ت. ص ٣١.

الجلد اليابس. القُفّة الشجرة اليابسة. الحشيش الكلأ اليابس. القتُّ الإسفست(٤٠) اليابس. الحَشْل المُقْل(٤١) اليابسُ. الجَزْل الحطَبُ اليابس. الضَّريع الشِّبرق(٤٢) اليابس. الصَّلْدُ الحجر اليابس. البَعْر الزِّبل اليابس. العصيم العَرَق اليابس. الجسدُ الدَّم اليابس. الصَّلصال الطِّين اليابس.

الفصل الثاني: في تفصيل أشياء رطبة

الرُّطَب الثمر الرَّطب. العشب الكلأ الرَّطب. الفِصْفِصَة القتُّ الرَّطب. الثُّرمطة الطين الرَّطب (عن ثعلب عن الفرّاء). الأَزْنَةُ الجُبْن الرَّطب. (عن ثعلب عن ابن الأعرابي).

الفصل الثالث: في الأسماء والصفات الواقعة على الأشياء اللينة (عن الأئمة)

السَّهل ما لان من الأرض. الرَّغام ما لان من الرَّمل. الرَّغفةُ ما لان من الدُّروع. الألوقة ما لان من الأطعمة. الرَّغد ما لان من العيش. الثَّعْد ما لان من البُسرِ(٤٣).

الفصل الرابع: في تقسيم اللين على ما يوصف به

ثوب ليِّن. رمح لَدْن. لحم رخص. بنان طَفْل. شعر سُخام. غُصْن أُملود. فِراش وثير. ريح رُخاء. أرض دَمِثَة. بَدَنٌ ناعم. فَرَس خوّارُ العِنان إذا كان لين المعطف.

---

(٤٠) الإسفست: نوع من النبات.
(٤١) المُقل: حمل الدوم وهو يشبه النخل.
(٤٢) الشبرق: صنف من النبات.
(٤٣) البُسر: تمر النخلة قبل أن يُرطب.

النصّ السابع من «المزهر»: المناسبة بين اللفظ ومدلوله[44]

نقل أهل أصول الفقه عن عبّاد بن سليمان الصيري، من المعتزلة، أنه ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع أن يضع، قال: وإلاّ لكان تخصيص الاسم المعيَّن بالمسمّى المعيَّن ترجيحاً من غير مرجِّح. وكان بعض من يرى رأيه يقول: إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها، فسئل ما سمّي «إذغاغ»؟ وهو بالفارسية الحجر، فقال: أجد فيه يُبساً شديداً، وأراه الحجر.

وأنكر الجمهور هذه المقالة وقال: لو ثبت ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى كل لغة، ولما صحَّ وضع اللفظ للضدَّين، كالقَرْء: للطّهر والحيض، والجون: للأبيض والأسود، وأجابوا عن دليله بأن التخصيص بإرادة الواضع المختار، خصوصاً إذا قلنا: الواضع هو الله تعالى، فإن ذلك كتخصيصه وجود العالم بوقت دون وقت. وأما أهل اللغة والعربية، فقد كادوا يُطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني، لكنّ الفرق بين مذهبهم ومذهب عبّاد أن عبّاداً يراها ذاتية موجبة، بخلافهم. وهذا كما تقول المعتزلة براعاة الأصلح في أفعال الله تعالى وجوباً، وأهل السنّة لا يقولون بذلك، مع قولهم إنه تعالى يفعل الأصلح، لكن فضلاً منه لا وجوباً. ولو شاء لم يفعله[45].

---

(٤٤) السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. ج ١ ص ٤٧. وقد عرضنا لشيء من هذا الموضوع في فصلنا الأول عند كلامنا على نشأة اللغة.

(٤٥) يُقر المعتزلة والسنّة معاً بوجود المناسبة بين اللفظ ومدلوله، ولكن المعتزلة يرونها مناسبة موجبة، على حين يراها الجمهور موجودة من غير وجوب. وهذا مظهر من مظاهر الاختلاف المشهور بينهم حول الفعل الأصلح.

مناسبة الألفاظ للمعاني

وقد عقد ابن جنّي في الخصائص باباً لمناسبة الألفاظ للمعاني(٤٦)، وقال: اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقّته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحّته، قال الخليل: كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدًّا، فقالوا: صَرّ. وفي صوت البازي تقطيعاً، فقالوا: صرصر. وقال سيبويه في المصادر التي جاءت على الفَعَلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة، نحو: النَقَزَان والغَثَيان، فقابلوا بتوالي حركات الأمثال توالي حركات الأفعال.

قال ابن جني(٤٧): وقد وجدت أشياء كثيرة من هذا النمط، من ذلك المصادر الرباعية المضعّفة تأتي للتكرير، نحو: الزعزعة، والقلقلة، والصّلصلة، والقعقعة، والجرجرة، والقرقرة.

ووجدت أيضاً الفعَلى في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة، نحو البشكى(٤٨)، والجَمَزى(٤٩)، والوَلَقى(٥٠).

ومن ذلك باب استفعل، جعلوه للطلب، لما فيه من تقدّم حروف زائدة على الأصول، كما يتقدم الطلبُ الفعل، وجعلوا الأفعال الواقعة من غير طلب، إنما تفجأ حروفها الأصول، أو ما ضارع بالصيغة الأصول، فالأصول نحو قولهم: طعِم ووهب، ودخل وخرج، وصعد ونزل، فهذا إخبار بأصول فاجأت عن أفعال وقعت، ولم يكن معها دلالة تدلّ على طلب لها ولا إعمال

---

(٤٦) يعني: «باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني». ابن جني: الخصائص ج ٢ ص ١٥٢.

(٤٧) لاحِظْ أن السيوطي ينقل النص عن ابن جني بتصرّف.

(٤٨) امرأة بشكى: سريعة.

(٤٩) حمار جَمزى: وثّاب سريع.

(٥٠) الوَلَقى: عَدْو سريع فيه وثب.

فيها، وكذلك ما تقدَّمت الزيادة فيه على سمت الأصل، نحو: أحسن، وأكرم، وأعطى، وأولى، فهذا من طريق الصيغة بوزن الأصل في نحو: دحرج وسرهف[51]. وكذلك جعلوا تكرير العين، نحو: فرَّح وبشَّر، فجعلوا قوّة اللفظ لقوّة المعنى، وخصّوا بذلك العين، لأنها أقوى من الفاء واللام، إذ هي واسطة لهما ومكنونة بها، فصار كأنها سياج لها، ومبذولان للعوارض دونها، ولذلك تجد الإعلال بالحذف فيهما دونه.

فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج متلئبّ[52]، عند عارفيه مأموم، وذلك أنّهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها، فيعدلونها بها، ويحتذونها عليها، وذلك أكثر مما نقدِّره، وأُضعاف ما نستشعره. من ذلك قولهم: خضِم وقَضِم، فالخضم لأكل الرَّطب، كالبطيخ والقثاء وما كان نحوها من المأكول الرطب، والقضم لأكل اليابس نحو قضِمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك، وفي الخبر: قد يدرك الخضم بالقضم. أي قد يدرك الرخاء بالشدّة، واللين بالشظف، وعليه قول أبي الدرداء[53]: يخضمون ونقضم والموعد الله. فاختاروا الخاء لرخاوتها للرَّطب، والقاف لصلابتها لليابس، حَذْواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث. ومن ذلك قولهم النضح للماء ونحوه، والنضخ أقوى منه، قال الله سبحانه: «فيهما عينان نضّاختان»[54]، فجعلوا الحاء لرقّتها للماء الخفيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه. ومن ذلك قولهم القدّ طولاً، والقطّ عرضاً، لأن الطاء أخفض للصوت وأسرع قطعاً له من

---

(٥١) سرهفتُ الطفل: أحسنت غذاءه.

(٥٢) متلئب: مستقيم ومستوٍ.

(٥٣) عويمر بن مالك بن قيس (- ٦٥٢ م)، صحابي من الحكماء الفرسان القضاة، وفي الحديث «عويمر حكيم أمتي»، ولاه معاوية قضاء دمشق بأمر عمر بن الخطاب، وهو أول قاضٍ بها. وهو أحد الذين جمعوا القرآن، حفظاً، بلا خلاف. (الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ٩٨).

(٥٤) الرحمن: ٦٦.

الدال المستطيلة، فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض، لقربه وسرعته. والدال الماطِلة لما طال من الأثر، وهو قطعه طولاً.

قال: وهذا الباب واسع جداً لا يمكن استقصاؤه.

قلت[٥٥]: ومن أمثلة ذلك ما في الجمهرة: الخنن[٥٦] في الكلام أشد من الغنن، والخُنّة أشد من الغُنّة[٥٧]، والأنيت أشد من الأنين، والرنين أشد من الحنين.

وفي الإبدال لابن السكيت[٥٨] يقال: القبصة أصغر من القبضة. قال في الجمهرة: القبص: الأخذ بأطراف الأنامل، والقبض الأخذ بالكف كلها. وفي الغريب المصنَّف عن أبي عمرو: هذا صوغ هذا، إذا كان على قدره، وهذا سوغ هذا، إذا ولد بعد ذلك على أثره. ويقال: نقب على قومه ينقُب نقابة من النقيب وهو العريف، ونكب عليهم ينكُبُ نكابة وهو المنكب، وهو عون العريف.

وقال الكسّائي: القضم للفرس، والخضْم للإنسان.

وقال غيره: القضم بأطراف الأسنان: والخضم بأقصى الأضراس.

وقال أبو عمرو: النضح بالضاد المعجمة: الشرب دون الريّ. والنصح بالصاد المهملة: الشرب حتى يروى. والنشح بالشين المعجمة دون النضح بالضاد المعجمة.

---

(٥٥) لاحظ أن السيوطي، كعادته، يجمع الأمثلة المناسبة من المصادر المختلفة.

(٥٦) الخنن: خروج الكلام من الخياشيم.

(٥٧) الغُنّة: صوت يخرج من الخيشوم.

(٥٨) يعقوب بن إسحاق (٨٠٢ – ٨٥٨ م). إمام في اللغة والأدب. أصله من خوزستان. تعلّم ببغداد. اتصل بالمتوكل العبّاسي، فعهد إليه بتأديب أولاده، وجعله في عداد ندمائه، ثم قتله لسبب مجهول. من كتبه «إصلاح المنطق»، و«الألفاظ»، و«الأضداد»، و«القلب والإبدال». (الزركلي: الأعلام. ج ٨ ص ١٩٥).

وقال الأصمعي من أصوات الخيل: الشَّخير، والنَّخير، والكرير، فالأوّل من الفم، والثاني من المنخرين، والثالث من الصدر.

وقال الأصمعي: الهتل من المطر أصغر من الهطل.

وفي الجمهرة: الطمطمة بإهمال الميم: تتابع الأصوات في الحرب وغيرها والغطغطة بالإعجام: صوت غليان القدر وما أشبهه.

والجمجمة بالجيم: أن يخفي الرجل في صدره شيئاً ولا يبديه. والحمحمة بالحاء: أن يردّد الفرس صوته ولا يصهل.

والدحداح بالدال: الرجل القصير. والرحراح بالراء: الإناء القصير الواسع.

والجفجفة بالجيم: هزيز الموكب وحفيفه في السير. والحفحفة بالحاء: حفيف جناحي الطير.

ورجل دحدح بفتح الدالين وإهمال الحاءين: قصير، ورجل دُخدُخ بضم الدالين وإعجام الخاءين: قصير ضخم.

والجرجرة بالجيم: صوت جرع الماء في جوف الشّارب والخرخرة بالخاء: صوت تردّد النفس في الصدر، وصوت جري الماء في مضيق. والدردرة: حكاية صوت الماء في بطون الأودية وغيرها إذا تدافع فسمعت له صوتاً. والغرغرة: صوت ترديد الماء في الحلق من غير مجٍّ ولا إساغة.

والقرقرة: صوت الشراب في الحلق. والهرهرة: صوت ترديد الأسد زئيره.

والكهكهة: صوت ترديد البعير هديره. والقهقهة: حكاية استغراب(٥٩) الضحك.

---

(٥٩) استغرب في الضحك: اشتدّ وأكثر.

والوعوعة: صوت نُباح الكلب إذا ردَّده. والوقوقة: اختلاط أصوات الطير. والوكوكة: هدير الحمام.

والزعزعة بالزاي: اضطراب الأشياء بالريح. والرعرعة بالراء: اضطراب الماء الصافي والشراب على وجه الأرض. والزغزغة بالزاي وإعجام الغين: اضطراب الإنسان في خفّة ونزق. والكركرة بالكاف: الضحك. والقرقرة بالقاف: حكاية الضحك إذا استغرب الرجل فيه.

والرفرفة بالراء. صوت أجنحة الطائر إذا حام ولم يبرح. والزفزفة بالزاي: صوت حفيف الريح الشّديد الهبوب، وسمعت زفزفة الموكب إذا سمعت هزيزه[٦٠].

والسفسفة بإهمال السين: تحريك الشيء من موضعه ليقلع، مثل الوتد وما أشبهه، ومثل السن. والشفشفة بالإعجام: تحريك الشيء في موضعه ليتمكّن، يقال: شفشغ السّنان في الطعنة إذا حرّكه ليتمكّن.

والوسوسة بالسين: حركة الشيء كالحلي. والوشوشة بالإعجام: حركة القوم وهمس بعضهم إلى بعض.

فانظر إلى مناسبة الألفاظ لمعانيها، وكيف فاوتت العرب في هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني، فجعلت الحرف الأضعف فيها والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقلّ وأخف عملاً أو صوتاً، وجعلت الحرف الأقوى والأشدّ والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملاً وأسهل حسّاً، ومن ذلك المدّ والمطّ، فإن فعل المطّ أقوى لأنه مدّ وزيادة جذب، فناسب الطاء التي هي أعلى من الدال.

قال ابن دريد[٦١]: والمدّ والمتّ والمطّ متقاربة في المعنى. ومن ذلك

---

(٦٠) هزيزه: صوته.

(٦١) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد المولود في البصرة (٨٣٨ – ٩٣٣ م). أحد أئمة اللغة =

الجُف بالجيم: وعاء الطلعة[٦٢] إذا جفّت، والخُفّ بالخاء: الملبوس وخف البعير والنعامة، ولا شك أنّ الثلاثة أقوى وأجلد من وعاء الطلعة فخصّت بالخاء التي هي أعلى من الجيم.

وفي ديوان الأدب للفارابي[٦٣]: الشّازب: الضامر من الإبل وغيرها، والشّاصب: أشد ضمراً من الشّازب. وفيه قال الأصمعي: ما كان من الرياح من نفخ فهو برد، وما كان من لفح فهو حرّ.

وفي فقه اللغة للثعالبي: إذا انحسر الشعر عن مُقدّم الرأس فهو أجلح، فإن بلغ الانحسار نصف رأسه فهو أجلى وأجله.

وفيه: النّقش في الحائط، والرقش في القرطاس. والوشم في اليد، والوسم في الجلد، والرّشم على الحنطة والشعير، والوشي في الثوب.

وفيه الخَوَص: ضيق العينين، والخَوَص: غؤورهما مع الضيق. وفيه: اللّسب من العقرب، واللسع من الحية.

وفيه: وسخ الأذن: أف، ووسخ الأظفار: تُفّ.

وفيه: اللّثام: النقاب على حرف الشفة، واللّغام: على طرف الأنف.

وفيه: الضرب بالرّاحة على مُقدّم الرأس: صقع، وعلى القفا: صفْع، وعلى الخد ببسط الكف: لطْم، وبقبض الكف: لكْمٌ، وبكلتا اليدين: لدْم، وعلى الجنب بالإصبع: وخْز، وعلى الصدر والجنب: وكْز ولكْز، وعلى الحنك والذقن: وهْز ولَهْز.

= والأدب. اشتهر بسعة الحفظ وقوة الذاكرة. تتلمذ عليه السيرافي والزجّاج وابن خالويه. له «الاشتقاق»، و«المقصور والممدود»، و«تقويم اللسان»، ومعجم «الجمهرة» (الزركلي: الأعلام. ج ٦ ص ٨٠).

(٦٢) الطّلْعة واحدة الطّلْع وهو نوْر النخل ما دام في الكافور (كافور الطلعة وعاؤها).

(٦٣) إسحق بن إبراهيم بن الحسين (- ، ٩٦١ م) من أهل فاراب، انتقل إلى اليمن وأقام في زبيد، له معجم سمّاه «ديوان الأدب» (الزركلي: الأعلام. ج ١ ص ٢٩٣).

وفيه يقال: خذفه بالحصى، وحذفه بالعصا، وقذفه بالحجر.

وفيه إذا أخرج المكروبُ أو المريضُ صوتاً رقيقاً فهو الرنين، فإن أخفاه فهو المنين، فإن أظهره فخرج خافياً فهو الحنين. فإن زاد فيه فهو الأنين، فإن زاد في رفعه فهو الخَنين.

فانظر إلى هذه الفروق وأشباهها باختلاف الحرف بحسب القوة والضعف، وذلك في اللغة كثير جداً، وفيما أوردناه كفاية.

النص الثامن من «المزهر»: معرفة الاشتقاق[٦٤]

قال ابن فارس في فقه اللغة[٦٥]: باب القول على لغة العرب، هل لها قياس؟ وهل يُشتق بعض الكلام من بعض؟

أجمع أهل اللغة – إلاّ من شذَّ منهم – أن للغة العرب قياساً، وأن العرب تشتق بعض الكلام من بعض، واسم الجن مشتق من الاجتنان، وأن الجيم والنون تدلاّن أبداً على الستر، تقول العرب للدرع: جُنَّة، وأجنّه الليل، وهذا جنين، أي هو في بطن أمّه. وأنّ الإنس من الظهور، يقولون: آنست الشيء: أبصرته. وعلى هذا سائر كلام العرب. عَلِم ذلك من علِم، وجهله من جهِل.

قال: وهذا مبني أيضاً على ما تقدّم من أن اللغة توقيف، فإنّ الذي وقفنا على أن الاجتنان: الستر، هو الذي وقفنا على أن الجن مشتق منه. وليس لنا اليوم أن نخترع، ولا أن نقول غير ما قالوه، ولا أن نقيس قياساً لم يقيسوه[٦٦]، لأن في ذلك فساد اللغة وبطلان حقائقها. قال: ونكتة الباب

---

(٦٤) السيوطي: المزهر ج١ ص ٣٤٥.

(٦٥) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة. ص ٦٧.

(٦٦) هذا الرأي لابن فارس، غير مصيب لأنه يجمّد اللغة ويحنّطها، واللغويون المحدثون اليوم يأخذون برأي الكوفة القائل: ما قيس على كلام العرب، هو من كلام العرب.

أن اللغة لا تؤخذ قياساً نقيسه الآن نحن. انتهى كلام ابن فارس.

وقال ابن دِحية[٦٧] في التنوير: الاشتقاق من أغرب كلام العرب، وهو ثابت عن الله تعالى بنقل العدول عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلّم، لأنه أوتي جوامع الكلم، وهي جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، فمن ذلك قوله فيا صح عنه: «يقول الله: أنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي». وغير ذلك من الأحاديث. وقال في شرح التسهيل: الاشتقاق أخذ صيغة من أخرى، مع اتفاقهما معنى، ومادة أصلية، وهيئة تركيب لها، ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة، لأجلها اختلفا حروفاً أو هيئة، كضارب من ضرب، وحذِر من حَذِرَ.

وطريق معرفته تقليب تصاريف الكلمة، حتى يُرجع منها إلى صيغة هي أصل الصيغ دلالة اطراد أو حروفاً غالباً، كضرْب فإنه دال على مطلق الضرْب فقط، أما ضارب، ومضروب، ويضرب، واضرب، فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفاً، وضرب الماضي مساوٍ حروفاً وأكثر دلالة، وكلها مشتركة في (ض ر ب)، وفي هيئة تركيبها. وهذا هو الاشتقاق الأصغر المحتج به.

وأما الأكبر فيحفظ فيه المادة دون الهيئة، فيجعل (ق و ل) و (و ل ق) و (و ق ل) و (ل ق و) وتقاليبها الستة، بمعنى الخفّة والسرعة. وهذا مما ابتدعه الإمام أبو الفتح ابن جني، وكان شيخه أبو علي الفارسي يأنس به يسيراً. وليس معتمداً في اللغة، ولا يصحّ أن يُستنبط به اشتقاق في لغة العرب، وإنّما جعله أبو الفتح بياناً لقوة ساعده وردّه المختلفات إلى قدر مشترك، مع اعترافه وعلمه بأنه ليس هو موضوع تلك الصيغ، وأن تراكيبها

---

(٦٧) عمر بن الحسن بن علي (١١٥٠ - ١٢٣٦ م) أديب مؤرّخ، حافظ للحديث، من أهل سبتة بالأندلس. ولي قضاء دانية. من كتبه «المطرب من أشعار المغرب»، و «الآيات البيّنات»، و «النبراس في تاريخ خلفاء بني العبّاس» (الزركلي: الأعلام. ج ٥ ص ٤٤).

تفيد أجناساً من المعاني مغايرة للقدر المشترك. وسبب إهمال العرب وعدم التفات المتقدِّمين إلى معانيه أن الحروف قليلة، وأنواع المعاني المتفاهمة لا تكاد تتناهى، فخصّوا كل تركيب بنوع منها، ليفيدوا بالتراكيب والهيئات أنواعاً كثيرة، ولو اقتصروا على تغاير المواد حتى لا يدلوا على معنى الإكرام والتعظيم إلاّ بما ليس فيه من حروف الإيلام والضرب، لمنافاتها لها، لضاق الأمر جداً، ولاحتاجوا إلى ألوف حروف لا يجدونها، بل فَرّقوا بين معتِق ومعتَق بحركة واحدة حصل بها تمييز بين ضدّين.

هذا، وما فعلوه أخصر وأنسب وأخف، ولسنا نقول، إنّ اللغة أيضاً اصطلاحية، بل المراد بيان أنها وقعت بالحكمة كيف فرضت. ففي اعتبار المادة دون هيئة التركيب من فساد اللغة ما بيّنت لك. ولا ينكر مع ذلك أن يكون بين التراكيب المتّحدة المادة معنى مشترك بينها هو جنس لأنواع موضوعاتها، ولكن التحيّل على ذلك في جميع مواد التركيبات كطلب لعنقاء مُغرب[٦٨]، ولم تحمل الأوضاع البشرية إلا على فهوم قريبة غير غامضة على البديهة، فلذلك إن الاشتقاقات البعيدة جداً لا يقبلها المحقّقون.

واختلفوا في الاشتقاق الأصغر، فقال سيبويه، والخليل، وأبو عمرو، وأبو الخطاب[٦٩]، وعيسى بن عمر[٧٠]، والأصمعي، وأبو زيد[٧١]، وابن

---

(٦٨) العنقاء: طائر خرافي، وهي الداهية أيضا. ويقال: طالب عنقاء لمن يطلب شيئاً لا وجود له، كما يقال: طارت به العنقاء، أو: حلقت به عنقاء مُغرب. (انظر ابن منظور: لسان العرب. مادة: عنق).

(٦٩) عبد الحميد بن عبد المجيد (- ، ٧٩٣ م) أو الأخفش الأكبر. من كبار العلماء بالعربية. وهو أول من فسَّر الشعر تحت كل بيت، بعد أن كان الناس يفسّرون القصيدة بعد الفراغ منها. (الزركلي: الأعلام. ج ٣ ص ٢٨٨).

(٧٠) عيسى بن عمر (- ، ٧٦٦ م) من أئمة اللغة، وشيخ الخليل وسيبويه وابن العلاء، وأول من هذَّب النحو ورتَّبه. له نحو سبعين مصنَّفاً احترق أكثرها. منها «الجامع» و «الإكمال» في النحو. (الزركلي: الأعلام. ج ٥ ص ١٠٦).

(٧١) سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري (٧٣٧ - ٨٣٠ م) أحد أئمة الأدب واللغة ولد وتوفي =

الأعرابي، والشيباني، وطائفة: بعض الكلم مشتق، وبعضه غير مشتق. وقالت طائفة من المتأخرين اللغويين: كل الكلم مشتق، ونسب ذلك إلى سيبويه والزجّاج(٧٢). وقالت طائفة من النظّار: الكَلِم كله أصل. والقول الأوسط تخليط لا يعدّ قولاً، لأنه لو كان كل منها فرعاً للآخر لدار أو تسلسل(٧٣)، وكلاهما مُحال، بل يلزم الدور عيناً، لأنه يثبت لكل منها أنه فرع، وبعض ما هو فرع لابدّ أنه أصل، ضرورة أنّ المشتق كله راجع إليه أيضاً. لا يقال: هو أصل وفرع بوجهين لأن الشرط اتحاد المعنى، والمادة، وهيئة التركيب، مع أن كلاً منها حينئذ مفرَّع عن الآخر بذلك المعنى.

ثم التغييرات بين الأصل المشتق منه والفرع المشتق خمسة عشر:

الأول – زيادة حركة، كعلِم وعِلْم.

الثاني – زيادة مادّة، كطالِب وطَلَب.

الثالث – زيادتها، كضارِب وضَرْب.

الرابع – نقصان حركة، كالفرْس من الفرَس.

الخامس – نقصان مادّة، كثبت وثبات.

السادس – نقصانها، كنزا ونزَوان.

السابع – نقصان حركة وزيادة مادّة، كغضْبى وغضَب.

الثامن – نقص مادة وزيادة حركة، كحرُم وحِرْمان.

التاسع – زيادتها مع نقصانها، كاستنوق من الناقة.

= بالبصرة. من تصانيفه «النوادر»، و«الهمز»، و«المطر» و«لغات القرآن». (الزركلي: الأعلام ج ٣ ص ٩٢).

(٧٢) إبراهيم بن السَّري بن سهل (٨٥٥ – ٩٢٣ م) عالم بالنحو واللغة. ولد ومات في بغداد. من كتبه «معاني القرآن»، و«الاشتقاق»، و«الأمالي» و«إعراب القرآن». (الزركلي: الأعلام. ج ١ ص ٤٠).

(٧٣) الدور هو أن يدور الأمر حتى يعود إلى حيث بدأ، وأما التسلسل فهو تسلسل الأمر وتتابعه إلى مالانهاية. والكلمتان من مصطلحات علماء المنطق والكلام.

العاشر - تغاير الحركتين كبطِر بَطَراً.

الحادي عشر - نقصان حركة وزيادة أخرى وحرف، كاضْرِب من الضرْب.

الثاني عشر - نقصان مادة وزيادة أخرى، كراضع من الرضاعة.

الثالث عشر - نقص مادة بزيادة أخرى وحركة، كخاف من الخوف، لأن الفاء ساكنة في «خوف» لعدم التركيب.

الرابع عشر - نقصان حركة وحرف وزيادة حركة فقط، كعِدْ من الوعْد، فيه نقصان الواو وحركتها وزيادة كسرة.

الخامس عشر - نقصان حركة وحرف وزيادة حرف، كفاخَر من الفَخار، نقصت ألف، وزادت ألف وفتحة.

وإذا تردَّدت الكلمة بين أصلين في الاشتقاق طُلِبَ الترجيح، وله وجوه:

أحدها - الأمكنيَّة، كمَهْدَد علماً من الهدّ أو المهد، فيردّ إلى المهد، لأن باب كَرُم أمكن وأوسع وأفصح وأخف من باب كرّ، فيرجح بالأمكنية.

الثاني - كون أحد الأصلين أشرف، لأنه أحق بالوضع له، والنفوس أذكر له وأقبل، كدوران كلمة «الله» - فيمن اشتقَّها - بين الاشتقاق من «أَلِهَ»، أو «لوَه» أو «وَله»، فيقال: من أله أشرف وأقرب.

الثالث - كونه أظهر وأوضح، كالإقبال والقبل.

الرابع - كونه أخصّ فيرجح على الأعمّ، كالفضل والفضيلة، وقيل عكسه.

الخامس - كونه أسهل وأحسن تصرّفاً، كاشتقاق المعارضة من العَرْض بمعنى الظهور، أو من العُرْض وهو الناحية، فمن الظهور أولى.

السادس - كونه أقرب، والآخر أبعد، كالعُقار يردّ إلى عقْر الفهم لا

إلى أنها تُسكر فتعقر صاحبها.

السابع - كونه أليق، كالهداية بمعنى الدلالة لا بمعنى التقدم، من الهوادي بمعنى المتقدّمات.

الثامن - كونه مطلقاً فيرجّح على المقيّد، كالقرْب والمقاربة.

التاسع - كونه جوهراً والآخر عرضاً لا يصلح للمصدرية، ولا شأنه أن يشتق منه، فإن الردّ إلى الجوهر حينئذ أولى، لأنه الأسبق، فإن كان مصدراً تعيَّن الردّ إليه، لأن اشتقاق العرب من الجواهر قليل جداً، والأكثر من المصادر. وفي الاشتقاق من الجواهر قولهم: استحجر الطين، واستنوق الجمل...

الفصل الرابع

المنهج الاستقرائي الوصفي في دراسة اللغة

«إن النحو علم يصف طرق الاستعمال اللغوي في مرحلة خاصّة من مراحل تاريخ اللغة المدروسة».

لورنزان (المدرسة الوصفية)

١ - نشأته

لعل أهمّ مناهج البحث في اللغة، المنهج المعياري التقليدي، والمنهج الوصفي الاستقرائي. وإذا كان المنهج الأوّل قد ساد الدراسات اللغوية القديمة، وبخاصّة في اللغة العربية، منذ نشأته في اليونان، على أيام أرسطو[1]، حتى أواخر القرن الماضي، فإنّ الثاني يعتبر المنهج الأكثر أهمّية وموضوعية، والأكثر جذباً للانتباه والدراسة في العصر الحديث. أما تسميته بالمنهج الوصفي التقريري الاستقرائي، فقد جاءت ردّة فعل على المنهج التاريخي التحليلي المعياري القديم، الذي كان مسيطراً على الدراسات اللغوية العربية والأوروبّية.

---

(١) أرسطو Aristote (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) مربي الإسكندر. فيلسوف يوناني من كبار مفكّري البشرية. تأثرت بوادر التفكير العربي بتآليفه. من مؤلفاته: «المقولات» و «الجدل» و «كتاب ما بعد الطبيعة» و «السياسة»، و «النفس». (فردينان توتل: المنجد في الأعلام. ط٧. دار المشرق. ١٩٧٣. ص ٣٤).

نشأ المنهج الوصفي عند الغربيين[٢] في أوائل هذا القرن، وأخذ ينمو ويتطوّر تطوّراً سريعاً في السنوات الأخيرة، فكثرت البحوث فيه، وتشعَّبت الدراسات التطبيقية بشأنه. وعندما اطّلع الدارسون عندنا على هذا المنهج، بدأوا يكتبون فيه محاولين تطبيقه على دراسة اللغة العربية[٣]. كلّ ذلك أدّى إلى إعادة النظر في المعطيات اللغوية، وبخاصّة المفاهيم الأساسية العائدة للدراسة اللغوية (مفهوم الكلمة والجملة والصرف والتركيب.. الخ).

٢ - روّاده

لعلّ أهمّ روّاد هذا المنهج، فرديناي دي سوسّير Ferdinand de Saussure، وإدوار سابّير Edward Sapir وليونرد بلومفيلد Leonard Bloomfield ونيقولاي تروبتسكوي Nikolai.S. Troubetskoy[٤] ورومان جاكبسون Roman Jakobson[٥] وأندريه مارتينيه André Martinet

---

(٢) إن كلا المنهجين: الوصفي التقريري والمعياري التأريخي التعليلي، غربي النشأة.

(٣) انظر مثلاً:

- علي عبد الواحد وافي: علم اللغة.

- كمال بشر: دراسات في علم اللغة. دار المعارف. القاهرة. ١٩٧١ وعلم اللغة العام. دار المعارف. القاهرة. ١٩٧١.

- إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. ١٩٧١. ودلالة الألفاظ. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. ١٩٧٦.

- ريمون طحان: الألسنية العربية. دار الكتاب اللبناني. بيروت. ١٩٧٢.

- عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٩.

- عبد الصبور شاهين: المنهج الصوتي للبنية العربية. مؤسسة الرسالة. بيروت ١٩٨٠.

(٤) لغوي روسي (١٨٩٠ - ١٩٣٨ م). أوكل إليه منصب تعليمي في جامعة موسكو في السنة ١٩٠٥. انتقل إلى فيينا في السنة ١٩٢٢، حيث درّس في جامعتها فقه اللغات السلافية والأدب الروسي. يُعتبر مؤسّس علم الفونولوجيا. أصدر في السنة ١٩٣٩ كتابه «مبادىء الفونولوجيا». (ميشال زكريا: الألسنية، مبادئها وأعلامها. ص ٢٣٥ - ٢٣٦).

(٥) لغوي روسي (١٨٩٦ -) تخصّص في جامعة موسكو في القواعد المقارنة وفي فقه اللغة السلافية. أسّس في السنة ١٩١٥ مع بعض الطلاب «نادي موسكو الألسني» وساهم في وضع بعض =

ونوام تشومسكي Noam Chomsky [6]. وسنتكلّم بإيجاز على الروّاد الثلاثة الأوائل.

أ- فردينان دي سوسّير

يعتبر دي سوسّير Ferdinand de Saussure (١٨٥٧ - ١٩١٣) مؤسّس علم اللغة الحديث. وُلد في سويسرا، وتخصّص في اللغة السنسكريتية (الهندية القديمة)، ونال درجة الدكتوراه فيها. درّس في معهد الدروس العليا في باريس مدّة عشر سنوات، مادّة النحو المقارن، مشاركاً في الجمعية اللغوية الفرنسية La Société linguistique française. ثم انتقل إلى جنيف، فحاضر في «النحو المقارن» ثم في «علم اللغة العام». بعد وفاته، في السنة ١٩١٣، قام طلابه، بجمع محاضراته، فنشروها كتاباً سمّوه «محاضرات في علم اللغة العام» Cours de linguistique générale، فكان أوّل عمل مهم بدأ يحدّد الأسس التي صدر عنها علم اللغة الحديث[7].

= النظريات الأدبية الحديثة. درّس في عدة جامعات (نيويورك، كولومبيا، هارفرد)، وهو يدرّس، حالياً، الألسنية العامة والألسنية السلافية، في معهد مسَيُوست التقني (ميشال زكريا: الألسنية، مبادئها وأعلامها. ص ٢٤١ - ٢٤٢).

(٦) لغوي أميركي (١٩٢٨ -)، تخصّص في مجالات الألسنية والرياضيات والفلسفة، إلا أنه اشتهر في الألسنية، يعتبر مؤسّس النظرية التوليدية التحويلية، أكثر النظريات انتشاراً في العالم. يدرّس حالياً في معهد مسَيوست التقني. (ميشال زكريا: الألسنية، مبادئها وأعلامها ص ٢٥٩ - ٢٦٠).

(٧) جاء في أحد معاجم «علم اللغة»، أن صرح هذا العلم، شُيِّد، في السنة ١٩١٦، بظهور كتاب فردينان دي سوسّير «محاضرات في علم اللغة العام»، وأنه، ابتداء، من هذا التاريخ، أصبحت كل دراسة في علم اللغة، يحدّد تاريخها «قبل» أو «بعد» دي سوسّير.

On s'accorde généralement à reconnaitre que le statut de la linguistique comme étude scientifique du langage, est assuré par la publication en 1916 du «cours de linguistique générale» de F. de Saussure. A partir de cette date, toute étude linguistique sera définie comme apparue «avant» ou «après» Saussure. (Jean Dubois et autres: Dictionnaire de linguistique p. 300).

من أهم نظريات دي سوسّير:

١ - **اللغة مادة البحث الألسني**: أكد سوسّير أن الهدف الوحيد للدراسة اللغوية هو دراسة اللغة، كواقع قائم بذاته، ولذاته، وأنه يمكن أن تجري هذه الدراسة من عدة جوانب (الوظيفة، شروط وجودها، نظامها، محتوياتها.. الخ).

٢ - **التفريق بين الدراسة التاريخية والدراسة الوصفية**: رأى دي سوسّير أن الاتجاه التاريخي الذي كان يسود أبحاث لغويي عصره، اتجاه غير علمي، لأنه يخلط بين البعد التاريخي للغة، وبين تنظيمها. وعنده، أن اللغة، في كل لحظة، واقع قائم بذاته، من ناحية، وتطوّر تاريخي من جهة أخرى. وعليه لا بدّ من التمييز بين نمطي للدراسة اللغوية: الدراسة التاريخية diachronique، وتدرس الظواهر اللغوية في تطوّرها عبر الأعصر، والدراسة التعاصرية أو التزامنية synchronique، وتدرس الظواهر اللغوية في زمن معيّن. وعلى الدراسة الثانية «التعاصرية» أُطلقت تسمية الدراسة الوصفية، التي وجدها اللغويون المحدثون المنهج الصالح لدراسة اللغة على أساس علمي.

٣ - **اللغة والكلام**: يميّز دي سوسّير بين اصطلاحين: «اللغة» La langue و «الكلام» La parole. فـ «اللغة» عنده، هي ذلك التنظيم الكامن عند أناس يتكلّمون لغة واحدة، إنها «كنز» وضعته ممارسة الكلام، عند هؤلاء الأفراد، فهي تتّخذ شكل معجم تتوزّع نُسَخُهُ المتعادلة بين الأفراد. أما «الكلام» فهو تحقيق اللّغة عند فرد ما، فهو مرتبط باللغة، لكنه يختلف عنها، في أنه ليس «واقعة اجتماعية»، بل «واقعة فردية»، تصدر عن «وعي» فرد، وتتّصف بالاختيار الحر. أمّا اللغة وإن كانت خارج نفوذ الفرد فإنها تطبعه بطابعها. وبما أن «الكلام» فردي، قائم على عنصر الاختيار، ولا يمكن التنبؤ به، فإننا لا نستطيع دراسته دراسة

علميـة، بعكس «اللغـة» التي هي «واقعة اجتماعية» تتّصف بكونها «عامّة».

٤ – **اللغة نظام من الإشارات المفارقة:** يعرّف دي سوسّير اللغة بأنها نظام من الإشارات المفارقة signes distincts. و «الإشارة» عنده تتكون من اجتماع الدالّ le signifiant، أي الصورة السمعية للكلمة، بالمدلول le signifié، أي الشيء المسمّى، أو مجموعـة الأفكار المقترنـة بالدالّ. وهي، – أي الإشارة – لا تصل «الشيء» بـ «اللفظ»، كما كان يتوهم علماء عصره، بل «الصورة السمعية» (اللفظ)، بـ «التصوّر»، أي التمثيل الثقافي الذي يضفيه الإنسان على «الشيء» أو «الفكرة». ومفهوم «الإشارة» شيء يمكن تحديده وتعيينه، فهي صالحة، بالتالي، لوضع منهج علمي وصفي. وهي تتسّع عنده لتشمل كل ما يمكن تمييزه كالجمل والعبارات والكلمات والمورفيمات Les morphémes[٨].

ب – إدوار سابير

يمثّل إدوار سابير Edward Sapir (١٨٤٨ – ١٩٣٩) جيل روّاد المدرسة الوصفية في الجامعات الأميركية. تلقّى سابير علومه في جامعة كولومبيا بنيويورك، حيث تخصّص باللغة الألمانية. حاز على الدكتوراه في الأنتربولوجيا في السنة ١٩٠٩. اهتمّ بالدراسات الهندو – أوروبية. له كتاب واحد هو «اللغة» language[٩]، ومقالات وأبحاث عدّة منشورة في المجلات والدوريات الأميركية.

---

(٨) المورفيم هو أصغر جزء ذي معنى من الكلمة، ففي كلمة «المعلمان» مثلاً نجد ثلاثة مورفيمات: ١ – أل التعريف. ٢ – معلم. ٣ – علامة المثنّى.

(٩) Sapir, Edward: Language. An introduction to the study of speech, Harcourt, Brace & World; New York. 1921.

فرّق سابير، كدي سوسّير، بين الدراسة التاريخية التقليدية، والدراسة التعاصرية أو الوصفية. ولعلّ أهمّ ما أضافه إلى علم اللغة الحديث، ما أسماه بالشكل اللغوي La forme linguistique، أو «التركيبات الشكلية» للغة، فرأى أن المنهج العلمي يجب أن يركّز على دراسة هذه «التركيبات»، أي دراسة أنماطها في الصوت والكلمة والجملة، لأن التركيب اللغوي هو أهم خصائص اللغة. لكن ذلك، لا يعني درس «الأشكال اللغوية»، مستقلّة عما تؤديه من وظيفة في إيضاح المعنى. وعليه يجب أن تشمل الدراسة اللغوية ركنين أساسين: أولها «التصورّات» الأساسية التي تؤدّيها اللغة في عملية الاتصال بين الناس، وثانيها «الطرائق الشكلية» المرتبطة بهذه التصوّرات، والتي يعبَّر بوساطتها عن المعاني(١٠).

يسوّغ سابير تركيزه في دراسة اللغة، على هذه «الأشكال اللغوية»، أو النماذج الفونولوجية، بملاحظات منها:

١ – استمرار هذه «النماذج» أو «الأشكال» في حال تغيّر محتواها الصوتي.
٢ – إمكانية وجود لغتين أو لهجتين متقاربتين، متعادلتين في هذه الأشكال اللغوية، ومختلفتين في الأصوات اللغوية.
٣ – إمكانية وجود لغتين محتويتين على الأصوات اللغوية نفسها، دون أن تخضعا لنماذج فونولوجية مماثلة.

هذه الملاحظات، أدّت به إلى التأكيد، أكثر من مرّة، أنّ المنهج العلمي يرفض دراسة اللغة في ضوء تصوّرات سابقة، أو على ضوء «أنماط» من لغات أخرى. وعنده، يجب على هذا المنهج أن ينطلق من واقع اللغة

---

(١٠) Sapir: Language p 59 and p 35.

نفسها، لأن لكل لغة أقسامها الخاصة وتراكيبها المتميّزة[11]، فيركّز على دراسة العناصر الأساسية المكوّنة للشكل اللغوي[12].

ج- ليونرد بلومفيلد

تخصّص بلومفيلد Leonard Bloomfield (١٨٧٧ - ١٩٤٩) في اللغة الألمانية بجامعة هارفرد في الولايات المتحدة الأميركية، ونال الدكتوراه في هذا المجال. أصدر في السنة ١٩١٤ كتابه «مدخل إلى اللغة» Introduction to the study of language، ثم راجعه، وعدّل فيه، وأصدره مجدداً في السنة ١٩٣٣. بعنوان: «اللغة» language[13]. وقد لقي هذا الكتاب انتشاراً واسعاً، فاعتبر المرجع الأساسي لدراسة اللغة آنذاك[14]. شارك بلومفيلد في تأسيس الجمعية الألسنية الأميركية Linguistic Society of America، وتأثّر بالمذهب السلوكي الواطسوني behaviorisme، الذي يفسّر السلوك الإنساني على ضوء الثنائية: مثير، استجابة.

بدأ بلومفيلد كتابه بتحديد «دراسة اللغة»، فَنَقَد المنهج التاريخي، لأنه استدلالي معياري، داعياً إلى المنهج الوصفي الاستقرائي[15]. وعنده أن اللغة استجابة كلامية لمثيرات المحيط، فهي صورة من السلوك

---

(١١) المصدر السابق ص ١١٩.

(١٢) يرى سابير أن هذه العناصر ثلاثة: العنصر النحوي الأساسي Radical-grammatical élément، والكلمة: Word، والجملة: Sentence (أنظر المصدر نفسه ص ٣٣ - ٣٥).

(١٣) Leonard Bloomfield, Language, Georges Allen & Unwin 1933.

(١٤) وقد وصفه بعضهم بـ «إنجيل علم اللغة الأميركي» the bible of American linguistics. (عن عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث. دار النهضة العربية. بيروت ١٩٧٩ ص ٣٨).

(١٥) المرجع السابق ص ٢٠.

« الجسماني » . وهو يشرح ذلك برواية قصّة[١٦]، توضح ظروف الكلام التي يُعيدها إلى ثلاثة:

أ- أحداث عملية تسبق عملية التكلّم.

ب- عملية التكلّم.

ج- أحداث عملية تلي عملية التكلّم.

ثم يفرّق بين نظريتين لتفسير الكلام: الأولى عقلية mentalistique تُرجع السلوك الإنساني إلى الروح ، أو العقل ، أو الإرادة ، أي ، إلى عوامل غير فيزيائية ملموسة ، وهذه العوامل لا تخضع للوصف العلمي . والثانية مادية materialistique أو آلية mechanistique ، تعيد التصرّفات الإنسانية إلى مثيرات البيئة ، وهذه النظرية صالحة لدراسة السلوك الإنساني بنظره ، لأنّ الإنسان ، عادة ، يستجيب للحوافز نفسها ، وعلى النمط نفسه ، لذلك نستطيع التنبّؤ بسلوكه ، إذا عرفنا الحالة التي هو فيها . فاللغة ، عنده ، استجابة كلامية لمثيرات المحيط ، فهي ، إذاً ، سلوك يرجع إلى عوامل فيزيائية . وعليه ، فهي تخضع للملاحظة والتنبّؤ والتفسير . ومن هذا المنطلق درس بلومفيلد فونيات اللغة وأنماطها ، وتراكيبها الصوتية ، وأشكالها النحوية وأنواع تغيُّراتها .

وقد عمد ، بلومفيلد ، في دراسة الكلام ، إلى تقسيمه إلى مؤلّفاته ، وذلك

---

(١٦) مفاد قصّته أن فتاة ترى تفاحة على شجرة ، فتعجبها ، فتُخرج صوتاً بحنجرتها ولسانها وشفتيها ، فيتسلق صديقها الشجرة ليأتي بالتفاحة إليها ، ثم تأكلها . . وهو يفسّر هذه القصّة بأن الفتاة كانت جائعة ، وقد أثرت الموجات الضوئية المنعكسة على التفاحة في عينيها (الجوع وانعكاس الأشعّة يمثلان المثير أو المنبّه) ، وكان من الطبيعي أن تستجيب الفتاة لهذا المثير فتصعد الشجرة ، لكن صديقها صعد عنها (استجابة بديلة) ، بعد أن « أثير » بحديث الفتاة عن التفاحة (رغبة الفتاة في التفاحة مثير بالنسبة لصديقها ، وتسلقه الشجرة هو بمثابة « استجابة » للمثير) .

بتقسيم الجملة إلى كلماتها (مؤلِّفاتها المباشرة) ثم تقسيم كل كلمة إلى المورفيات (المؤلِّفات النهائية)(١٧).

٣ - منهجيّته

كان روّاد علم اللغة الحديث، أو الدراسة الوصفية، ينطلقون، في دراساتهم، من الملاحظات إلى الفرضيات، على النحو التالي:

١ - ملاحظة الأحداث والمعطيات اللغوية.

٢ - صياغة بعض التعليلات للأحداث المتشابهة.

٣ - صياغة افتراضات تفسِّر هذه الأحداث على ضوء التعليلات السابقة.

٤ - التأكّد من ملاءمة هذه الافتراضات للواقع اللغوي.

٥ - بناء نظرية قائمة على هذه الافتراضات.

٦ - اعتماد النظرية السابقة لوصف قضايا اللغة وتفسيرها(١٨).

أما الخصائص التي اتسم بها المنهج الوصفي، فأهمّها ما يلي(١٩):

١ - اعتماد معايير واحدة في تحليل التنظيم اللغوي.

٢ - اعتماد القواعد الأكثر وضوحاً وتبسيطاً في تبيان عناصر اللغة ووصفها وتفسيرها.

٣ - شمول المستويات اللغوية (الصوتية، والصرفية، والتركيبية، والدلالية) كافّة، واستنفاد القضايا اللغوية بالبحث.

---

(١٧) إذا أخذنا جملة « شاهدتُ ملكة الجمال » مثلاً، نجد أنها مؤلَّفة من مؤلِّفين مباشرين: ١ شاهدتُ ٢ - ملكة الجمال، وأن المؤلِّف الثاني « ملكة الجمال » ينقسم بدوره إلى مؤلفين مباشرين: ١ - ملكة. ٢ - الجمال. وينقسم المؤلِّف الأول « شاهدت » إلى مؤلِّفين نهائيين: ١ - شاهد. ٢ - تُ. كما ينقسم المؤلِّف « الجمال » إلى اثنين غير مباشرين: ١ - أل. ٢ - جمال.

(١٨) ميشال زكريا: الألسنية (علم اللغة الحديث) مبادئها وأعلامها. ص ١٤١.

(١٩) المرجع نفسه ص ١٤٢ - ١٤٣.

٤ - اعتماد الموضوعية للتحقّق من الافتراضات اللغوية. لذلك لا يتبنّى المنهج الوصفي هذه الافتراضات، إلا بعد إخضاعها للتجربة والتدقيق.

٥ - تناول اللغة على أنها موضوع من موضوعات الوصف، كالتشريح، لا مجموعة من القواعد كالقانون. فالباحث في تشريح الجسم الإنساني لا يقول: يجب أن يكون العظم الفلاني بهذا الموضع، أو يجب أن يكون العضو الفلاني بهذا الحجم أو الوزن أو الصورة، إنّما يشرح شرحاً وصفياً موضوعياً ما يقع تحت نظره، وهكذا على الباحث في اللغة أن يذكر خصائصها دون أن يدّعي أنّ هذا القول جائز، وذاك لا يجوز، لأنّ همّه وصف الحقائق لا فرض القواعد[٢٠].

٦ - اختيار مرحلة بعينها لوصفها وصفاً استقرائياً، واتخاذ النواحي المشتركة بين المفردات الداخلة في هذا الاستقراء، وتسميتها قواعد. فالقاعدة، في الدراسة الوصفية، ليست معياراً، وإنّما هي جهة اشتراك بين حالات الاستعمال الفعلية[٢١].

٤ - المنهج الوصفي والنحو العربي

إذا أمعنّا النظر في تاريخ دراسة اللغة العربية، على ضوء الدراسة الوصفية التي أوضحنا نشأتها ومنهجها وخصائصها آنفاً، وجدنا أن بداءة الدراسة عند نحاتنا القدماء، كانت محاولة جدّية لإنشاء منهج وصفي لدراسة اللغة، يقوم على جمعها وروايتها، ثم ملاحظة المادة المجموعة،

---

(٢٠) تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. ١٩٥٨. ص ١٦ وما بعدها.

(٢١) المرجع نفسه ص ٢٦.

واستقرائها للخروج، بعد ذلك بنتائج لها طبيعة الوصف اللغوي السليم[٢٢].
ويتمثَّل المنهج الوصفي لدى الدارسين العرب الأوائل فيما يلي [٢٣]:

١ - إنّ طبيعة الدراسة تقتضي في البدء، المنهج الوصفي وذلك بجمع اللغة ثم استقراء القواعد منها.

٢ - إنّهم حدّدوا البيئة التي يصحّ أخذ اللغة عنها، فحصروها في مناطق البادية، معتبرين أن لغة الحواضر وأطراف الجزيرة لا تمثِّل اللغة العربية تمثيلاً صحيحاً لتعرّضها لمؤثِّرات أجنبية[٢٤].

٣ - إنّهم درسوا اللغة باعتبارها لغة «منطوقة»، لا لغة «مكتوبة»[٢٥].

٤ - إن الصّفة الغالبة على تصنيفهم كانت تقريرية، في الغالب، وهذا ما نشاهده إجمالاً في أعمالهم المبكِّرة، وبخاصَّة في كتاب سيبويه، وكلمة الكسّائي[٢٦] في ذلك مشهورة، حين سئل في مجلس يونس، عن قولهم: «لأضربنَّ أيُّهم يقوم»، لِمَ يقال: لأضربنَّ أيَّهم. فقال: «أيّ هكذا خلقت»[٢٧]. و «هكذا خلقت» هي جوهر المنهج الوصفي.

٥ - إن دراستهم للغة شملت مستويات اللغة كافّة: الصوتية، والصّرفية، والنحوية والدّلالية، وهذا ما يدعو إليه المنهج الحديث.

---

(٢٢) المرجع السابق ص ٢٠.

(٢٣) أنظر عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية ص ١٧٩ وما بعدها.

(٢٤) أنظر «باب في ترك الأخذ عن أهل المدر، كما أخذ عن أهل الوبر» في كتاب ابن جني: الخصائص. ج ٢ ص ٥.

(٢٥) وكان اللغويون يذهبون إلى البادية ليأخذوا اللغة شفاهاً عن أصحابها. (أنظر مثلاً ابن جني: الخصائص. ج ١ ص ٢٤١ - ٢٤٣).

(٢٦) علي بن حمزة (؟ - ٨٠٥ م)، إمام في اللغة والنحو والقراءة. من أهل الكوفة. له تصانيف منها: «معاني القرآن»، و«المصادر»، و«النوادر» و«المتشابه في القرآن». (الزركلي: الأعلام ج ٤ ص ٢٨٣).

(٢٧) السيوطي: المزهر. ج ٢ ص ٣٧٣.

هذه حقيقة أوّلية أسجّلها، وهي أنّ المنهج اللغوي عند العرب ابتدأ وصفياً على العموم. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هنا هو: هل بقي منهجهم كذلك؟

إنّ نظرة عجلى، في كتب النحويين، وبخاصّة المتأخّرة منها[٢٨]، تُظهر بوضوح، أنّ المنهج اللغوي، الذي انتهجه النحاة العرب، ما لبث أن تحوّل إلى منهج معياري صارخ، وتظهر هذه المعيارية الصارخة، في النواحي التالية:

١ - إنّ النحاة، بعد أن استقرأوا اللغة استقراءً ناقصاً، واستنبطوا بعض القواعد النحوية، عمدوا إلى فرض هذه القواعد على اللغة، بدل أن يخضعوها هي نفسها إلى اللغة. فأخضعوا الصواب والخطأ، في الاستعمال، لمجموعة من القواعد فرضوها على اللغة.

وكانوا كلّما دهمتهم الأمثلة التي تعارضهم، لجأوا إلى تأويلها أو وصفها بأنها شاذة[٢٩] أو نادرة[٣٠] أو أن صاحبها قد أخطأ. وهكذا كانوا يذكرون

---

(٢٨) ككتب ابن هشام (المغني، وشرح شذور الذهب وأوضح المسالك)، وكتاب ابن الأنباري «الإنصاف في مسائل الخلاف»، وكتاب الحريري «درّة الغواص» وغيرها.

(٢٩) مما عدّوه شاذاً ما ذكروه من «فُعَّل» فهو «فاعل» نحو: «طُهَّر» طاهر - شُعَّر، شاعر - حُمَّض، حامض». ولهذا نظائر كثيرة. وبالرغم من كثرة النظائر قال النحاة بشذوذ هذه الصيغ مع شيوع استعمالها في كل عصور اللغة إلى يومنا هذا.

(٣٠) منع النحاة مثلاً جمع «مفعول» على «مفاعيل» و «فَعْل» الصحيح العين على «أفعال» جمعاً قياسياً، وحجّتهم في ذلك أنّ ما ورد منها قليل نادر، لكن الأب أنستاس الكرملي العضو السابق بالمجمع اللغوي القاهري، عثر على عشرات من جمع «مفعول» على «مفاعيل»، كما أظهر أنّ ما سُمع عن الفصحاء من جموع «فَعْل» الصحيح العين، على «أفعال»، أكثر مما سُمع من جموعه المطّردة، على «أفْعُل» أو «فِعال» أو «فُعول»، ومنها: «بحث، أبحاث - سَجْع، أسجاع - شكل، أشكال - فَرْخ، أفراخ - حَمْل، أحمال - زَنْد، أزناد - شخص، أشخاص - لفظ، ألفاظ - رأي، آراء - لحظ، ألحاظ». (أنظر عباس حسن: اللغة =

القاعدة ثم يُتبعونها بأمثلة خارجة عليها متناولين إياها بالتأويل النافر والتمحّل البعيد، كي تستقيم مع قواعدهم[٣١]، فإن أعياهم التأويل والتمحّل، حكموا بالقلّة أو الشذوذ أو الخطأ. والغريب العجيب أن القرآن الكريم نفسه لم يسلم من تمحّلات النحويين وتأويلاتهم وتخريجاتهم، مع إجماعهم على أنه أفصح كلام عربي على الإطلاق وأنه في ذروة البلاغة[٣٢].

وغني عن البيان، أنّ المنهج الوصفي، لا يتبنّى الافتراضات أو القواعد، إلا بعد إخضاعها للتجربة والتدقيق، وأن همّ الباحث فيه، أن يشرح ما يقع تحت نظره شرحاً وصفياً موضوعياً، دون أن يدّعي أن هذا القول جائز، وذاك لا يجوز، لأن همّه وصف اللغة لا فرض القواعد. وعندنا أن القول بالجائز والخطأ والصواب، أمر ضروري في التعليم، فلولاه تفسد اللغة، ولكن يجب أولاً استقراء اللغة استقراءً كاملاً، ثم إخضاع القواعد للغة، لا العكس وذلك بغية التثبّت من سلامتها.

٢ - إن النحاة العرب، وإن كانوا قد شملوا بدراساتهم مستويات اللغة

= والنحو بين القديم والحديث. ط ٢. دار المعارف بمصر. ١٩٧١ ص ٦٩. وعباس ابو السعود: الفيصل في ألوان الجموع. دار المعارف بمصر. القاهرة. ١٩٧١. ص ٣٨).

(٣١) وبخاصّة عندما قرر النحاة أن المبتدأ لا يكون نكرة، وأن الحال لا تكون معرفة، وأن التمييز لا يتقدم على عامله وأن المستثنى بإلا في كلام تام يجب نصبه، وأن بعد إذا الفجائية يجب أن يأتي الاسم مباشرة.

(٣٢) يقول ابن حزم الأندلسي: «ولا عجب أعجب ممّن إن وجد لامرىء القيس، أو لزهير، أو لجرير، أو الحطيئة، أو الطرّماح، أو لأعرابي أسدي، أو سلمي، أو تميمي، أو من سائر أبناء العرب... لفظاً في شعر أو نثر جعله في اللغة وقطع به ولم يعترض عليه. ثم إذا وجد لله تعالى، خالق اللغات وأهلها، كلاماً لم يلتفت إليه، ولا جعله حجّة وجعل يصرفه عن وجهه ويحرّفه عن موضعه، ويتحيّل في إحالته عما أوقعه الله عليه».

ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل. ط ١. المطبعة الأدبية. القاهرة. ١٣١٧ - ١٣٢١ هـ. ج ٣ ص ١٩٢

كافة (الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية)، قد خلطوا هذه المستويات خلطاً شديداً، كما نرى في المؤلّفات النحوية الباكرة والمتأخّرة على حد سواء[٣٣]. ومن المعروف أنّ المنهج الوصفي يدرس هذه المستويات كلاً على حدة.

٣ - إنّ النحو العربي، بخلاف المنهج الوصفي، اعتمد معايير مختلفة في تحليل التنظيم اللغوي، ففي تقسيم الكلمات العربية مثلاً، نجد أنّ بعضهم اعتبر المبنى أو الشكل أساساً للتقسيم[٣٤]، بينما قسّمها آخرون على أساس المعنى أو الوظيفة[٣٥]. كذلك في تقسيمهم للفعل، أعطوا لقب «الماضي» للفعل الذي يدلّ على حدث وقع في زمن مضى، ولقب «المضارع» للفعل الذي يضارع في حركاته وسكناته الاسم. أي أنّ الاعتبار الذي وضع به لقب «الماضي» اعتبار زمني، وهو في المضارع اعتبار شكلي[٣٦].

٤ - شمل النحاة العرب بدراساتهم مراحل متعاقبة من تاريخ اللغة،

---

(٣٣) لكننا لا نعدم بعض المحاولات في فصل هذه المستويات، فقد ظهرت كتب مفردة في دراسة الأصوات اللغوية مثل كتاب «سر صناعة الإعراب» لابن جني (تحقيق مصطفى السقّا وآخرين. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. القاهرة ١٩٥٤) كما ظهرت كتب مفردة للدرس الصرفي، مثل تصريف أبي عثمان المازني وشرح ابن جني له في المنصف (تحقيق إبراهيم مصطفى وآخرين. مطبعة مصطفى البابي الحلبي. ١٩٥٤).

(٣٤) ومنهم ابن مالك الذي يقول:

بالجرّ والتنوين والنّدا وألْ ... ومُسْنَدٍ للاسم تمييزٌ حَصَلْ
بتا فَعَلْتَ وأتَتْ ويا افْعَلي ... ونونِ أقْبِلَنَّ فِعْلٌ يَنْجَلي
سواهما الحرفُ كهَلْ وفي ولم ... فعلٌ مضارعٌ يلي لم كيَشَمْ

ابن مالك: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ط ١٤. مطبعة السعادة، نشر المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة. ١٩٦٤، ج١ ص ١٦ و ٢٢ و ٢٣.

(٣٥) ومن هؤلاء ابن هشام الذي يعرّف الاسم بأنه ما دلّ على معنى في نفسه، والفعل بأنه ما دلّ على معنى في نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة، والحرف ما دلّ على معنى في غيره. (ابن هشام: شرح شذور الذهب. دار الكتب العربية - دار الكتاب بيروت. لا.ت. ص ١٨).

(٣٦) عبد الصبور شاهين: المنهج الصوتي للبنية العربية ص ٦١.

تمتد طوال ثلاثة قرون[٣٧]، وفي مدّة كهذه لا يمكن أن تثبت اللغة من نواحي البنيـة والنطـق[٣٨]. وقد رأينا أنّ المنهج الوصفي يميِّز بين الدراستين: التعاصرية أو التزامنية synchronique، والتعاقبية أو التاريخية diachronique.

٥ – عمد النحاة العرب إلى لهجات متعدِّدة[٣٩]، فخلطوا بينها محاولين إيجاد نحو عام لها جميعاً[٤٠]. والمنهج الوصفي يدرس كل لهجة على حدة. ثم يقعِّدها من ناحية الصوت والصرف والنحو والدلالة.

٦ – إن المفكِّرين العرب افتتنوا بالمنطق الأرسطي[٤١]، إذ اعتبروه

---

(٣٧) أي من حوالى مئة وخمسين عاماً قبل الإسلام، إلى انتهاء ما يسمّونه بعصر الاحتجاج.

(٣٨) تمام حسان: اللغة بين المعيارية والوصفية. ص ٢٥.

(٣٩) هي لهجات قبائل قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. (أنظر السيوطي: المزهر ج ١ ص ٢١١).

(٤٠) ولعلّ الذي دفعهم إلى ذلك محاولتهم فهم القرآن الكريم. (أنظر عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث ص ٥١ – ٥٢).

(٤١) اعتبر اليونانيون لغتهم منطقية مطّردة، فطبّقوا مقاييس اللغة في تقعيدها. ثم حذا حذوهم اللغويون الأوروبيون القدماء في دراسة لغاتهم. فالمعلّمة الأميركية أو الإنكليزية، عندما تعلّم الأولاد تحليل الجملة وإعرابها – حسب الأسلوب القديم [تغيَّر هذا الأسلوب اليوم] – تستعمل المنطق الإغريقي أو المصطلح الإغريقي، وتلميذها لا يفقه شيئاً من ذلك. مثاله إعراب جملة the boy ate an apple (أكل الولد التفاحة). تقول لهم boy المبتدأ (subject) وهو في حالة الرفع (Nominative case) و apple المعمول به لفعل ate وهو في حالة النصب (Objective or accusative Case)، ولكن هذا الولد الذي لغته غير معربة، لا يفقه معنى لكلمة «مرفوع» و «منصوب»، لأنه لا يرى علامات لهذه الحالات الإعرابية. إن لفظة boy لا تتغيّر سواء أتت مبتدأ، مفعولاً به، أم بعد حرف جر، إنها تلزم حالة واحدة: boy، فما معنى قول المعلّمة إنها في حالة الرفع؟ المعلّمة لا تزال تعلم الإنكليزية كما كان الإغريق يعلّمون أطفالهم اللغة الإغريقية وبالمصطلح ذاتها [والصحيح نفسها]. أما الألماني الذي يعرف الإعراب، فقد لا يستغرب ذلك، لأنّ أداة التعريف للمذكر المفرد في لغته (مثلاً) تكون: der في حالة الرفع، و den في حالة النصب، و des في حالة الإضافة و dem في حالة من أحوال الجر. ولذا تجد في الغرب نقمة عند الاختصاصيين، في تعليم اللغات، حسب المنطق الإغريقي، وحسب المصطلح =

سِمة الثقافة، وراحوا يطبِّقونه على علومهم، وبخاصّة على علم النحو(٤٢)، حتى أصبح كلامهم في النحو أقرب إلى الفلسفة منه إلى النحو نفسه(٤٣). وكي نُظهر أثر الفلسفة في النحو، سنتناول بالبحث ثلاث نقاط: العلّة، والعامل ومسألة الجوهر.

أ - العلّة: إن همّ المنهج الوصفي الوحيد هو تقرير الحقائق اللغوية، حسبما تدل عليها الملاحظة، دون محاولة تفسيرها بتصوّرات غير لغوية. أما المنهج المعياري، أو النحو التقليدي، فيهتم أساساً بمعرفة العلّة. فأمام جملة: «جاءَ الرجلُ» مثلاً، يتّفق المنهجان في أن «جاء» فعل ماضٍ مبني على الفتح، وأن «الرجل» فاعل «جاء» مرفوع بالضمة، لكنهما يختلفان في الإجابة عن السؤالين: لماذا بُني الفعل؟ ولماذا رفع الفاعل؟ فبينما تقول المدرسة الوصفية، لا تعليل لبناء الفعل ولرفع الفاعل سوى نطق العرب، تذهب المدرسة المعيارية إلى تعليل البناء في الفعل والرفع في الفاعل، فتقول: إنّ الأسماء أقوى الكلمات وأرفعها قوّة ومرتبة، لذلك أُعربت، أما الأفعال فأحداث تصدر عن الذوات، فهي تأتي في مرتبة ثانية من القوة والرفعة، لذلك بنيت. وعن علّة رفع الفاعل تقول: إنّ الفاعل رُفع كي يخالف المفعول به، أي للتفرقة بينه وبين المفعول به، هذا منصوب، لذلك يجب أن يكون الفاعل مرفوعاً. وإذا سأل سائل: لماذا لم يكن العكس،

= الإغريقي، أولاً لأن لكل لغة قواعدها، وثانياً لأن اللغة ليست منطقية قياسية كما كان الإغريق يدّعون» (أنيس فريحة: نظريات في اللغة ص ١٢٩ - ١٣٠).

(٤٢) لبيان أثر المنطق الأرسطي بالنحو العربي، أنظر علي أبو المكارم: تقويم الفكر النحوي. دار الثقافة. بيروت. لا.ت. ص ١٠٧ - ١٤٢. وعبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث ص ٦٤ - ١٠٧.

(٤٣) يروى أنّ أحدهم سمع جدل النحاة، فلم يفهم شيئاً، فخرج من مجلسهم وهو يقول: «إنهم يتكلّمون في كلامنا بكلام ليس من كلامنا» (انظر محمد القصّار: «مدخل جديد إلى تعليم القواعد العربية»، جريدة النهار، بيروت، العدد ١٣٤٢٤، تاريخ ٢١/١/٧٨. ص ١١ العمود ١ و ٢).

فننصب الفاعل ونرفع المفعول به؟ يجيب أصحاب هذه المدرسة، بأنّ الفاعل في الكلام أقلّ من المفعول به، وبأنّ الضمّة حركة ثقيلة، لذلك أعطوا الحركة الثقيلة. أي الضمة - للفاعل، والحركة الخفيفة - أي الفتحة - للمفعول به، لأنّه أكثر دوراناً على اللسان، فتكون النتيجة شيوع الفتح في الكلام لا الضم، وهذا أسهل وأشهى(٤٤).

ولعلّ ما قاله النحاة في تعليل منع الكلمات غير المنصرفة من الصرف، خير مثال على فلسفة العلّة التي آمنوا بها وطبّقوها على النحو. إذ قال هؤلاء إنّ الفعل ثقيل على اللسان لقلّة استعماله بالنسبة إلى الاسم(٤٥). وكثرة استعمال الاسم سبب في خفّة النطق به. ومن أجل هذه الخفّة دخله التنوين الذي هو علامتها، ولم تقبل الأفعال التنوين لثقلها. ثم تدرّجوا إلى القول: بأنّ في كل فعل ظاهرتين فرعيتين: الأولى لفظية وهي اشتقاقه من المصدر، والثانية معنوية وهي حاجة الفعل إلى فاعل(٤٦). فالأسماء غير المتصرفة تجتمع فيها حسب زعمهم علّتان: لفظية ومعنوية، وبهاتين العلّتين تشبه الفعل فتمتنع، مثله، من الصرف. فكلمة «فاطمة» مثلاً تمنع من الصرف لعلّتين: الأولى لفظية وهي التأنيث الذي هو فرع التذكير، والثانية معنوية، وهي العلمية التي هي فرع التنكير(٤٧).

---

(٤٤) أنظر أنيس فريحة: نظريات في اللغة ص ١٣٤ و ص ١٤٦ - ١٤٧. ومحمد عرفة: النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة. مطبعة السعادة بمصر. ١٩٣٧. ص ١٦٢.

(٤٥) فالفعل لا يستعمل إلا مع اسم، أما الاسم فقد يستعمل مع الفعل أحياناً نحو: «زيد جاء»، ومع الاسم أحياناً أخرى نحو: «سمير أخي». والفعل لا يوجد منفرداً، بل في كلام مركب، أما الاسم فقد يدلّ بمفرده على مسمّى.

(٤٦) فالمشتق فرع والمشتق منه أصل، والاحتياج فرع وعدمه أصل.

(٤٧) لكن إن كانت مشابهة الفعل هي علّة منع الاسم من الصرف، فلماذا لا يمنع اسما الفاعل والمفعول من الصرف، مع أن مشابهتها للفعل ظاهرة بوضوح؟ وإن كان النحاة قد منعوا من الصرف، الوصف الذي على وزن «فعلان» ومؤنثه «فعلى»، ومثّلوا على ذلك بكلمات «عطشان» و «غضبان» و «سكران» فإن المعاجم اللغوية العربية، تأتي لهذه الأسماء بمؤنث على =

وقد افتتن النحاة بنظرية العلّة، حتى أنهم أفردوا كتباً خاصّة لها[٤٨]، وربّما كانت هذه الكتب موضوعاً ذا قيمة يكتبون فيه، ويتّخذون منه وسيلة امتحان واختبار[٤٩]، حتى أصبحت سبباً في كثرة الآراء وتضاربها[٥٠].

والحق أن بعض النحاة رفض فلسفة العلّة[٥١]، فلم يأخذ إلا بالعلل

= وزن «فعلانة» (عطشانة، غضبانة، سكرانة)، فأيّها نصدق: المعاجم أم النحاة؟ وإن كانت الأعداد العشرة التي على صيغة «فُعال» أو «مَفْعَل» ممنوعة من الصرف، لأنها معدولة عن اسم آخر، حسب ما ذهب إليه النحاة، فما الدليل على أن العرب الأوائل قد عدلوا عن استعمال اسم العدد الأصلي المكرّر إلى استعمال العدد المعدول؟ ولماذا استعمل العرب الأسماء المعدولة مصروفة تارة، وبغير صرف تارة أخرى؟ يقول عباس حسن في كتابه النحو الوافي (دار المعارف بمصر. القاهرة. ١٩٧٩ ج ١ ص ٣٤ هامش الرقم ١) إن كل كلام النحاة في تعليل منع الصرف «مدفوع بأن السبب الحق في تنوين بعض الأسماء، وعدم تنوين بعض آخر، أن العرب الفصحاء، نطقت بهذا منوناً، وبذاك غير منوّن. فعلت هذا بفطرتها وطبيعتها، لا لسبب آخر كمراعاة لقواعد علمية، وتطبيق لأسس فلسفية منطقية».

(٤٨) ككتاب «العلل في النحو» لمحمد بن المستنير المشهور بقطرب المتوفى في السنة ٢٠٦ هـ. وكتاب «علل النحو» لبكر بن محمد المازني المتوفى في السنة ٢٣٧ هـ. أو السنة ٢٤٨ هـ.

(٤٩) أنظر مازن المبارك: النحو العربي، العلّة النحوية، نشأتها وتطورها. ط ٢. دار الفكر. ١٩٧٤ ص ٧١.

(٥٠) إن مشكلة كثرة الآراء وتضاربها، لا يكاد يسلم منها أيّ باب نحوي، حتى أنك تستطيع، في معظم الأحيان، عندما ترى رأياً، أن تقول: إنّ هناك رأياً آخر يناقضه، من غير أن تكلّف نفسك مشقّة الاطّلاع والجري وراء هذا النقيض، وحتى أصبحت حجة النحاة مثلاً يضرب على الضعف والهزال، فقيل «أوهى من حجة نحوي»، كما قال أحد الشعراء:

ترنو بطرف ساحر فاتر أضعف من حجة نحوي

(عن ابن مضاء القرطبي: الرد على النحاة: تحقيق شوقي ضيف. ط ١. دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٧، ص ٨٠).

(٥١) يقول ابن حزم الأندلسي إن علل النحو «كلها فاسدة لا يرجع منها إلى الحقيقة ألبتّة، وإنّما الحق من ذلك أن هذا سمع من أهل اللغة الذي يرجع إليهم في ضبطها ونقلها، وما عدا هذا – مع أنّه تحكّم فاسد متناقض – فهو أيضاً كذب لأن قولهم كان الأصل كذا فاستثقل فنقل إلى كذا... شيء يعلم كل ذي حسّ أنه كذب لم يكن قط... ولا كانت العرب عليه مدّة ثم =

الأوائل[٥٢] التي رآها، عن حقّ، ضرورية للتعلم، وهذا ما تدعو إليه المدرسة الوصفية. لكن هؤلاء بقوا قلّة ضئيلة لأن العرب كانوا مفتتنين بالفلسفة والمنطق اليونانيين.

ب- العامل: إن قضية العامل خير مثال على إقحام الفلسفة والمنطق في دراسة اللغة. فمن المعروف أنّ اللغة العربية مُعرَبة، وأن أواخر معظم الكلمات فيها[٥٣]، تتغيَّر تبعاً لموقعها في التركيب، أي لوظيفتها النحوية.

= انتقلت إلى ما سمع منها بعد ذلك». (عن سعيد الأفغاني: نظرات في اللغة عند ابن حزم الأندلسي. دار الفكر. بيروت. ١٩٦٩ ص ٤٥ – ٤٦). ويقول ابن سنان الخفاجي: «إنّ النحاة يجب اتباعهم فيما يحكونه عن العرب ويروونه.. فأما طريقة التعليل، فإنّ النظر إذا سلّط على ما يعلّل به النحويون، لم يثبت معه إلا الفذّ الفرد، بل لا يثبت منه شيء ألبتّة، ولذلك كان المصيب منهم المحصِّل من يقول: هكذا قالت العرب، من غير زيادة على ذلك» (ابن سنان الخفاجي: سر الفصاحة، ص ٣١. وقد أخذنا قوله عن عباس حسن: اللغة والنحو بين القديم والحديث ص ١٤٤). أما ابن جني فرغم تخصيصه قسطاً وافراً من كتابه الخصائص للدفاع عن العلّة النحوية، فقد قسّم العلل إلى قسمين: «أحدهما واجب لا بدّ منه، لأن النفس لا تطيق في معناه غيره، والآخر ما يمكن تحمّله إلا أنه على تجشّم واستكراه». كما أنكر علّة العلّة أو العلل الثواني وما بعدها، واعتبرها شرحاً وتتمياً للعلة الأولى. وهو يرى أن وجود علة للعلة يقتضي وجود العلل الثوالث وما بعدها، وهذا التكلف يؤدي إلى تصاعد عللي يؤدي إلى هجنة في القول. (ابن جني: الخصائص ج ١ ص ٨٨ و ص ١٧٣). كذلك قسّم الزجاجي العلل النحوية إلى تعليمية وهي ضرورية لتعليم النحو، وقياسية وهي ضرورية لثاء اللغة، وجدلية نظرية ليس للغة منها نفع إذ إنها تدخل في باب النظر والجدل وتكون بين القوم وسيلة استعلاء وتفاخر وسلاح اختبار وتناظر. (أنظر كتابه: الإيضاح في علل النحو. تحقيق مازن المبارك. دار الفكر. ١٩٧٤ ص ٦٤). وكذلك دعا ابن مضاء القرطبي إلى إلغاء العلل الثواني والثوالث (أنظر كتابه: الرد على النحاة ص ١٥١ – ١٥٥).

(٥٢) العلّة الأولى هي أن تعلِّل رفع كلمة «التلميذ» مثلاً في قولك: «نجح التلميذُ» بكونها فاعلاً. أما العلّة الثانية فهي تعليل رفع الفاعل بالرغبة في التفريق بينه وبين المفعول به. وأما العلّة الثالثة فهي تعليل عدم نصب الفاعل، لكون الضمّة ثقيلة في النطق، ولكون الفاعل أقل تواتراً من المفعول به، فأعطيت الضمّة وهي أثقل من الفتحة – حسب النحاة – إلى الفاعل لأنه أقل تواتراً من المفعول به.

(٥٣) الكلمات المعربة هي الفعل المضارع الذي لم تتّصل به نونا التوكيد ولا نون النسوة؛ =

وللباحث أمام ظاهرة الإعراب موقفان: موقف الواصف المقرِّر، وموقف المتفلسِف الذي يحاول أن يجد الأسباب والعلل لهذه الظاهرة. وقد اتخذ النحاة العرب الموقف الثاني فقالوا إنّ سبب الإعراب عامل يسبب الرفع والنصب والجزم والجر. والعوامل عندهم سماعية وكلّها لفظية، وقياسية وهي إما لفظية وإما معنوية(٥٤).

وتقدير العامل كان سبباً من أسباب الخلاف بين النحاة، إذ إنّ هؤلاء لم يختلفوا في أن المبتدأ والخبر مرفوعان مثلاً، بل اختلفوا في عامل رفعها(٥٥)، وربما أصبحت فكرة العامل المحور الذي دار حوله النحو، حتى أنّ بعضهم أطلق اسم العوامل مريدين بها النحو كله(٥٦)، وأن بعضاً آخر كانوا يفضّلون، على أساسها لهجة على أخرى(٥٧).

والحق أن بعض النحاة، رفضوا نظرية العامل(٥٨)، لكن رفضهم لم يؤثّر

= وجميع الأسماء إلا قليلاً منها (كالأسماء المنتهية بـ «ويه» نحو: «سيبويه» والتي على وزن «فعال» نحو: «وبار» وبعض أسماء الإشارة والاستفهام وغيرها).

(٥٤) أنظر أنيس فريحة: نظريات في اللغة ص ١٤٤.

(٥٥) قال البصريون إن المبتدأ مرفوع بالابتداء، وإن الخبر مرفوع بالمبتدأ. وقال الكوفيون إن المبتدأ مرفوع بالخبر وإن الخبر مرفوع بالمبتدأ فهما يترافعان. وكذلك اختلفوا في عامل النصب في المفعول به، فقالت فئة إنّ العامل هو الفعل أو شبهه، وقالت فئة ثانية هو الفاعل وحده، وذهبت ثالثة إلى أنه الفعل والفاعل معاً، وذهبت رابعة إلى أنه معنى المفعولية. وفي عامل النصب في المفعول معه تراوحت آراء النحاة بين ما تقدمه من فعل ونحوه، والواو، وفعل مضمر بعد الواو، والخلاف. أما في عامل النصب في المفعول المطلق فقد اختلفوا فيه على ثلاثة عشر قولاً. وإذا نحن قرأنا كتاب ابن الأنباري «الإنصاف في مسائل الخلاف» لوجدنا أن أكثر خلاف الكوفيين والبصريين ينحصر في تقدير العامل.

(٥٦) كما فعل الجرجاني حين أطلق على رسالته اسم «العوامل المئة» وكانت شاملة لجميع أبواب النحو.

(٥٧) قالوا مثلاً إن لغة تميم في إهمال «ما» أقيس من لغة الحجاز في إعمالها، لأن «ما» غير مختصّة بالاسم، وغير المختصّ لا يعمل.

(٥٨) من هؤلاء ابن جني الذي يقول في كتابه الخصائص (ج ١ ص ١٠٩ - ١١٠): «وإنما قال =

في مسيرة المنهج النحوي المعياري، لافتتان العرب، كما ذكرنا، بالفلسفة اليونانية. ولا شك في أن هذه النظرية، قد أدخلت في النحو العربي، ما ليس منه، من صعوبات ومشاكل[٥٩]، وقد كثر الداعون إلى رفضها في العصر الحديث[٦٠].

= النحويون: عامل لفظي، وعامل معنوي، ليُرُوك أن بعض العمل يأتي مسبّباً عن لفظ يصحبه، كمررت بزيد، وليت عمراً قائم، وبعضه يأتي عارياً من مصاحبة لفظ يتعلّق به، كرفع المبتدأ بالابتداء، ورفع الفعل لوقوعه موقع الاسم، هذا ظاهر الأمر، وعليه صفحة القول. فأما في الحقيقة ومحصول الحديث، فالعمل من الرفع والنصب والجر والجزم إنما هو للمتكلم نفسه، لا لشيء غيره. وإنما قالوا: لفظي ومعنوي لما ظهرت آثار فعل المتكلم بمضامّة اللفظ للفظ، أو باشتمال المعنى على اللفظ. وهذا واضح». كذلك أخذ ابن مضاء القرطبي فكرة إلغاء نظرية العامل عن ابن جني، فوسّعها وأخرجها في شكل نظرية دعمها بالأدلّة والبراهين. (انظر كتابه: الرد على النحاة. تحقيق شوقي ضيف. ص ١٩ وما بعدها). ولرفض ابن جني وابن مضاء القرطبي نظرية العامل، اعتبرهما أنيس فريحة رائدي المدرسة الوصفية الحديثة (انظر كتابه: تبسيط قواعد اللغة العربية على أسس جديدة. اقتراح ونموذج دار الكتاب اللبناني. بيروت ١٩٥٩ ص ٤٠ - ٤١).

(٥٩) إذ أدّت إلى البحث في شروط العوامل، وفي مسائل كثيرة تتفرّع عنها، كالذكر والحذف، والتقديم، والتأخير، والتأويل، والافتراض، والتنازع، والاشتغال وقضايا فرعية أخرى، وحدود منطقية تكلّفها النحاة لا تقع تحت حصر. ففي باب التنازع مثلاً قدّروا في مثل قولك «وقف وتكلّم الخطيب» ضميراً مستتراً في محل رفع فاعل لأحد الفعلين: «وقف» و«تكلّم» على أن يكون فاعل الفعل الثاني «الخطيب»، والذي دفعهم إلى التقدير، قولهم إنه لا يجوز تسليط عاملين على عامل واحد. وفي باب الاشتغال قدّروا في مثل قولك: «هلّا سميراً أدّبته» فعلاً محذوفاً يفسّره الفعل الظاهر، فعل النصب في «سميراً» والتقدير عندهم «هلّا أدّبتَ سميراً أدبته»، والذي دفعهم إلى هذا التقدير قولهم إنه لا يجوز أن يعمل الفعل «أدّبتَ»، في المثل السابق، في معمولين: الهاء في «أدّبته» و«سميراً».

(٦٠) من هؤلاء ابراهيم مصطفى، ومهدي المخزومي، وعباس حسن، وابراهيم السامرائي، وأنيس فريحة. أنظر على التوالي:

- ابراهيم مصطفى: إحياء النحو. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٩٥٥.
- مهدي المخزومي: في النحو العربي، ط ١. المكتبة العصرية. صيدا. ١٩٦٤. ص ١٦.
- عباس حسن: اللغة والنحو بين القديم والحديث، ص ٢١٤ - ٢١٥.
- إبراهيم السامرائي: النحو العربي، نقد وبناء. دار الصادق. بيروت ١٩٦٨ ص ٢٠٠.
- أنيس فريحة: نظريات في اللغة ص ١٤٣ - ١٤٥. =

ج- مقولة الجوهر: هذه المقولة هي إحدى مقولات أرسطو العشر[٦١]، وقد طبّقها العرب على نحوهم فاعتبروا الجذر الثلاثي أصل الأفعال والأسماء غالباً، ثم اختاروا وزن «فعل» ميزاناً، فقالوا إن أصل «قام» مثلاً هو «قَوَم» وأصل «مدَّ»، «مَدَدَ»، و«قاضٍ» أصلها قاضي... الخ. وكما أن للمفرد جوهر كذلك للجملة، ففي قولك: «في المدرسةِ معلّم» مثلاً، يعتبر النحاة أن جوهر الجملة ناقص، لذلك يقدّرون خبراً محذوفاً تقديره «موجود»، أو «مستقر»، أو «كائن»... الخ. ونظرية الجوهر، أدّت بالنحاة إلى القول بالإعراب التقديري[٦٢]، والإعراب على المحل[٦٣]، واعتبار «الجملة الخبرية» أساس البحث اللغوي في الجمل، معتبرين الأنماط الأخرى من الجملة، أشكالاً «منحرفة» من الجملة الخبرية، مما اضطرّهم إلى القول بالتقدير والإضمار والتأويل والحذف وما إليها[٦٤].

أمّا المدرسة الوصفية فتقول: إن الفعل في العربية يأتي على أوزان مختلفة (نحو: درس، باع، قال، مَدَّ، دعا، بكى، زلزل، أكرم، استغفر...

= وأكثر الناس تمسّكاً بالتراث القديم، باتوا مقتنعين أن المتكلّم هو المحدث للحركات، تماماً كما هو المحدث للأصوات والحروف والكلمات، فليست العوامل هي التي ترفع وتنصب وتجر، إنما هي التي توجب هذه العلامات، فكأنها آلات في العمل وقد نسب الفعل إليها. (انظر، محمد عرفة: النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة ص ٨١ - ٨٢).

(٦١) وهي الجوهر (substance)، والكم (quantité)، والنوع أو الكيف (qualité)، والعلاقة أو الإضافة (relation)، والأين أو المكان (place)، والمتى أو الزمان (temps) والوضع (position)، والملك (possession)، والفعل (action)، والانفعال (passion) (عن أنيس فريحة: نظريات في اللغة ص ١٣١)

(٦٢) كتقدير المصدر المؤول بعد الحروف المصدرية، والتقدير في الكلمات المعتلّة الآخر، أو التي تكون في آخرها حركة تمنع ظهور حركة الاعراب الحقيقية.

(٦٣) ويكون هذا الإعراب في الاسم المبني وفي الجملة عندما يكونان في موقع من التركيب يتطلّب ذكر الحالة الاعرابية.

(٦٤) أكثر ما يظهر القول بالحذف والتقدير، في إعراب صيغتي التعجب، وفي عبارات نحو: «أهلاً وسهلاً»، و«سقياً ورعياً» و«يا ترى»... الخ.

الخ) لا على وزن واحد، وأنّ الإعراب والبناء هما من خصائص الكلمات المفردة، أما التركيب فلا يكون معرباً ولا مبنياً، ولا داعي للإعراب التقديري، وأنّ أنماط الجملة، يجب دراستها على أساس أنها أشكال قائمة بذاتها، لا على أساس اعتبارها أشكالاً «منحرفة» من الجملة الخبرية[٦٥].

وفي ختام هذا الفصل، لا بدّ من الإشارة، إلى أنه بالرغم من إفاضة الوصفيين في شرح جوانب «النقص» في النحو التقليدي، فإن هذا النحو ما زال سائداً في مراحل التعلم المختلفة، لأن النحو الوصفي لم يقدّم حتى الآن نحواً شاملاً يضارع ما قدّمه التقليديون[٦٦]. وعليه نميل إلى الدعوة لإعادة النظر في النحو التقليدي الذي نعلّمه لتلامذتنا اليوم، وذلك بدرس اللغة من جديد على أساس المنهج الوصفي التقريري، بغية تبسيط قواعدها، دون المساس بأي شيء منها. ولا يخفى ما لتبسيط قواعد النحو من أثر في تحبيب اللغة العربية للنشء العربي، والإقبال بالتالي، على دراستها وإتقانها.

---

(٦٥) لعل ما قالت به المدرسة المعيارية القديمة في التقدير والإعراب على المحل، هو الأنسب من الناحية التعليمية، أي من ناحية تعليم اللغة. لكن هذه المدرسة أسرفت في تخريج بعض الأساليب العربية، على أساس أنها «جمل خبرية»، وربما كان من المفيد دراسة هذه الأساليب على أنها صيغ عربية وردت في الاستعمال، دون أن نتعسّف في إعرابها.

(٦٦) عبده الراجحي: النحو العربي والدرس الحديث. ص ٤٨.

الفصل الخامس

لمحة عن اللغات السامية وكيف انحدرت منها اللغة العربية

« كل لغة وليدة لتطوّر تاريخي ».

ماييه

١ - تمهيد

إذا نظرنا إلى لغات الشعوب، نجدها كثيرة العدد[١]، يختلف بعضها عن بعض أشدّ الاختلاف، من ناحية، ويقترب قسم منها من قسم آخر، من ناحية ثانية. وقد قسمها الباحثون، بغية تسهيل دراستها، إلى مجموعات تتشابه عناصر كل مجموعة في اللفظ والتركيب وطرائق التعبير. لكن هذه المجموعات تختلف باختلاف المعيار الذي بوساطته صنّف الباحثون لغات العالم. فبعضهم قسّم هذه اللغات مستنداً إلى ما جاء في التوراة من أنّ الطوفان عندما اجتاح سكان الأرض، لم ينجُ منه سوى نوح وأولاده الثلاثة: سام وحام ويافث، وما حمل معه في سفينته من كل زوجين[٢].

(١) تذكر جمعية الكتاب المقدس في بريطانيا أنها نقلت الإنجيل إلى سبعين وسبعمئة لغة حتى العام ١٩٤٧ (انظر محمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية. ص ٢٨).

(٢) انظر التوراة. سفر التكوين، الإصحاح العاشر.

فنوح هو الأب الثاني بعد آدم، للشعوب البشرية، وعن أولاده الثلاثة تفرّعت هذه الشعوب إلى سامية وحامية وآرية (يافثية). ونظر بعض الباحثين الآخرين إلى موضوع تصنيف اللغات البشرية، نظرة طبيعية، فقسّم الأجناس على أساس اللون والتركيب الجسمي. وأخذ فريق ثالث معيار التطوّر والارتقاء أساساً للتقسيم، فقسّم اللغات الإنسانية إلى ثلاث فصائل، تختلف عناصر كل منها عما عداها في درجة رقيّها وهي: اللغات غير المتصرّفة أو العازلة (وتشمل الصينية والسامية والبرمانية والتيبتية... إلخ) واللغات اللّصقية أو الوصلية (وتشمل التركية والمنغولية والمنشورية واليابانية ولغات الباسك... إلخ) واللغات المتصرّفة أو التحليلية (وتشمل الفارسية والهندية واللاتينية والإغريقية والجرمانية والعربية والعبرية... إلخ)[٣].

وأياً يكن أساس التقسيم، فإنه من المتعارف عليه، وجود جنس بشري متميّز ومتّحد في النشأة والمكان واللّون، تجمع شعوبه خواصّ مشتركة، ويعرف باسم «الجنس السامي».

أما اللغات السامية فتطلق «على جملة اللغات التي كانت شائعة منذ أزمان بعيدة في آسيا وأفريقيا. وبعضها حي لا يزال يتكلّم به ملايين البشر، ويحمل كنوزاً غنية من الثقافة والأدب، وبعضها ميت عفت آثاره بذهاب الأيام»[٤]. ويظهر أن أوّل من أطلق هذه التسمية: «اللغات السامية» هو المستشرق الألماني شلوتزر Schloser، مستنداً إلى التقسيم الخاص بالتوراة الذي ورد ذكره آنفاً.

(٣) علي عبد الواحد وافي: علم اللغة ص ١٩٥. وانظر بالنسبة للمذاهب في تصنيف اللغات، ربحي كمال: دروس اللغة العبرية: بيروت. دار العلم للملايين. سنة ١٩٦٣ ص ٥ - ٦. وجودت محمود الطحلاوي: تاريخ اللغات السامية. مطبعة الطلبة بمصر. ١٩٣٢ ص ٢٠ - ٢١.

(٤) ربحي كمال: دروس اللغة العبرية. ص ٦. وانظر إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ط ١. مطبعة الاعتماد. القاهرة. ١٩٢٩. ص ٢.

٢ - الموطن الأصلي للشعوب السامية، وأقدم لغة سامية

اتفق الباحثون على أن للأمم السامية وطناً أصلياً واحداً، لكنهم اختلفوا اختلافاً شديداً في تعيين هذا الوطن الأصلي. ففريق يرى أنّ الوطن الأصلي للساميين هو القسم الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة (اليمن)، معزّزاً وجهة نظره بخصب هذا القسم، وبأن الهجرات في العصور القديمة كانت من الجزيرة العربية إلى البلاد الأخرى. وفريق آخر يذهب إلى أن موطن الساميين كان جنوب العراق، مستنداً إلى التوراة التي تنصّ على أنّ أقدم ناحية عمّرها بنو نوح هي أرض بابل[٦]، وداعماً رأيه بخصوبة أرض العراق وقِدَم تاريخه، وباشتراك اللغات السامية في كثير من الألفاظ التي تتعلّق بالعمران والحيوان والنبات. ويزعم آخرون أنّ بلاد كنعان هي المهد الأصلي للأقوام السامية، بدليل أن هذه الأقوام كانت منتشرة في البلاد السورية القديمة منذ أزمنة متوغّلة في القدم. ويؤكّد فريق رابع أنّ الساميين نشأوا في أرمينية، لوجود جبال أرارات فيها، وهي المكان الأكثر احتمالاً لرسوّ سفينة نوح فيه. ويرى فريق خامس أنّ الحبشة أو شمالي أفريقية هي الموطن الأول للساميين، مستدلاً على رأيه بالصلات اللغوية بين اللغات السامية والحامية[٧].

وكما اختلف الباحثون في تعيين المهد الأول للأمم السامية، كذلك اختلفوا في تعيين اللغة السامية الأولى. فمنهم من ذهب إلى أنّ اللغة

---

(٥) انظر ربحي كمال: دروس اللغة العبرية ص ٦، وإسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية. ص ٢.

(٦) التوراة. سفر التكوين. إصحاح ١١.

(٧) انظر بصدد الاختلاف في تحديد الموطن الأصلي للساميين، إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ص ٤ - ٧. وجودت محمود الطحلاوي: تاريخ اللغات السامية ص ٢٥ - ٣٠. وعلي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٠ - ١٤. وربحي كمال: دروس اللغة العبرية ص ٧ - ١٥.

العبرية هي اللغة السامية الأم، بل هي أقدم لغة في العالم[٨]، ومنهم من زعم أن الأشورية البابلية هي اللغة السامية الأولى. وفريق ثالث رأى أن اللغة العربية هي أقرب لغات الساميين إلى اللغة السامية القديمة[٩].

٣- خصائص اللغات السامية

تشترك اللغات السامية، بوجه عام، بعدة خصائص تدل من ناحية، على وحدة أصلها، وتميِّزها من ناحية أخرى من سائر مجموعات اللغات. ولعل أهمَّ هذه المميِّزات يعود إلى أنها[١٠]:

أ- تعتمد في الكتابة على الحروف الصامتة Consonnes دون الحروف الصائتة Voyelles.

ب- تتشابه في تكوين الاسم من حيث عدده ونوعه، وفي تكوين الفعل من حيث زمنه، وتجرّده وزيادته وصحّته وعلّته.

ج- تُرجع معظم كلماتها إلى أصل ذي ثلاثة أحرف.

د- تختص بالحرفين الحلقيين: الحاء والعين، وبحروف الإطباق: الصاد، والضاد، والطاء، والظاء.

هـ- تكاد تخلو من الأسماء المركّبة تركيباً مزجياً إلا في ألفاظ العدد نحو: خمسة عشر، بخلاف اللغات الآرية.

---

(٨) كان أحبار اليهود في العصور القديمة يذهبون هذا المذهب، ثم جاراهم العرب فيه (انظر إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ص ٦ – ٧، وربحي كمال: دروس اللغة العبرية ص ١٣).

(٩) انظر إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ص ٦ – ٨، وربحي كمال: دروس اللغة العبرية ص ١٣ – ١٥. وعلي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٤ – ١٦.

(١٠) انظر إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ص ١٤ – ١٧. وعلي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٧ – ٢١. وربحي كمال: دروس اللغة العبرية ص ١٩ – ٢٠.

و- تحقّق الاشتقاق إما بتغيير الحركة، وإما بالزيادة في أحرف الكلمة، وإما بإنقاصها، دون أن تلتزم موضعاً واحداً في هذا التغيير، بخلاف الآرية التي يتحقّق فيها الاشتقاق بزيادة أدوات تدل على معنى خاص في أوّل الكلمة غالباً.

ز- تتشابه في الضمائر وطريقة اتصالها بالأسماء والأفعال والحروف، وفي صوغ الجمل وتركيبها، وفي المشتقات كاسمي الفاعل والمفعول واسمي المكان والزمان واسم الآلة. كما تتشابه في كثير من المفردات، وعلى الأخص المفردات الدالة على أعضاء الجسم، وصلة القرابة، والعدد، وبعض الأفعال، ومرافق الحياة التي كانت منتشرة في الشعب السامي الأم.

٤- وجوه الخلاف بين اللغات السامية

مع شدّة القرابة والتشابه بين اللغات السامية، فإن بينها كثيراً من الاختلاف، بحيث أننا نلاحظ أن لكل لغة منها ميّزات خاصة بها[١١]. فأداة التعريف في العربية هي «أل» في أوّل الاسم، وهي في العبرية «الهاء» في أول الاسم، وفي السبئية حرف «ن» في آخر الكلمة، وفي الآرامية حرف «آ» في آخر الكلمة، وليس في اللغة الأشورية ولا الحبشية أداة تعريف مطلقاً. وعلامة الجمع في العبرية حرفا «يم» للمذكّر، وواو وتاء للمؤنث، وهي في العربية واو ونون لجمع المذكر السالم في حالة الرفع، وياء ونون لهذا الجمع في حالة النصب[١٢]، وألف وتاء لجمع المؤنث السالم، وهي في الآرامية حرفا «ين». زد على ذلك «أن الأصوات العربية:

(١١) انظر إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ص ١٩ – ٢٠. وربحي كمال: دروس اللغة العبرية ص ٢٣. وعلي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ٢١ – ٢٢.

(١٢) تحذف نون هذا الجمع عند الإضافة.

ذ غ ظ ض ، لا وجود لها في العبرية ، والصوتين العبريين « پ ، p » و « ڤ ، v » لا وجود لهما في العربية ، ولا وجود للعين والقاف والسين في البابلية ، وأغلب ما يأتي في العبرية بالسين يأتي في العربية والحبشية بالشين والعكس بالعكس »[13].

٥ - انحدار اللغة العربية من اللغة السامية الأم

ذكرنا ، قبل قليل ، في حديثنا عن أقدم لغة سامية ، أن ثمَّة نظرية تذهب إلى أن اللغة العربية هي أقرب اللغات السامية إلى اللغة السامية الأم . والواقع أنَّ لهذه النظرية ما يسوِّغها ، بل إنها أصبحت عند الباحثين أرجح النظريات جميعاً ، لأنها « احتفظت بعناصر قديمة ترجع إلى السامية الأم أكثر ممّا احتفظت به الساميات الأخرى . ففيها من الأصوات ما ليس في غيرها من اللغات السامية ، وفيها ظاهرة الإعراب ونظامه الكامل ، وفيها صيغ كثيرة لجموع التكسير ، وغير ذلك من ظواهر لغوية ، يؤكِّد لنا الدارسون أنها كانت سائدة في السامية الأولى التي انحدرت منها كل اللغات السامية المعروفة لنا الآن »[15].

ومهما يكن من أمر صحة هذه النظرية ، فإنّه من المعروف ، أنَّ اللغة السامية الأم ، انقسمت إلى مجموعتين من اللغات : شرقية وتضم اللغات

---

(١٣) علي عبد الواحد وافي : فقه اللغة ص ٢٢ .

(١٤) انظر إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ٧ . وربحي كمال : دروس اللغة العبرية ص ١٤ - ١٥ .

(١٥) إبراهيم أنيس : في اللهجات العربية . ط ٣ . القاهرة . مكتبة الأنجلو مصرية سنة ١٩٦٥ ص ٣٣ .

البابلية - الأشورية (أو الأكادية[١٦] أو المسمارية)[١٧]، وغربية تفرَّعت منها الآرامية[١٨] والكنعانية[١٩] والعربية. ثم انقسمت العربية بدورها إلى قسمين: جنوبية وشمالية. وانقسمت العربية الجنوبية أيضاً إلى لغات معينية وسبئية وحضرمية وقتبانية وحبشية، كما انقسمت العربية الشمالية إلى عربية بائدة وتشمل اللغات الصفْوية والثمودية واللِّحيانية، وعربية باقية وتشمل لغة تميم ولغة الحجاز. وسنتناول بشيء من التفصيل العربية الجنوبية والعربية الشمالية ومتفرِّعاتها في الفصل التالي. وإليك رسماً بيانياً يمثّل باختصار شجرة اللغات السامية.

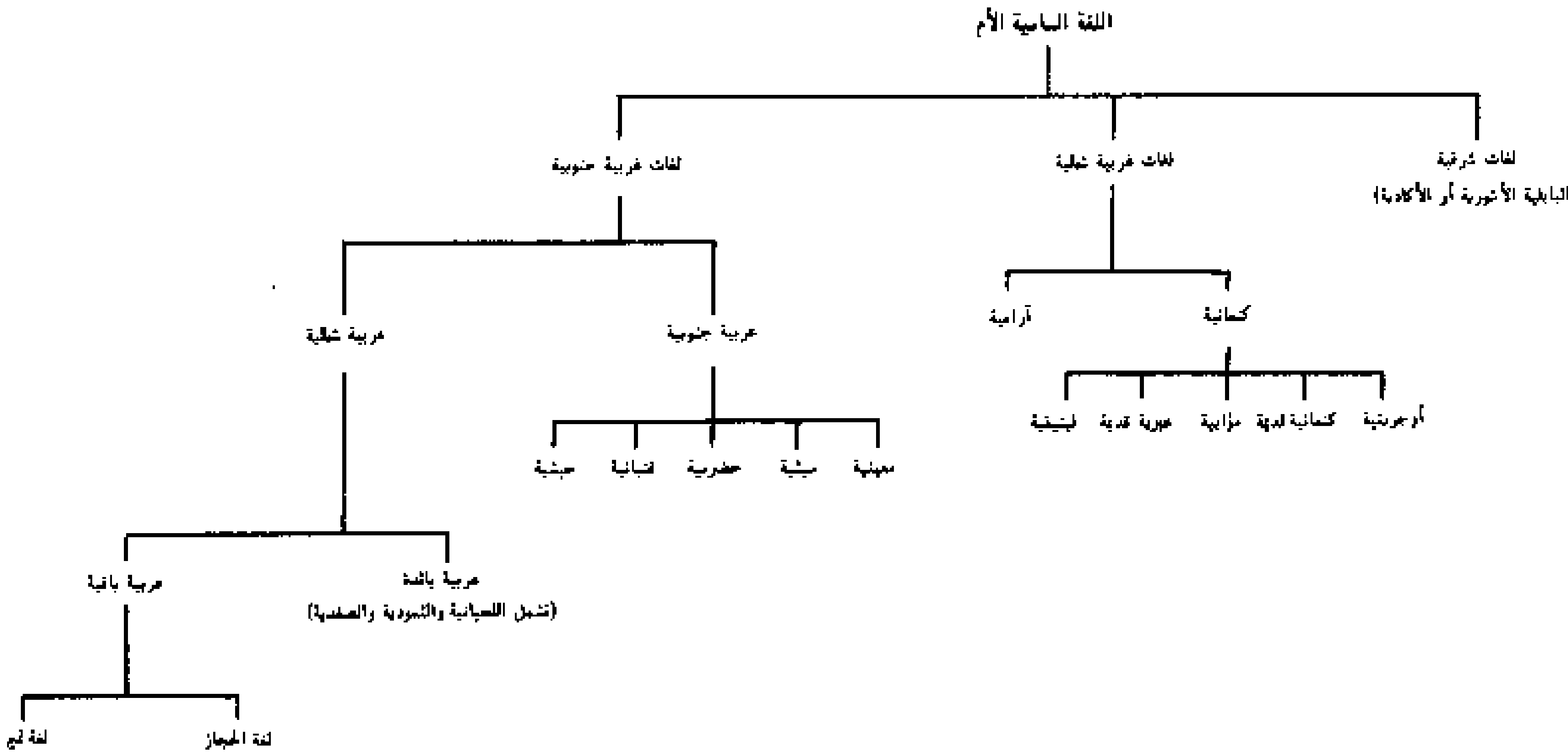
---

(١٦) سمِّيت كذلك نسبة إلى بلاد أكاد، وللمزيد من التفاصيل حولها انظر إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ٢٢ - ٥٠، وعلي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ٢٥ - ٣٣.

(١٧) سمِّيت كذلك لأنها كتبت بالخط المسماري ذي الزوايا.

(١٨) للمزيد من التفصيل حول اللغة الآرامية، انظر إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ص ١١٤ - ١٦٠ وعلي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ٥٦ - ٧١.

(١٩) انشعبت الكنعانية بدورها إلى كنعانية قديمة وأوجريتية ومؤابية وفينيقية وعبرية. انظر للمزيد من التوسّع إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ٥١ - ٧٥ وعلي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ٣٤ - ٤٠.


اللغة السامية الأم
لغات شرقية
(البابلية الأشورية أو الأكادية)
لغات غربية شمالية
لغات غربية جنوبية
كنعانية
آرامية
أوجريتية
كنعانية قديمة
مؤابية
عبرية قديمة
فينيقية
عربية جنوبية
عربية شمالية
معينية
سبئية
حضرمية
قتبانية
حبشية
عربية بائدة
(تشمل اللحيانية والثمودية والصفوية)
عربية باقية
لغة الحجاز
لغة تميم

الفصل السادس

اللهجات العربية القديمة البائدة والباقية

«إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم».

النبي محمد (ﷺ)

١ - تمهيد

تفرّق المعاجم العربية بين كلمتي «عربي» و«أعرابي»، فتخصّص الأولى بسكان المدن، والثانية بسكان البادية[١]. لكن إسرائيل ولفنسون[٢] يذهب إلى أن هذا التفريق لم يحدث إلاّ في عصور قريبة من الإسلام، لكن قبل ذلك، «لم تكن كلمة «عَرَب» أو «عُرب» تدلّ على مدلولها المتعارف عليه الآن، بل كانت تطلق على نوع خاص من القبائل، وهو النوع الذي يسكن البادية، ذلك النوع المتنقل الذي لا يستقر في مكان واحد، بل يتبع

---

(١) انظر مثلاً «لسان العرب» و«الصحاح» وغيرهما، مادة «عرب».

(٢) كان مدرّساً للغات السامية بدار العلوم، ثم بالجامعة المصرية. له «تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام» و«تاريخ اللغات السامية»، و«موسى بن ميمون: حياته، ومصنفاته» (نجيب العقيقي: المستشرقون. ط ٣. دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٥. ج ٢ ص ٧٦٢).

مساقط الغيث ومنابت الأعشاب والكلأ »[3]. وأن « لفظ « عربي » لم يكن يدل على لغة العرب، بل على قبائل معيّنة، ثم لما شاعت لغة شمال الجزيرة التي كان أغلب عناصرها من الأعراب سُمِّيت اللغة باسم هذه الطوائف البدوية في العصور القريبة من الإسلام »[4].

وعرفنا في الفصل السابق أن اللغة العربية سامية الأرومة، وأن هناك نظرية يؤيّدها أكثر المستشرقين، تذهب إلى أنّ هذه اللغة هي الأقرب إلى اللغة السامية الأم، بدليل أنها « احتفظت بعناصر قديمة ترجع إلى السامية الأم أكثر مما احتفظت به الساميات الأخرى. ففيها من الأصوات ما ليس في غيرها من اللغات السامية. وفيها ظاهرة الإعراب ونظامه الكامل، وفيها صيغ كثيرة لجموع التكسير، وغير ذلك من ظواهر لغوية، يؤكّد لنا الدارسون أنها كانت سائدة في السامية الأولى التي انحدرت منها كل اللغات السامية المعروفة لنا الآن »[5].

ومهما يكن من أمر هذه النظرية، فقد درج المستشرقون على تقسيم اللهجات العربية إلى قسمين: لهجات شمالية وأخرى جنوبية. لكن المستشرق إسرائيل ولفنسون، يعترض على هذا التقسيم، « لأنه ليس تقسيماً جغرافياً صحيحاً ولا تاريخياً دقيقاً، فليست هناك حدود واضحة تفصل شمال الجزيرة عن الجنوب، وتبيِّن لنا من أين وإلى أين كانت منطقة انتشار القسم الجنوبي من اللغة العربية، ومن أين وإلى أين سادت اللهجات الشمالية من

(3) اسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية. ص ١٦٤. وأدلّته على ما يذهب إليه أن كلمة عرب كانت مستعملة في اللغة العبرية القديمة لتدل على أهل العَرَبَة (أي الصحراء) في حين كان لأهل المدن والعمران أسماء أخرى. وأن كلمة « عبري » وكلمة « عربي » مشتقان من ثلاثي واحد هو « عَبَر » وتؤدّيان المعنى نفسه (انظر كتابه: تاريخ اللغات السامية ص ١٦٤ – ١٦٥).

(4) المرجع نفسه والصفحة نفسها.

(5) إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية ص ٣٣.

العربية »[٦]. والذي يراه « صواباً أن تقسم اللهجات العربية إلى بائدة وباقية »[٧]. لكن سواء اتخذنا المكان، أم استمرارية اللغة أساساً للتقسيم، فإننا في النهاية نصل إلى نتيجة واحدة، وهي أن اللهجات العربية القديمة، انقسمت إلى عربية بائدة، وتضم اللهجات العربية الجنوبية وبعض اللهجات العربية الشمالية، وعربية باقية وهي التي نُظِمت فيها قصائد الجاهليين، ونزل بها القرآن الكريم، والتي ما زلنا نستعملها حتى يومنا الحاضر. وعلى أساس تلك النتيجة سندرس العربية البائدة والعربية الباقية كلاً على حدة.

٢ - العربية البائدة

وتُسمّى أيضاً « عربية النقوش »، لأنها لم تصل إلينا إلاّ عن طريق نقوش عُثر عليها مؤخّراً في ساحة واسعة من الأرض تمتدّ من دمشق إلى منطقة العلا (شمالي الحجاز). وقد ظهر من هذه النقوش، أنّ لهجات العربية الجنوبية البائدة صُبِغَت بالحضارة الآرامية، فاستعملت حرفاً قريباً من الخط المسند[٨]، ودوِّنت تاريخها بتاريخ بصرى[٩]، وحرب النبط وحرب الفرس والروم، وأن لهجات العربية الشمالية البائدة تأثّرت بالحضارة النبطية، فكتبت بخط نبطي أو خط قريب منه[١٠]. ومن هذه اللهجات:

---

(٦) إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية. ص ١٦٣.

(٧) المرجع نفسه ص ١٦٤.

(٨) سمّي بذلك لأن حروفه تستند إلى أعمدة. ويمتاز بالتناسق الهندسي الجميل. (انظر علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ٧٨ - ٧٩. ورمزي بعلبكي: الكتابة العربية والسامية ط ١ بيروت. دار العلم للملايين. ١٩٨١ ص ١٠١ - ١٠٢).

(٩) يبدأ هذا التاريخ سنة ١٠٦ للميلاد وهو تاريخ دمار مملكة النبط وقد أرّخ به شاهد قبر امرىء القيس بن عمرو. (انظر رمزي بعلبكي: الكتابة العربية والسامية ص ١٢٤).

(١٠) انظر علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٠٠ - ١٠١، ورمزي بعلبكي: الكتابة العربية والسامية: ص ١٢٢ - ١٢٣.

أ – الثمودية: تنسب النقوش الثمودية المكتشفة إلى قبائل ثمود، التي جاء ذكرها في القرآن الكريم. وقد عُثر على حوالى ألفي نقش من هذه اللهجة، معظمها في الحجاز ونجد، في حين عُثر على بعض منها في الصفاة (شرقي دمشق) وسيناء[11].

ب – الصفوية: وهي اللهجة المنسوبة إلى منطقة الصفاة، لأن أكثر النقوش المكتشفة من هذه اللهجة – وعددها يربو على ألفي نقش – اكتشف في هذه المنطقة. والخط الصفوي شديد الشبه بالخط الثمودي، «حتى أنّ بعض الدارسين يقسمون تطور الخط الصفوي إلى مرحلتين اثنتين، ويعتبرون أنّ المرحلة الأولى هي امتداد للخط الثمودي، في حين يرون أنّ الخط الصفوي الخالص لا يظهر إلا في المرحلة الثانية. ويرقى معظم هذه النقوش إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين»[12].

ج – اللحيانية: وهي اللهجة المنسوبة إلى قبائل لحيان التي يرجّح أنها كانت تسكن منطقة العلا، شمال الحجاز. ومعظم النقوش اللحيانية المكتشفة يرجع إلى ما بين السنة ٤٠٠ والسنة ٢٠٠ ق.م.

وقد دلّت الدراسات التي أُجريت على النقوش الثمودية والصفوية واللّحيانية المكتشفة، أنّ هذه اللهجات أقرب لهجات العربية البائدة إلى العربية الفصحى، وأنّ خطوطها قريبة من الخط المسند[14]، أو مشتقّة منه، وأن خطّنا العربي الشمالي الذي ما زلنا نستعمله حتى اليوم، مشتق من الخطّ النبطي، كما يتّضح من نقوش أمّ الجمال الأول (ويعود إلى منتصف القرن

(١١) رمزي بعلبكي: الكتابة العربية والسامية ص ١٠٧.

(١٢) المرجع نفسه ص ١٠٩.

(١٣) المرجع نفسه ص ١٠٩.

(١٤) انظر رسوم أحرف هذه الخطوط في المرجع نفسه ص ١٠٨ وفي كتاب إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ص ١٧٩.

الثالث الميلادي تقريباً)، والنمارة (٣٢٨ م) وزَبد (٥١٢ م) وحرّان (٥٦٨ م) وأمّ الجمال الثاني (القرن السادس الميلادي)[١٥].

٣ - العربية الباقية

وهي التي تنصرف إليها كلمة «العربية» عند إطلاقها، والتي ما نزال نستعملها حتى اليوم، في مختلف أقطارنا العربية، وهي «مزيج من لهجات مختلفة، بعضها من شمال الجزيرة، وهو الأغلب، وبعضها من جنوب البلاد اختلطت كلها بعضها ببعض حتى صارت لغة واحدة»[١٦]. وهي العربية الفصحى التي نستعملها اليوم في كتاباتنا وخطبنا، وإذاعاتنا وصحفنا وما إليها. كانت منتشرة قبل الإسلام، فكانت تُنظم فيها القصائد، ويخطب بها، دون أن تكون لغة تخاطب للناس في حياتهم العامة. ولما نزل القرآن بها، قوّى منزلتها، وساهم في انتشارها وإغنائها ودراستها وتعلّمها. وهذه اللغة تكوّنت بفعل اتصال العرب بعضهم ببعض[١٧]، في الأسواق (وكانت أسواق الجاهلية ثمانية، أشهرها: عكاظ، والجنة، والمربد، وذو المجاز، وخيبر)، وبفعل الحروب والمناظرات الأدبية والمساجلات من شعر أو خطابة أو غيرها. وكان إلى جانب هذه اللغة «الفصحى» المشتركة، لهجات متعدّدة، تختلف فيما بينها في كثير من

---

(١٥) انظر رمزي بعلبكي: الكتابة العربية السامية ص ١٢٤ - ١٦٣ (وكتاب بعلبكي هو أفضل الكتب التي نعرفها في دراسة تاريخ الخطوط السامية) وإسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ص ١٧٨ - ١٨٢.

(١٦) إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ص ١٦٦.

(١٧) يتحدث ابن جني عن هذا الاتصال فيقول: «وذلك لأن العرب وإن كانوا كثيراً منتشرين، وخلقاً عظيماً في أرض الله غير متحجرين، ولا متضاغطين، فإنهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يجرون مجرى الجماعة في دار واحدة. فبعضهم يلاحظ صاحبه ويراعي أمر لغته، كما يراعي ذلك من مهم أمره». (ابن جني: الخصائص ج ٢ ص ١٥ - ١٦).

مظاهر الصوت والدلالة والقواعد والمفردات. وكان العربي يتكلّم مع أفراد قبيلته باللهجة الخاصة بهم، فإن نَظَمَ شعراً، أو دبج خطبة ليُلقيها في حفل يضم أفراداً من قبائل مختلفة، عمد إلى تلك اللغة المشتركة «الفصحى». «ونحن حين نستعرض شعراء ربيعة تلك القبيلة التي عرفت بالكشكشة[18]، لا نكاد نلمح أثراً لتلك الصِّفة في شعر شعرائها... بل حين نرجع إلى ديوان الهذليين لنستشفّ منه الصفات التي عرفت بها لهجة هذيل كالفحفحة[19] أو تسهيل الهمز[20]، أو الاستنطاء[21]، لا نكاد نعثر على أثر لها في أشعارهم»[22]. ولولا هذه اللغة المشتركة لما كان بالإمكان تفضيل شاعر على آخر، ما دام مقياس الحكم مختلفاً وأداة القول متباينة.

والحديث عن اللغة العربية المشتركة التي كانت معروفة لدى القبائل جميعاً، قبل الإسلام وبعده، إلى جانب اللهجات المحلية الخاصة بالقبائل، يؤدّي إلى سؤالين مهمّين، هما:

أولاً: هل كانت هذه اللغة المشتركة مختلفة في بداءتها ثم توحّدت بعد ذلك في لغة واحدة، بفعل احتكاك العرب بعضهم ببعض، أم أنها كانت لغة واحدة ما لبثت أن تفرَّعت إلى لهجات؟

ثانياً: هل تكوّنت هذه اللغة المشتركة من كل اللهجات، أم من

---

(18) هي أن تجعل بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً فتقول في: «رأيتكِ، بكِ» «رأيتكش، بكش» أو هي إبدال هذه الكاف تاء ثم زيادة الشين فتقول: «أبوتش» في «أبوكِ» و«أمش» في «أمك». أو هي إبدال كاف المؤنث شيناً فتقول: «عيناش» و«جيدش» في عيناك» و«جيدك». وفائدة الكشكشة في ربيعة ومُضر تمييز المؤنث من المذكر.

(19) هي إبدال الحاء من العين فتقول: «عتى» في «حتى».

(20) هي قلب الهمزة حرف علّة مناسب لحركتها فتقول «بير» و«أيمة» في «بئر» و«أئمة».

(21) هي إبدال العين الساكنة نوناً إذا وقعت قبل الطاء نحو: «أنطيناك» في «أعطيناك».

(22) ابراهيم أنيس: في اللهجات العربية. ص 43 - 44.

معظمها، أم من لهجة واحدة، استطاعت، بفعل عوامل معيَّنة، أن تسود على ما عداها من لهجات؟

بالنسبة للسؤال الأول، يذهب أكثر الباحثين إلى أنّ العربية كانت لهجات مختلفة، ثم توحّدت بعد ذلك[٢٣].

أما بالنسبة للسؤال الثاني فإننا نميِّز ثلاثة اتجاهات:

أ- اتجاه يضم أكثر الباحثين، يؤكد أن لهجة قريش هي أفصح اللهجات، وهي التي سادت شبه الجزيرة قبل الإسلام. يقول ابن فارس: «أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم أنّ قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة. وذلك أنّ الله - جل ثناؤه - اختارهم من جميع العرب واصطفاهم، واختار منهم نبي الرحمة محمداً ﷺ»[٢٤]. ويقول ابن جني: «ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة[٢٥] تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة[٢٦] هوازن، وتضجع[٢٧] قيس،

(٢٣) انظر إسرائيل ولفنسون: تاريخ اللغات السامية ص ١٦٦. وعبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية ص ١١٣. وابراهيم أنيس: في اللهجات العربية ص ٤٠ - ٤١. والجدير بالملاحظة هنا أن ابن جني يجوّز الاحتمالين، وذلك في نقله رأي أبي الحسن (الأخفش) الذي «ذهب إلى أن اختلاف لغات العرب إنما أتاها من قبل أن ما وضع منها وضع على خلاف، وإن كان كله مسوقاً على صحّة وقياس، ثم أحدثوا من بعد أشياء كثيرة للحاجة إليها، غير أنها على قياس ما كان وضع في الأصل مختلفاً، وإن كان كل واحد آخذاً من صحّة القياس حظاً. ويجوز أن يكون الموضوع الأوّل ضرباً واحداً ثم رأى من جاء من بعد أن خالف قياس الأول إلى قياس ثان جار في الصحة مجرى الأوّل». (ابن جني: الخصائص ج ٢ ص ١١٣).

(٢٤) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ص ٥٢.

(٢٥) هي إبدال الهمزة في «أن» عيناً نحو قول ذي الرمّة: أعن ترسّمت.

(٢٦) هي إبدال كاف المؤنث سيناً نحو: «عليس» في «عليك». وهذا في الوقف دون الوصل، أو هي زيادة السين بعد كاف المؤنث نحو «أمكس» في «أمك». أو إبدال الكاف ثاء ثم زيادة السين نحو: «أمس» في «أمك». و «أبوتس» في «أبوك».

(٢٧) لعلها قلب الكاف جيماً نحو: «الجعبة» في «الكعبة». أو التباطؤ في الكلام كما يفهم من المعنى اللغوي لكلمة التضجّع.

وعجرفية[٢٨] ضبَّة، وتلتلة[٢٩] بهراء»[٣٠]. ويقول علي عبد الواحد وافي: «فلا غرابة إذاً في أن القرآن، وقد جاء بلغة قريش، كان مفهوماً لدى جميع القبائل، وكان يؤثّر في العرب جميعاً ببيانه وبلاغته. فقد نزل بعد أن تمّ للهجة قريش التغلّب على اللهجات العربية الأخرى، وبعد أن أصبحت لغة الآداب لسائر قبائل العرب»[٣١]. ويقول صبحي الصالح: «وسترى أن لهجة قريش، التي جعلتها العوامل السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية اللغة العربية الفصحى المقصودة عند الإطلاق، لم تكن في جميع الحالات أقوى قياساً من لهجة تميم...»[٣٢].

ب- اتجاه يتوسَّط، فيذهب إلى أن لهجة قريش سادت قبل الإسلام لا بعده، ومن هذا الاتجاه طه حسين[٣٣] الذي يقول: «فالمسألة إذاً هي أن نعلم أسادت لغة قريش ولهجتها في البلاد العربية وأخضعت العرب لسلطانها في الشعر والنثر قبل الإسلام أم بعده؟ أما نحن فنتوسّط ونقول إنها سادت قبيل الإسلام حين عَظُم شأن قريش، وحين أخذت مكّة تستحيل إلى وحدة سياسية مستقلّة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلّط على

---

(٢٨) لا نعرف مضمون هذه الظاهرة الصوتية.

(٢٩) هي كسر حروف المضارعة مطلقاً نحو «تلعب، ندرس، يأكل».

(٣٠) ابن جني: الخصائص ج ٢ ص ١١.

(٣١) علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١١٢.

(٣٢) صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة. ص ٦٦ - ٦٧. وإلى هذا الرأي ذهب أيضاً مصطفى صادق الرافعي (انظر كتابه: تاريخ آداب العرب: القاهرة. ١٩١١ ج ١ ص ٨٢ - ٨٤) وشوقي ضيف (انظر كتابه تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي. دار المعارف بمصر. ١٩٦١ ص ١٣٣).

(٣٣) أديب مصري مشهور. فقد بصره منذ طفولته، ومع ذلك، نال أعلى الشهادات الجامعية، وتولّى عمادة كلية الآداب في السنة ١٩٣٥ ووزارة التربية في السنة ١٩٥٠. له «الأيام»، و«حديث الأربعاء»، و«في الشعر الجاهلي» و«على هامش السيرة». (جبور عبد النور: المعجم الأدبي. دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٧٩ ص ٥١٣).

أطراف البلاد العربية... فقد اجتمع لقريش إذاً سلطان سياسي واقتصادي وديني. وأخلق بن يجتمع له هذا السلطان أن يفرض لغته على من حوله من أهل البادية... لغة قريش إذاً هي اللغة العربية الفصحى فُرضت على قبائل الحجاز فرضاً لا يعتمد على السيف، وإنّما يعتمد على المنفعة، وتبادل الحاجات الدينية والسياسية والاقتصادية، وكانت هذه الأسواق التي يشار إليها في كتب الأدب، كما كان الحج، وسيلة من وسائل السيادة للغة قريش »[٣٤].

ج- اتجاه يؤكّد على لسان عبده الراجحي، أن « الآراء التي تذهب إلى أنّ لهجة قريش هي اللغة المشتركة الفصحى، لا تقوم على أساس لغوي علمي صحيح، لأنّنا لا نستطيع أن نحكم على لغة من اللغات من أقوال الرواة عنها، خاصّة وأنّ هذه الأقوال ينبغي أن نأخذها بقدر كبير من الحيطة والحذر، لأنها - كما نحسب - لم تصدر إلا عن تمجيد لقبيلة الرسول ﷺ »[٣٥]. ودليل هذا الاتجاه على ما يذهب إليه، أن خصائص لهجة قريش ليست غالبة على غيرها في اللغة الفصحى، فالحجازيون - ومنهم قريش - « يجنحون إلى تخفيف الهمزة، وغيرهم من قبائل العرب يحقّقها، فالهمز إذاً ليس قرشياً، وتحقيق الهمزة أكثر من تسهيلها في الشعر الجاهلي، وهو السائد في القراءات القرآنية، حتى أنّ ابن كثير وهو قارىء مكّة، كان أكثر القرّاء ميلاً إلى الهمزة »[٣٦].

ومهما يكن من أمر صحّة هذه الاتجاهات، فإنّ نتائج الدراسات اللغوية تميل إلى ما يلي:

---

(٣٤) طه حسين: في الأدب الجاهلي: دار المعارف بمصر، ١٩٥٢ ص ١٣٣ - ١٣٦.

(٣٥) عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية ص ١١٩.

(٣٦) المرجع نفسه ص ١٢٠ - ١٢١.

أ- إنّ شبه الجزيرة كانت بها لهجات متعدّدة مختلفة في الأصوات[٣٧] والمفردات[٣٨] والنحو[٣٩]، وما إليها[٤٠]. وإلى جانب هذه اللهجات الخاصّة بالقبائل، كان هناك لغة مشتركة جامعة، يصطنعها الأدباء في فنّهم القولي، ويستخدمها العرب في أسواقهم ومحافلهم التي كانت تضمُّ أفراداً من قبائل مختلفة.

ب- إنّ الإسلام صادف حين ظهوره، هذه اللغة المصطفاة المشتركة، فجاء قرآنه بها ليكون مفهوماً من القبائل كافة.

ج- إن القرآن الكريم فيه أشياء كثيرة من لهجات القبائل، وبخاصة

---

(٣٧) من مظاهر الاختلاف الصوتي ما ذكرناه سابقاً من فحفحة هذيل، وتسهيل الهمز عند الحجازيين، وكشكشة ربيعة، وعنعنة تميم، وكسكسة هوازن، وتلتلة بهراء... الخ.

(٣٨) من مظاهر هذا الاختلاف تذكر أن كلمة «ذو» كانت بمعنى «الذي» في لغة طيء، و«متى» بمعنى «من» الجارّة في لغة «هذيل»، و«وثب» بمعنى «جلس» في لغة حمير... الخ.

(٣٩) من مظاهر هذا الاختلاف عدم إعمال «ما» في لغة تميم، وإبقاء ألف «هذان» و«هاتان» في حالتي النصب والجر في لغة بني الحارث بن كعب، وإبدال ياء «الذين» واواً في حالة الرفع في لغة هذيل.

(٤٠) يقول ابن فارس (الصاحبي ص ٤٨ - ٥٠): «اختلاف لغات العرب من وجوه: أحدها الاختلاف في الحركات كقولنا: نَستعين ونِستعين بفتح النون وكسرها.. ووجه آخر هو الاختلاف في إبدال الحروف نحو: أولئك وألالك... ومنها قولهم: أنَّ زيداً وعنَّ زيداً. ومن ذلك الاختلاف في الهمز والتليين نحو: مُستهزئون ومُستهزون. ومنه الاختلاف في التقديم والتأخير نحو: صاعقة وصاقعة. ومنها الاختلاف في الحذف والإثبات نحو: استحْيَيْتُ واستحيْتُ، وصَدَدْتُ وأصْدَدْتُ. ومنها الاختلاف في الحرف الصحيح يُبدل حرفاً معتلاً نحو: أمّا زيدٌ وأيْما زيدٌ، ومنها الاختلاف في الإمالة والتفخيم، في مثل قضى ورمى، فبعضهم يُفخِّم وبعضٌ يُميل... ومنها الاختلاف في التذكير والتأنيث، فإنّ من العرب من يقول: هذه البقر، ومنهم من يقول: هذا البقر، وهذه النخيل وهذا النخيل. ومنها الاختلاف في الإدغام، نحو مهتدون ومُهَدّون. ومنها الاختلاف في الإعراب، نحو: ما زيد قائماً، وما زيد قائم، وإنَّ هذين، وإنّ هذان... ومنها الاختلاف في صورة الجمع، نحو: أسرى وأسارى. ومنها الاختلاف في التحقيق والاختلاس، نحو: يَأمُرُكُم ويأمُرْكُم، وعُفِيَ وعُفْيَ له. ومنها الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث مثل: هذه أُمَّهْ وهذه أُمَّتْ. ومنها الاختلاف في الزّيادة نحو: أنظُر وأنظور... »

قبائل هذيل وتميم وحمير وجرهم ومذحج وخثعم وقيس عيلان وبلحارث بن كعب وكِندة ولخم وجُذام والأوس والخزرج وطيء، حتى ذهب بعضهم إلى أنّ فيه خمسين لغة[٤١].

د- إنّ لهجة قريش هي الغالبة في القرآن الكريم[٤٢]، بدليل إجماع اللغويين على ذلك، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت[٤٣] في شيء من القرآن، فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم[٤٤].

---

(٤١) انظر طاهر بن العلامة الجزائري: التقريب لأصول التعريب. المكتبة السلفية بمصر. لا. ت. ص ١٠٦ - ١٠٨.

(٤٢) لذلك كثر فك المجزوم فيه نحو قوله تعالى: «وَلْيُمْلِل يحببكم الله» وقوله «يُمددكم» وقوله: «واشْدُدْ» وقوله: «ومن يحلل عليه غضبي»، كما أجمع القراء على إعمال «ما» - على لغة الحجازيين - في قوله تعالى: «ما هذا بشراً»، وعلى التزام النصب في الاستثناء المنقطع الوارد في قوله تعالى: «إلا اتباع الظن».... الخ.

(٤٣) هو أحد أكابر الصحابة. كان كاتب الوحي وأحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ. ولد في المدينة في السنة ٦١١. هاجر مع النبي وهو ابن ١١ سنة. تعلم وتفقه في الدين، فكان رأساً بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض. توفي في السنة ٦٦٥. (الزركلي: الأعلام. ج ٣ ص ٥٧).

(٤٤) طاهر الجزائري: التقريب لأصول التعريب ص ١٠٤.

الفصل السابع

الإعراب

« ... فأمّا الإعراب فبهِ تُميَّز المعاني ويُوقَفُ على أغراض المتكلِّمين. وذلك أنَّ قائلاً لو قال: « ما أحسنْ زيدْ » غير معرِب، أو « ضرب عمرْ زيدْ » غيرَ معرِب، لم يُوقَف على مرادِه. فإذا قال: « ما أحسنَ زيداً »، أو « ما أحسنُ زيدٍ؟ »، أو « ما أحسنَ زيدٌ »، أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده. »

ابن فارس

١ - تعريفه

الإعراب في اللغة مصدر « أعْربت »، وأعربت عن الشيء إذا أبنته، أو أفصحت أو أوضحت عنه، « وفلان معرِب عمّا في نفسه أي مبين له، وموضح عنه... وأصل هذا كله قولهم « العرب » وذلك لما يُعزى إليها من الفصاحة، والإعراب، والبيان. ومنه قوله في الحديث: « الثيِّب تُعرِب عن نفسها »[1].

أمّا في الاصطلاح، فقد أُعْطي الإعراب تعريفاتٍ عدَّة منها « الإبانة

---

(١) ابن جني: الخصائص ج ١ ص ٣٦.

عن المعاني بالألفاظ »[٢] و « أثر يجلبه العامل »[٣]، و « تغيُّر العلامة التي في آخر اللفظ بسبب تغيّر العوامل الداخلة عليه، وما يقتضيه كل عامل »[٤]. والإعراب بنظرنا « تغيير أواخر الكلمات بتغيير وظائفها النحوية ضمن الجملة ». ويقابله « البناء » وهو « لزوم آخر اللفظ علامة واحدة - في كل أحواله - لا تتغيّر مها تغيَّرت العوامل »[٥].

واللفظ المعرب هو الذي يدخله الإعراب[٦]، أما المبني فهو الذي دخله البناء.

٢ - نشأته

يذهب بعض الباحثين إلى أن الإعراب قصّة مختلَقة[٨] « استمدّت

(٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٥. وهذا التعريف يعتمد على « وظيفة » الإعراب، وقد كان ابن جني يؤمن بأن للإعراب قيمة دلالية (انظر المصدر نفسه.. الصفحة نفسها) وسنعرض لهذا الموضوع في النقطة الثالثة من هذا الفصل.

(٣) ابراهيم مصطفى: إحياء النحو. ص ٢٢. وهذا التعريف يعتمد على الشكل، وانظر ما قلناه على نظرية العامل في الفصل الرابع.

(٤) عباس حسن: النحو الوافي: ج ١ ص ٧٤.

(٥) المرجع نفسه ج ١ ص ٧٥.

(٦) نحو قولك « الرجل » في مثل: « جاء الرجُلُ » و « شاهدتُ الرَّجلَ » و « مررتُ بالرجلِ ».

(٧) نحو كلمة « الذي » في مثل: « جاء الذيْ نجح » و « شاهدتُ الذيْ نجحَ » و « مررتُ بالذيْ نَجَحَ ». والمبني من الكلمات هو الحروف جميعاً، والضمائر، وأسماء الشرط والاستفهام غير المضافة إلى مفرد، وأسماء الإشارة والموصول غير المثنّاة، وأسماء الأفعال، والأسماء المركّبة، واسم « لا » النافية للجنس، وبعض الظروف، وما كان على وزن « فعالِ » نحو « حذام »، والعلم المنتهي بـ « ويه »، والفعل الماضي والأمر، والفعل المضارع الذي اتّصلت به نون التوكيد أو نون النسوة... إلخ.

(٨) وقد ذهب بعضهم إلى أنّ النحو نفسه غامض في نشوئه كل الغموض، وحجّته أنّ قصّة وضعه تشبه قصّة وضع النحو الهندي، وأن الروايات العربية التي تؤرّخ هذا الوضع تختلف في =

خيوطها من ظواهر لغوية متناثرة بين قبائل الجزيرة العربية، ثم حيكت وتمَّ نسجها حياكة محكمة في أواخر القرن الأول الهجري أو أوائل الثاني، على يد قوم من صنّاع الكلام نشأوا وعاشوا معظم حياتهم في البيئة العراقية»[9]، وادّعى بعض المستشرقين أن القرآن الكريم نزل أول الأمر بلهجة مكّة المجرَّدة من ظاهرة الإعراب[10]. كما ذهب بعض الباحثين إلى أنَّ الإعراب لم يكن يُراعى إلاّ في لغة الآداب مستدلاًّ بما يلي[11]:

١ - إن جميع اللهجات الحاليّة خالية من الإعراب.

٢ - إن الإعراب يتطلب الانتباه الزائد، فلا يتناسب واللهجات العاميَّة التي تتوخّى السهولة واليسر.

٣ - إن الإعراب بنظامه الدقيق، لا يتوافق وبدائيَّة العرب في جاهليتهم.

ولقد رُدَّ على هؤلاء بما يلي[12]:

١ - إنَّ بعض اللهجات العربية الحاضرة، ما زالت تحتفظ ببعض مظاهر الإعراب وخاصّة الإعراب بالحروف.

٢ - إن التطوّر اللغوي هو الذي أسقط الإعراب، فخلو اللهجات الحاليّة منه لا ينفي بالضرورة وجوده قديماً.

= تحديد من وضع النحو، ومن سمّاه بهذه التسمية، وبإشارة من فعل ذلك، وما هو السبب الذي حمله على وضعه (انظر أحمد أمين: ضحى الإسلام. ط ١٠. دار الكتاب العربي. بيروت. لا ت. ج ٢ ص ٢٨٥).

(٩) ابراهيم أنيس: من أسرار اللغة. ص ١٩٨.

(١٠) هذا الرأي للمستشرق الالماني كارل فولرز K. Vollers (انظر صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة ص ١٢٢. ومازن المبارك: نحو وعي لغوي مكتبة الفارابي. دمشق. ١٩٧٠ ص ١٠٣).

(١١) عن عامر السامرائي: آراء في العربية. مكتبة النهضة. بغداد. ١٩٦٢ ص ٦٧.

(١٢) المرجع نفسه ص ٦٨ - ٧١. ومازن المبارك: نحو وعي لغوي ص ١٠٤ - ١٠٥.

٣- إن دقّة القواعد وتشعّبها، لا تستلزم بالضرورة كونها مخترَعة، فاليونانية واللاتينية في العصور القديمة، والألمانية في العصر الحاضر، تشتمل على قواعد لا تقلّ في دقّتها وتشعّبها عن قواعد اللغة العربية.

٤- ليس في الروايات العربية أيّ إشارة إلى أن النحويين تواطأوا على وضع القواعد.

٥- إنّ الشعر العربي بأوزانه الموسيقية يعتمد على الإعراب، وبدون الإعراب تختلّ كل الأوزان الشعريّة.

٦- إن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وصلا إلينا معربي الكلمات.

٧- إن الروايات الكثيرة عن اللّحن واللاحنين[١٣]، لا يمكن أن تكون مختلَقَة وهي بهذه الكثرة.

---

(١٣) من هذه الروايات أن عمر بن الخطاب مرَّ على قوم يُسيئون الرمي فقرعهم فقالوا: «إنا قوم متعلّمين»، فأعرض مغضباً وقال: «والله لخطؤكم في لسانكم أشد عليّ من خطئكم في رميكم». وأنه ورد إلى عمر كتاب أوله: «من أبو موسى الأشعري»، فكتب عمر لأبي موسى بضرب الكاتب سوطاً. ومنها أيضاً أن إعرابياً في خلافة عمر قال: من يُقرئني شيئاً مما أنزل على محمد؟ فأقرأه رجل سورة براءة بهذا اللحن: «إن الله بريء من المشركين ورسولِه» فقال الأعرابي: «إن يكن الله بريء من رسوله فأنا أبرأ منه». فبلغ عمر مقالة الأعرابي، فدعاه فقال: يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة... وقص القصة. فقال عمر: «ليس هكذا يا أعرابي» فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: «إن الله بريء من المشركين ورسولُه» فقال الأعرابي: «وأنا أبرأ ممن برىء الله ورسوله منهم». ومنها أن أعرابياً دخل السوق فسمعهم يلحنون فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح. ومنها أيضاً أن رجلاً دخل على زياد بن أبيه فقال له: «إن أبينا هلك وإن أخينا غصبنا على ميراثنا من أبانا» فقال له زياد: «ما ضيعت من نفسك أكثرُ مما ضاع من مالك» (انظر هذه الروايات وغيرها في كتاب سعيد الأفغاني: من تاريخ النحو. ط ٢. دار الفكر بيروت ١٩٧٨ ص ٨ - ١٤).

٨ - إنَّ العرب ما كانوا يفهمون اللّغة إلّا معربة، وفي «البيان والتبيين» للجاحظ[١٤] قصص كثيرة تدل على ذلك[١٥].

٩ - إن القول إنّ القرآن نزل بلهجة مكّة المجرَّدة من ظاهرة الإعراب، يفترض أوّلاً أن لهجة مكّة كانت خالية من الإعراب، ولم يقم على ذلك أي دليل، ويفترض ثانياً أن العلماء أعربوا القرآن ثم اعتمدوا على هذا الإعراب في وضع قواعدهم - لأن القرآن هو أوثق النصوص التي يُحتَجُّ بها على صحّة قاعدة من قواعد الإعراب - وهذا مخالف لأبسط قواعد المنطق، إذ كيف يُعربونه بحسب قواعدهم الموضوعة ثم يعودون ليحتجوا به على صحّة تلك القواعد؟

١٠ - إذا كان القرآن نزل دون إعراب، فأين يكون وجه التحدّي، عندما تحدَّى الله المشركين في أن يأتوا بسورة من مثله[١٦]؟ وهل يقوم التحدّي إلا إذا كانت لغة التنزيل هي نفسها لغة الناس الذين يتحدّاهم بكل ما فيها من ألفاظ وتراكيب وحركات..؟

وعليه نعتقد أن الإعراب كان معتمداً، سواء في لغة الآداب، أم في

---

(١٤) هو عمرو بن بحر (٧٨٠ - ٨٩٦م) كبير أئمة الأدب ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. ولد وتوفّي في البصرة. له تصانيف كثيرة منها: «الحيوان»، و«البيان والتبيين» و«البخلاء» (الزركلي: الأعلام ج ٥ ص ٧٤).

(١٥) ومنها «أن رجلاً من البلديين قال لأعرابي: كيف أهلِك؟ قالها بكسر اللام. قال الأعرابي: صلباً. لأنه أجابه على فهمه ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله». «وحكى الكسّائي أنه قال لغلام بالبادية: من خلقْكَ؟ وجزم القاف، فلم يَدْرِ ما قال، ولم يُجبه، فردَّ عليه السؤال. فقال الغلام: لعلّك تريد من خلقَك؟». «وقيل لعمر بن لجأ: قلْ إنّا من المجرمين منتقمين. قال: إنا من المجرمين منتقمون». (الجاحظ: البيان والتبيين. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة ١٩٤٧. ج ١ ص ١٦٣ - ١٦٤).

(١٦) وهذا التحدّي ظاهر في قوله تعالى: «وإنْ كنتُم في رَيْبٍ مّما نزّلنا على عبدِنا، فأتوا بسورةٍ من مثلِه وادْعوا شهداءكم من دونِ الله إن كنتم صادقين» (البقرة: ٢٣).

بعض لغات التخاطب، وربّما بدأت ثنائية العاميّة والفصحى التي نعرفها حالياً، في العصر العبّاسي، حيث أصبح للنّاس لغتان: لغة عاميّة، كان الجاحظ يسمّيها لغة المولّدين والبلديين[١٧]، وهي لغة تميل إلى إسكان أواخر الكلمات، ولغة الطبقة الراقية وهي لغة راقية معرّبة.

٣ - فائدته ودلالته

هل الحركات التي تتعاقب على أواخر الكلمات هي إشارات إلى المعاني المختلفة؟ أم أنّه يُؤتى بها لوصل الكلمات، فليس لها والحالة هذه، أيّ أثر في تصوير المعاني؟ أم هي أجزاء من الكلمات نفسها؟ أسئلة شغلت الباحثين قديماً وحديثاً، فانقسموا حولها قسمين رئيسين: قسم يذهب إلى أن ليس للإعراب أيّ قيمة دلاليّة جوهرية، بل هو مجرّد زخرف لغوي، له صلة وثيقة بالموسيقى والغناء والشعر، وقسم يؤكّد أن هذه الحركات إشارات إلى المعاني المختلفة، وأنّه «ما كان للعرب أن يلتزموا هذه الحركات ويحرصوا عليها ذلك الحرص كلّه، وهي لا تعمل في تصوير المعنى شيئاً»[١٨].

من الفريق الأوّل نذكر الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي جاء على لسانه، قوله «إن الفتحة والكسرة والضمّة زوائد، وهنّ يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلّم به»[١٩]. ومحمّد بن المستنير[٢٠] المعروف بقطرب الذي قال: «أعربت العرب كلامها، لأنّ الاسم، في حال الوقف، يلزمه السكون

---

(١٧) الجاحظ: البيان والتبيين ج ١ ص ١٥٩.

(١٨) ابراهيم مصطفى: إحياء النحو. ص ٤٨.

(١٩) سيبويه: الكتاب. المطبعة الأميرية الكبرى. بولاق. ١٣١٦ هـ ج ٢ ص ٣١٥.

(٢٠) محمّد بن المستنير (؟ - ٨٢١) لغوي نحوي مفسّر. ولد في البصرة وتوفي فيها. أخذ النحو عن سيبويه. له «كتاب معاني القرآن»، و«كتاب غريب الحديث»، و«كتاب الأضداد» (الزركلي: الأعلام ج ٧ ص ٩٥).

للوقف، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضاً لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل، وكانوا يبطئون عند الإدراج، فلمّا وصلوا وأمكنهم التحريك، جعلوا التحريك معاقباً للإسكان، ليعتدل الكلام. ألا تراهم بنوا كلامهم على متحرِّك وساكن، ومتحرِّكين وساكن، ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة ولا في حشو بيت... »[21]. أمّا الباحثون المحدثون الذين أيّدوا مذهب قطرب[22] فكثيرون[23].

وتتلخّص آراء هذا الفريق بما يلي[24]:

١ - إنَّ هناك كلمات لها الوظيفة اللغويّة نفسها، ومع ذلك تختلف حركاتها الأخيرة، فكلمة «رجل» مثلاً في الجمل التالية: «الرجلُ في البيتِ»، «وإنَّ الرجل في البيت»، و«للرجل أخ في الجامعة»، تختلف حركاتها مع أنها مسند إليه فيها جميعاً.

٢ - إنَّ هناك كلمات تتّفق حركاتها مع اختلاف وظائفها النحويّة، فالحال والتمييز والمفعولات الخمسة، كلّها منصوبة.

٣ - إنَّ هناك صيغاً كثيرة تختلف في المعنى، وإعرابها واحد، كما في قولك: «إنّ زيداً أخوك»، و«لعلّ زيداً أخوك»، و«كأنَّ زيداً

(٢١) الزجّاجي: الإيضاح في علل النحو. ص ٧٠ - ٧١.

(٢٢) يُنسَبُ رأي هذا الفريق إلى قطرب، لأن هذا النحوي هو أوّل من دافع عن هذا الرأي بالأدلّة والبراهين (انظر المصدر نفسه ص ٦٩ وما بعدها).

(٢٣) منهم أنيس فريحة وابراهيم أنيس وفؤاد ترزي وداود عبده وغيرهم. انظر على التوالي:
- أنيس فريحة: تبسيط قواعد اللغة العربية ص ٥١.
- ابراهيم أنيس: من أسرار اللغة ص ١٩٨.
- فؤاد ترزي: في أصول اللغة والنحو. مكتبة لبنان. بيروت ١٩٦٩. ص ١٨٧.
- داود عبده: أبحاث في اللغة العربية. مكتبة لبنان. بيروت. ١٩٧٣ ص ١١١ وما بعدها.

(٢٤) داود عبده: أبحاث في اللغة ص ١١٣ - ١٢٣.
وابراهيم أنيس: من أسرار اللغة ص ٢٢٠ - ٢٤٢.

أخوك ». فحركة «زيد» في هذه الأساليب جميعاً واحدة، مع أنَّ الأسلوب الأوّل تأكيد، والثاني ترجٍّ، والثالث تشبيه. كذلك تقول: «هلْ زيدٌ قائمٌ؟» و«نَعَم زيدٌ قائمٌ»، باتفاق إعراب «زيد»، مع أنَّ الأوَّل إنشاء، والثاني خبر. كذلك تقول: «يحضرُ محمد» و«سيحضر محمد» و«لا يحضرُ محمّد»، باتّفاق إعراب الفعل المضارع مع أن الأسلوبين الأوَّلين يفيدان التأكيد، والثالث النفي. والأمثلة كثيرة في هذا المجال، فلو كان الإعراب قد دخل الكلام للتمييز بين المعاني، لكان اختلف باختلافها.

٤ - إن هناك صيغاً كثيرة، يختلف إعرابها ومعناها واحد. تقول: «ليس زيد بجبانٍ ولا بخيلٍ - أو ولا بخيلاً»، و«ما زيد قائماً أو قائمٌ»، و«عندي رطل عسلٍ - أو عسلٌ أو عسلاً»... إلخ، باختلاف إعراب «بخيل»، و«قائم»، و«عسل»، والمعنى واحد. والأمثلة التي تختلف في الإعراب دون المعنى كثيرة وصعبة الإحصاء، حتى أنَّ جملة مثل «لا حول ولا قوّة إلا بالله»، تُقرأ على خمسة أوجه[٢٥] دون أيّ اختلاف في المعنى. فلو كان الإعراب يميِّز بين المعاني، لكان أيّ اختلاف في الإعراب، يستتبع اختلافاً في المعنى.

٥ - لو كانت حركات أواخر الكلمات دوال على معان مختلفة، لما جاز اختلافها في القراءات القرآنية، ولما جاز كذلك أن يُوقَف على الكلمات بحذف الحركة الأخيرة، أي بالسكون، كما هو معروف في ظاهرة الوقف في العربية، لأن هذا يعني جواز حذف ما يدل على معنى الكلمة أو وظيفتها في الجملة.

---

(٢٥) هي: ١ - لا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله. ٢ - لا حولٌ ولا قوةٌ إلا بالله. ٣ - لا حولَ ولا قوةٌ إلا بالله. ٤ - لا حولٌ ولا قوَّةَ إلا بالله. ٥ - لا حولَ ولا قوةً إلا بالله.

٦- إنَّ من لم يتّصل بالنحو أيَّ اتصال، يفهم تمام الفهم، إذا نحن قرأنا له خبراً في إحدى الصُّحف، وتعمَّدنا الخلط في إعراب الكلمات.

٧- إنَّ ما يدل على أن الإعراب له صلة بالموسيقى والغناء والشعر، أنَّ الزجّال اللبناني الذي لا يعرف الإعراب، يلجأ كثيراً إلى إقحام حركة على آخر حرف من الكلمة لسهولة اللفظ ولجمال الموسيقى[٢٦].

٨- لو كان الإعراب ضرورياً للفهم والتفاهم لأبقت الحياة عليه[٢٧].

وإن كان الإعراب لا يُعين على التمييز بين المعاني المختلفة، فما الذي يحدِّد المعنى؟ يجيب أنصار هذا الرأي أن مرجع المعنى أمران: أوّلهما ما يحيط بالكلام من ظروف وملابسات، تقوم على معرفة الصِّلة بين المتكلِّم والسامع، ومعرفة السياق والظروف التي مهَّدت للكلام. وثانيهما نظام الجملة العربية والموضع الخاص لكل معنى من المعاني اللغوية. فأنتَ إذا قلت: «ظننت زيداً أخاك»، يكون شكك في الأخوَّة، وإذا قلتَ: «ظننتُ أخاك زيداً» أوقعت الشك في التسمية[٢٨]. و«الفاعل في أغلب الكلام العربي يلي الفعل ويسبق المفعول، ولا يتأخَّر الفاعل إلاّ في أحوال:

---

(٢٦) أنيس فريحة: تبسيط قواعد اللغة العربية ص ٥٠ - ٥١.

(٢٧) أنيس فريحة: نحو عربية ميسَّرة. ص ١٨٤.

(٢٨) وإذا قلتَ: «أزيد ضحك» تكون تعرف أن الضحك قد حدث، وتسأل إن كان زيد هو الضاحك. أما إذا قلت: «أضحك زيد» تكون تعرف أن زيداً قد فعل فعلاً ما، وتسأل إن كان هذا الفعل هو الضحك. وقد يعجز السياق والإعراب عن تحديد المعاني فقولك: «أحب ليلى أكثر من كامل» قد يعني أن محبتك لليلى أكثر من محبتك لكامل، كما قد يعني أن محبتك لليلى أكثر من محبة كامل لها. وقولك. «أمرَ رجال الأمن بوقف التدخين بعد منتصف الليل» قد يعني: ١ - أن رجال الأمن لا يستطيعون التدخين إلا قبل منتصف الليل. ٢ - أن على رجال الأمن أن يمنعوا عن التدخين في جميع الأوقات، وقد جاء الأمر بذلك بعد منتصف الليل. ٣ - يسمح للناس بالتدخين حتى منتصف الليل وعلى رجال الأمن أن يوقفوهم بعد ذلك. ٤ - على رجال الأمن أن يمنعوا الناس من التدخين في جميع الأوقات وقد جاء الأمر بهذا بعد منتصف الليل (عن داود عبده: أبحاث في اللغة العربية ص ١٢٢ - ١٢٣).

١ - منها أسلوب الحصر أو القصر نحو: «وما يعلم تأويلَه إلا الله»[٢٩].

٢ - ومنها طول الكلام مع الفاعل وتوابعه، مما قد يغمر المفعول به، ولا نكاد نتبيَّنه حين يتأخّر مثل قوله تعالى: «وإذا حضرَ القسمةَ أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه»[٣٠]....

٣ - وحين يشتمل الفاعل على ضمير يعود على المفعول مثل: «هذا يوم ينفع الصّادقين صدقهم...»[٣١].

أمّا الفريق الثاني، الذي قال بالتفسير الدّلالي للحركات، فمنه أبو القاسم الزجّاجي[٣٢] الذي ذكر آراء قطرب في هذا الصّدد وردَّ عليها في كتابه «الإيضاح في علل النحو»[٣٣]، وابن فارس القائل: «من العلوم الجليلة التي خصّت بها العرب، الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يُعرف الخبر الذي هو أصل الكلام. ولولاه ما مُيِّز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام»[٣٤]، وابن جني القائل: «الإعراب هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ»[٣٥]، وابراهيم مصطفى[٣٦] الذي أفرد كتابه «إحياء النحو» للدلالة على أن كل حركة

---

(٢٩) آل عمران: ٧.

(٣٠) النساء: ٨.

(٣١) إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٣٢) عبد الرحمن بن اسحق (؟ - ٩٤٩م). إمام في اللغة والنحو. ولد في نهاوند وتوفي في طبريا. له «الجمل في النحو»، و«الإيضاح في علل النحو»، و«الإبدال والمعاقبة والنظائر» (الزركلي: الأعلام. ج ٣ ص ٢٩٩).

(٣٣) ص ٦٩ وما بعدها.

(٣٤) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ص ٤٢.

(٣٥) ابن جني: الخصائص. ج ١ ص ٣٥.

(٣٦) لغوي مصري (١٨٨٨ - ١٩٦٢) وأحد أعضاء مجمع اللغة العربية في القاهرة، وصاحب مدرسة في النحو. له «إحياء النحو»، و«إعراب القرآن للزجاجي»، و«تحرير النحو العربي».

إعرابية علم على معنى[٣٧]، وكثيرون غيرهم[٣٨].

وقد ردَّ هذا الفريق على آراء الفريق الأوَّل بما يلي:

١ - لو كانت الحركات قد دخلت الكلام للتخفيف عن اللسان، بحيث تعقب الحركة سكوناً، لماذا لم يلتزم العرب حركة واحدة؟ فإن قيل: «لو فعلوا ذلك لضيّقوا على أنفسهم، فأرادوا الاتّساع في الحركات، وألّا يحظروا على المتكلّم الكلام بحركة واحدة»، كما قال قطرب[٣٩]، يُردُّ عليه، بأنه لو كانت الخيرة للمتكلّم في التحريك، لكان «جائزاً جرّ الفاعل مرّة، ورفعه أُخرى ونصبه، وجاز نصب المضاف إليه، لأنَّ القصد في هذا، إنّما هو الحركة تعاقب سكوناً يعتدل بها الكلام، فأيّ حركة أتى بها المتكلّم أجزأته. وفي هذا فساد للكلام وخروج به عن أوضاع العرب وحكمة نظمهم في كلامهم»[٤٠].

٢ - إنَّ العودة إلى ملابسات القول وظروفه، ومعرفة الصِّلة بين القائل

---

(٣٧) وقد ناقشنا آراءه في رسالتنا الجامعية: «آراء ابراهيم مصطفى في تبسيط النحو العربي من خلال كتابه إحياء النحو». رسالة لنيل شهادة الماجستير. الجامعة اللبنانية. كلية الآداب. الفرع الثاني. ١٩٧٨.

(٣٨) منهم الزمخشري والرّضي وناصف علي النجدي ومازن المبارك. انظر على التوالي:
- ابن يعيش: شرح المفصّل. إدارة الطباعة المنيرية. القاهرة لا. ت ج ١ ص ٧٢.
- الرّضي: شرح الكافية. ط ٢ دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٧٩. ج ١ ص ١٩.
- ناصف علي النجدي: من قضايا اللغة والنحو. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة. ١٩٥٧. ص ١٠ - ٢٧.
- مازن المبارك: نحو وعي لغوي. ص ٧٣ وما بعدها.

(٣٩) عن الزجّاجي: الإيضاح في علل النحو. ص ٧.

(٤٠) العكبري: المسائل الخلافية. مخطوط ١٠٢ ب دار الكتب المصرية ٢٨ نحو ش. وقد أخذناه عن علي أبي المكارم: الظواهر اللغوية في التراث النحوي. المكتبة الحديثة للطباعة. القاهرة ١٩٦٨، ص ١٠٥.

والسّامع بغية معرفة المعنى، فيها تصنُّف كثير، إذ قد يضطرنا بيت واحد من الشعر، للعودة إلى أكثر من كتاب لمعرفة الظروف والملابسات التي أحاطت بقول الشاعر. أما الإعراب فيُعفينا من هذا كلّه.

٣- إنّ القول بأنّ الذي يحدّد المعاني هو نظام الجملة والموضع الخاصّ لكل معنى من المعاني اللغوية، فيه كثير من المبالغة، إذ ليس في اللغة العربية «حُجُرات» تسكن في كل منها حالة من حالات النحو، فيكون للفاعل موضع، وللفعل موضع آخر، وللمفعول موضع ثالث وهكذا، كما يذهب أصحاب الرأي الأوّل(٤١)، فالموضع الواحد في الجملة العربيّة قد يحتلّه الفاعل مرّة، والفعل مرّة أخرى، والمفعول مرّة ثالثة(٤٢). فأنت تقول: «أكلَ الولدُ التّفاحةَ» و«أكلَ التفاحةَ الولدُ» و«التفاحةَ أكلَ الولدُ» و«التفاحةَ الولدُ أكلَ» و«الولدُ أكلَ التفاحة» و«الولدُ التفاحةَ أكلَ»(٤٣).

٤- إنّ هنالك صيغاً كثيرة تختلف معانيها باختلاف حركاتها. فالآية الكريمة «إن الله بريء من المشركين ورسولُه»(٤٤)، إن قرئتْ بجرّ «رسوله» تؤدّي إلى الكفر، وإن قُرئت برفع «رسوله» أو نصبه،

---

(٤١) انظر ابراهيم أنيس: من أسرار اللغة. ص ٢١٢.

(٤٢) وقد اعترف أنيس فريحة، وهو من القائلين بأن الإعراب زخرف لغوي لا أثر له في تصوير المعنى، بهذه الحقيقة فقال: «إن الشعر يتطلّب بطبيعة الوزن والقافية تقديماً وتأخيراً في المفردات، فقد يأتي المفعول به أولاً والفاعل آخر، ففي مثل هذه الحالة، يجب أن تقوم دلالة على وظيفة الكلمة في التركيب، فتنشأ علامات الإعراب» (أنيس فريحة: تبسيط قواعد اللغة العربية ص ١٦).

(٤٣) وهذه المرونة في تركيب الجملة العربية لا نجدها في معظم اللغات الأجنبية وبخاصة الفرنسية والإنكليزية.

(٤٤) التوبة: ٣.

تؤدّي إلى المعنى المستقيم. والآيات القرآنية التي تختلف معانيها باختلاف حركاتها كثيرة جداً[٤٥]. وقولك: «اشتريت ثلاثة صناديق كتباً» يختلف عن قولك: «اشتريتُ ثلاثة صناديق كتبٍ» إذ المعنى في الأوّل أنّ الصناديق ملأى بالكتب، والمعنى في الثاني، أن الصّناديق مهيَّأة للكتب. وقولك: «كيف محمدٌ وزيدٌ؟» يختلف عن قولك: «كيف محمد وزيداً؟» إذ في الأوّل تسأل عن محمد وعن زيد، أمّا في الثانية فإنّك تسأل عن صلة أحدهما بالآخر؟ وقولك: «أنا دارسُ الدرسَ» يعني أنك درسته، أمّا قولك: «أنا دارسٌ الدرسَ» يعني أنك ستدرسه في المستقبل. وقولك: «كم كتاباً قرأتَ؟» يختلف عن قولك: «كم كتابٍ قرأتَ!» إذ الأوّل استفهام والثاني إخبار. وقولك: «لا تأكلْ سمكاً وتشربْ لبناً» بجزم «تشرب» يعني النهي عن كل منهما، فإذا نصبت «تشرب»، يكون النهي عن الجمع بينهما، أي لا يكون منك أكل سمك مع شرب لبن، أما إذا رفعت «تشرب» فيكون النهي منصب على أكل السمك، مع إباحة شرب اللبن. وتقول «لا رجلَ في الدار» فتنفي وجود جنس الرجال في الدار. لكنك إن قلت «لا رجلٌ في الدار»، تكون قد نفيت وجود رجل واحد فيها، ويكون المعنى، إما عدم وجود أي رجل، وإما وجود أكثر من رجل. وتقول: «كافأْنا الفتى»، بتسكين الهمزة في «كافأنا»، فيكون المعنى أنك أنت المكافِىء وهو المكافَأ. أما إذا قلتَ «كافأَنا الفتى»، بفتح الهمزة في «كافأنا» ينتقل المعنى إلى ضدّه. كذلك «ألا ترى أنك إذا سمعت «أكرم سعيد أباه»، و«شكر سعيداً أبوه»، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول، ولو كان الكلام شرْجاً[٤٦]

---

(٤٥) انظر بعض هذه الآيات في كتاب ناصف علي النجدي: من قضايا اللغة والنحو. ص ١١ - ٢٧.

(٤٦) شرجاً: نوعاً.

واحداً لاستبهم أحدهما من صاحبه »[٤٧]. والأمثلة التي تتغيّر معانيها بتغيّر إعرابها كثيرة جداً، ولعلّ خير مثال عليها أنك تنتقل من الاستفهام إلى التعجّب، إلى النفي في مثل « ما أحسن الرجل » بوساطة تغيير الحركات، فتقول: « ما أحسنُ الرجلِ؟ » و « ما أحسنَ الرجلَ! »، و « ما أحسنَ الرجلُ »[٤٨].

وهكذا نرى، أنّ الإعراب ضروري للتمييز بين المعاني المختلفة، ليس في الأحاجي والتعجيزات وحسب، كما ذهب أنيس فريحة[٤٩]. وإنما في مواطن كثيرة، وخاصّة في الشعر والنثر الفني، حيث يعمد الأديب إلى تقديم المفعول على الفاعل، وقد كثرت أمثلة هذا النوع من التقديم في القرآن الكريم[٥٠].

لكن إن كان الإعراب ضرورياً للتمييز بين المعاني في مواطن معيّنة، فهل تشير علاماته إلى المعاني المختلفة، بحيث أنّ كل تغيير في الحركة يؤدّي بالضرورة إلى تغيير في المعنى؟ الحقيقة أنه لو كان أيّ اختلاف في التحريك يؤدّي إلى اختلاف في المعنى، لما رأينا أمثلة كثيرة تتغيّر حركاتها

---

(٤٧) ابن جني: الخصائص. ج ١ ص ٣٥.

(٤٨) يذهب داود عبده إلى أنّ ما يميّز بين التعجب والاستفهام والنفي في مثل هذه الصيغة، ليس الحركة الإعرابية، بل التنغيم intonation إذ أن الاستفهام يُلفظ بطريقة مختلفة عن الإخبار والتعجب. (انظر كتابه: أبحاث في اللغة العربية. ص ١١٤ هامش الرقم ٦). لكن التنغيم في القراءة، لا يأتي إلا بعد فهم المعنى، وهذا لا يُفهم بدوره إلا بفعل الإعراب، أو بفعل علامة التعجب أو الاستفهام اللتين تلحقان هذه الصيغة. فكل من التنغيم والحركة الإعرابية وعلامة الاستفهام أو التعجب، كافٍ للتمييز بين المعاني المختلفة في هذه الصيغة، وليس التنغيم وحده.

(٤٩) أنيس فريحة: تبسيط قواعد اللغة العربية على أسس جديدة. ص ٥٥.

(٥٠) ومنها قوله تعالى: « فأوجس في نفسه خيفة موسى » (طه: ٦٧) وقوله: « وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه » (البقرة: ١٢٤). وللمزيد من الشواهد، انظر ابراهيم أنيس: من أسرار اللغة. ص ٢٤٣ - ٢٤٦.

دون أن تتغيّر معانيها، وأمثلة أخرى كثيرة أيضاً، تتّفق في الحركات وتختلف في المعاني. وأكثر المتحمّسين للرأي القائل بدلالة حركات الإعراب، يعترفون «أن بعض حركات الإعراب جاءت في بعض المواضع ذات دلالة نحويّة، ثمّ قيس عليها حبًّا من النحاة لطرد القاعدة والقياس»(٥١). والواقع أنّ عدم تأثير المعنى باختلاف الحركات، هو الغالب في العربية، لا العكس. وعليه نتساءل: لماذا دخلت الحركات الكلام؟

إن إجابتنا عن هذا السؤال تتضمنها الملاحظات التالية:

١ - إن بعض الحركات يأتي لتمييز المعاني المختلفة كالأمثلة التي قدّمناها سابقاً.

٢ - إن الحركة الأخيرة في الكلمة قد تكون جزءاً من الكلمة نفسها، كحركة آخر «سوفَ» و«ربَّ» و«منذُ» و«وَ»، وجمع المذكر السالم، والمثنّى.

٣ - هناك حركات تأتي للوصل وللتخفيف على الناطق، كالكسرة في «ذهبتِ الفتاةُ» و«هلِ انسحبَ» و«كتابِهِ» و«بِهِ»، وكالضّمة في «كتابهُ». وأغلب الظن أن حركة النعت السببي(٥٢)، وباب ما سمّاه النحاة بالإعراب بالمجاورة(٥٣)، يدخل في هذا القبيل.

٤ - هناك حركات تأتي للتمييز بين المذكّر والمؤنّث، كحركة التاء في «شربتَ» و«شربتِ»، أو بين المتكلّم والمخاطب كما في «شربتُ» و«شربتَ»، أو بين المذكّر الغائب المفرد، والمذكر الغائب المثنّى، والمذكر الغائب الجمع، كما في «شربَ»، «شربا»، «وشربوا».

---

(٥١) مازن المبارك: نحو وعي لغوي ص ٩٤.

(٥٢) نحو قولك: «رأيتُ ولداً جميلةً أمُّه».

(٥٣) نحو قول العرب: «هذا جحرُ ضبٍّ خربٍ».

٥ - قد يأتي اختلاف الحركات من اختلاف اللهجات، فهناك ثلاث لغات في إعراب الأسماء الستّة[٥٤]، وكانت قبيلة بلحارث بن كعب تستعمل المثنّى بالألف في جميع حالاته، وكان الحجازيون يُعملون «ما» عمل «ليس»، أما التميميون فيهملونها... إلخ.

ومهما يكن من أمر مسألة الإعراب، ومن سبب دخوله الكلام، فإن السؤال المهم في هذا الموضوع هو التالي: هل ينبغي إلغاء الإعراب بالميل إلى تسكين أواخر الكلمات كما نفعل في لغاتنا العاميّة أم ينبغي الحرص على بقائه توخّياً للفائدة المرجوّة منه؟

للإجابة عن هذا السؤال، لا بدّ من التمييز بين الشعر والنثر. ففي الشعر، لا نستطيع الاستغناء عن الإعراب، لأنَّ موسيقى الشعر تعتمد، إلى حدٍّ بعيد، على إعراب كلماته. يقول أنيس فريحة: «حاولْ أن تقرأ هذين البيتين من الشعر الغنائي الرقيق، بتسكين أواخر الكلمات:

تمتّعْ من شميم عرار نجد ... فما بعد العشيّة من عرار

ولي كبد مقروحة من يبيعني ... بها كبداً ليست بذاتِ قروحِ

حالاً تنتفي الموسيقى، ويزول النغم»[٥٥].

وأمّا في مجال النثر، فإن معظمنا يقرأ ويكتب غير معتمد على الإعراب للتمييز بين المعاني، وتطور اللغة العربية كما نشهده في التآليف الحديثة وفي الصحف وغيرها، يسير في هذا الاتجاه، لكن لغة هذه الصحف وتلك التآليف، لا تمتلك الطواعية التي يمنحها الإعراب في وضع الكلمات الموضع

---

(٥٤) هي: ١ - الإعراب بالحروف وهو الأشهر. ٢ - الإعراب بالنقص أي بالحركات غير المطولة. ٣ - الإعراب بالقصر أي بإثبات الألف في جميع الأحوال مع تقدير حركة الإعراب عليها.

(٥٥) أنيس فريحة: تبسيط قواعد اللغة العربية. ص ٥١.

الذي يُمليه عليه المعنى، أو يشاؤه فنّنا أو مزاجنا أو موسيقى كلامنا. والحقيقة التي لا جدال فيها، هي أنّ المسلم العربي والمتخصّص في اللغة العربية وآدابها وأي مثقّف عربي، لا يستطيعون الاستغناء عن الإعراب لفهم القرآن الكريم وتراث لغتنا العظيم.

وعليه، فإننا، مع إيماننا بأن الإعراب مصدر صعوبة في اللغة، نخالف الدعوة إلى إلغائه، لكننا ندعو إلى تخليصه، وتخليص النحو عامة، من الآراء الفلسفية الداخلة فيه، كفكرة العامل والقول بالعلّة وما إليها[٥٦]، لأن أكثر صعوبات النحو العربي تعود إلى هذه الآراء لا إلى اللغة نفسها. ومع دعوتنا إلى إعادة صياغة النحو العربي وفق المنهج الوصفي الحديث، ندعو، كي نخفّف من صعوبة الإعراب في المرحلتين: الابتدائية والمتوسطة، إلى نبذ الكثير من الأقوال المتضاربة فيه، والمذاهب المرجوحة في المسألة الواحدة، فنقتصر على أصحّ الأوجه وأسهلها.

---

(٥٦) انظر الفصل الرابع من كتابنا هذا، بحث «المنهج الوصفي والنحو العربي».

الفصل الثامن

الفصحى والعاميّة

«لقد خاضت الثقافة العربيّة معركة العصور وخرجت منها ظافرة بفضل اللغة الفصحى».

جاك برك

١ - تعريف الفصحى والعامية وازدواجية اللغة وثنائية اللغة

اللغة الفصحى هي لغة القرآن الكريم والتراث العربي جملة، والتي تستخدم اليوم في المعاملات الرسمية، وفي تدوين الشعر والنثر والإنتاج الفكري عامّة. أما العاميّة، فهي التي تستخدم في الشؤون العاديّة، والتي يجري بها الحديث اليومي. ويتّخذ مصطلح «العاميّة» أسماء عدّة عند بعض اللغويين المحدثين كـ «اللغة العامية»(١) و «الشكل اللغوي الدارج»(٢)، و «اللهجة الشائعة»(٣) و «اللغة المحكية»(٤) و «اللهجة العربية

(١) ورد هذا المصطلح عند كثيرين. انظر مثلاً:
مارون غصن: حياة اللغات وموتها - اللغة العامية. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٢٥ ص ٨. وفؤاد البستاني: الروائع، العدد ٤١. ط ٢. المطبعة الكاثوليكية. بيروت ١٩٥٦ ص ٥٢.

(٢) ورد المصطلح عند عبد الله العلايلي: معجم المعجم. ط ٢. دار المعجم العربي. بيروت ١٩٥٤ ص ٤.

(٣) ورد المصطلح عند الأب لويس شيخو في مقاله: «حقوق اللغة العامية بإزاء اللغة الفصيحة» مجلة المشرق، ج ٢٣، العدد ٣، بيروت (آذار، ١٩٢٥) ص ١٦٢.

(٤) ورد المصطلح عند أسعد داغر في مقال له بعنوان: «اللغة المكتوبة واللغة المحكية» المقتطف ج ٢٧ العدد ٣. القاهرة (آذار ١٩٠٢) ص ٢٥٧.

العامية »[٥]، و « اللهجة الدارجة »[٦]، و « اللهجة العامية »[٧]، والعربية العامية »[٨]، و « اللغة الدارجة »[٩]، و « الكلام الدارج »[١٠]، و « الكلام العامي »[١١]، و « لغة الشعب »[١٢] الخ.

ويقصد بـ « ازدواجية اللغة » Le Bilinguisme وجود لغتين مختلفتين، عند فرد ما، أو جماعة ما، في آن واحد[١٣]. ومن دون الدخول في بحث المعايير التي بوساطتها نستطيع أن نؤكّد أو ننفي وجود الازدواجية بين لغتين معيَّنتين[١٤]، فإن بعض الباحثين يرفضون استعمال مصطلح « الازدواجية »، الذي يستعمله كثير من اللغويين[١٥]، للدلالة على شكلي

---

(٥) ورد المصطلح عند عيسى اسكندر المعلوف في مقاله: « اللهجات العامية في لبنان وسورية » مجلة المجمع اللغوي في القاهرة، العدد ٤، القاهرة (تشرين الأول، ١٩٣٧) ص ٢٩٩.

(٦) ورد المصطلح عند لويس شيخو في مقاله: « الوسائل لترقية اللغة العربية » مجلة المشرق، ج ٢٠، العدد ١٢، بيروت (كانون الأول، ١٩٢٢) ص ١٠٤٧.

(٧) ورد المصطلح عند لويس شيخو في مقاله: « حقوق اللغة العامية بإزاء اللغة الفصيحة ». مجلة المشرق ص ١٦٥.

(٨) ورد المصطلح عند رشيد عطية في كتابه: معجم عطية في العامي والدخيل، دار الطباعة والنشر العربية. سان باولو. ١٩٤٤. ص ١٢.

(٩) ورد المصطلح عند لويس شيخو في مقاله: « اللغة العامية بإزاء اللغة الفصيحة » مجلة المشرق ص ١٦٥.

(١٠) انظر المرجع نفسه ص ١٦١.

(١١) ورد المصطلح عند شكيب أرسلان في مقاله: « علاقة التاريخ باللهجات العربية » مجلة المقتطف، ج ٨٠ العدد ٣، القاهرة (آذار ١٩٢٣) ص ٣٢٥.

(١٢) ورد المصطلح عند مارون غصن في كتابه: حياة اللغات وموتها – اللغة العامية ص ١٠.

(١٣) Jean Dubois et autres: Dictionnaire de linguistique p 65

(١٤) يُرْجِع بعضهم هذه المعايير إلى ثلاثة: لغوي ونفسي واجتماعي. انظر في الصدد هذا: Sélim Abou: Le bilinguisme arabe français au Liban. P.U.F. Paris. 1962 pp 3-7.

(١٥) انظر مثلاً أنيس فريحة: نحو عربية ميسَّرة. ص ١٣٤ و ١٣٥ و ١٣٧ وغيرها. وكمال الحاج: في فلسفة اللغة ص ٢٢٢.

اللغة العربية: الفصحى والعامية[16]. ذلك أنّ العامية والفصحى فصيلتان من لغة واحدة، والفرق بينهما بالتالي فرق فرعي، لا جذري. وعليه، فالازدواجية الحقّة لا تكون إلاّ بين لغتين مختلفتين، كما بين الفرنسية والعربية، أو الألمانية والتركية. أما أن يكون للعربي لغتان إحداهما عامية، والأخرى عربية فصيحة، فذلك أمر لا ينطبق مفهوم الازدواجية عليه[17]، إنه بالأحرى ضرب من «الثنائية اللغوية» diglossie[18].

٢ – العرب والثنائية اللغوية

أغلب الظن أن العرب عرفوا هذه «الثنائية» في اللغة، منذ العصر الجاهلي، إذ كانت لكل قبيلة لهجتها أو لغتها الخاصّة بها، كما كان، إلى جانب هذه اللهجات جميعاً، لغة مشتركة جامعة، استمدّت خصائصها من لهجات وسط شبه الجزيرة وشرقيها، متولّدة بتأثير التجارة والحج والظعن[19].

وكان التواصل بين العربي وأفراد قبيلته يتمّ بلغة هذه القبيلة، حتى إذا خطب أو نظم، أو خاطب أحد أفراد القبائل الأخرى، عمد إلى اللغة المشتركة[20]، وبقيت هذه الثنائية اللغوية بعد الإسلام.

---

(١٦) انظر:

Sélim Abou: Le bilinguisme arabe français au Liban p 253.

(١٧) كمال الحاج: في فلسفة اللغة، ص ١٥٦.

(١٨) Vincent Monteil: L'arabe moderne Librairie c. Kincksieck Paris. 1960. p.69

(١٩) Régis Blachère: Histoire de la littérature arabe. Librairie Adrien-Maisonneuve. Paris. 1952. v. 1 pp 79-80.

وانظر الفصل السادس من كتابنا هذا.

(٢٠) عبده الراجحي: فقه اللغة في الكتب العربية. ص ١٢٠. وأنيس فريحة: معجم الألفاظ العامية. مكتبة لبنان. بيروت ١٩٧٣. ص. ب.

أما ثنائية الفصحى والعامية التي نعنيها في هذا البحث، فيُرَجَّح أنها نشأت منذ نشوء العامية نفسها، أي في عصر الفتوحات الإسلامية الأولى، بعد اختلاط العرب بالأعاجم(٢١). لكنّ هذه العامية، لم تتميَّز عن الفصحى بشكلها الواضح، إلا بعد فترة من الزمن استطاعت خلالها أن تتّسم ببعض السمات في المادة الصوتية، وصوغ القوالب، وتركيب الجمل، والقواعد النحوية، والمادة اللغوية، وطرائق التعبير(٢٢). وقد أشار الجاحظ إلى هذه العاميّة عندما تكلّم على لغة المولّدين والبلديين(٢٣).

ومن الجدير بالذكر أن ثنائية الفصحى والعامية، ليست وقفاً على المجتمع العربي، وإنّما تتجاوز هذا المجتمع إلى مجتمعات أخرى كثيرة(٢٤). ولقد أشار بعض المشتغلين بالدراسات اللغوية، إلى وجود هذه الظاهرة في اللغات الأجنبية(٢٥). وقد كان من حظّ الفرنسية أن خصّها بعضهم بكتاب مستقل اقتصر فيه على دراسة الثنائية فيها(٢٦). ولكمال الحاج في الصدد هذا رأي يذهب فيه إلى أنّ ثنائية اللغة امتداد لازدواجية العقل والحسّ في الإنسان، وهذا يعني عنده أن هذه الثنائية «ليست وقفاً على العربية وحدها، ففي كل لغة لسان عامي ولسان فصيح»(٢٧) لكن «هذه الثنائية

(٢١) Johann Fuck: Arabiya; recherches sur l'histoire de la langue et du style arabe. Didier. Paris. 1955. p 11 et p 87.

(٢٢) المرجع نفسه ص ٨٨ – ٨٩.

(٢٣) الجاحظ: البيان والتبيين. ج ١ ص ١٥٩.

(٢٤) Jean Dubois: Dictionnaire de linguistique p. 65.

(٢٥) انظر علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٥٤ - ١٥٥ وجبر ضومط: العامية والفصحى في لغات أوروبة، مجلة السيدات والرجال، ج ٦، ص ٤٤٩.

(٢٦) Henri Bauche: Le langage populaire. Paris. 1951.

(٢٧) كمال الحاج: في فلسفة اللغة. ص ٢٢٢.

على درجات، إذ تختلف شدّة، من لغة إلى لغة. المهم أنها كائنة في كل لغة لا محالة»[٢٨].

٣ - موقف الباحثين من الثنائية اللغوية

حول هذه «الثنائية» في اللغة العربية، انقسم الباحثون إلى فريقين: فريق يرى أنها من دلائل تحضّر الإنسان، إذ إن الهمج وحدهم لا يزاولونها[٢٩]، وفريق آخر ينظر إليها على أنها بليّة عظيمة، ذلك أنّ التلميذ عندما يتكلّم في المدرسة، غير ما كان يتكلّمه قبل دخولها، يشعر بعدم التلذّذ بالقراءة، وبالنفور منها. زِد على ذلك أنّ الفصحى تتطلّب وقتاً طويلاً لتعلّمها، فتكون الازدواجية بالتالي سبباً من أسباب تأخرّنا وبلبلة أذهاننا[٣٠]. هذا وقد أبدى الفريق الثاني اقتراحات عدّة في سبيل القضاء على هذه الثنائية. ويمكننا أن نصنّف هذه الاقتراحات في خمسة اتجاهات:

١ - اتجاه يرى أن نسمو بالعامية إلى الفصحى، فنعمل بمختلف الوسائل، كي يتكلّم الناس العربية الفصحى في جميع شؤونهم، وبذلك تصبح الفصحى لغة طبيعية، تنتقل من السلف إلى الخلف عن طريق التقليد، فلا يقضي التلميذ في تعلّمها إلا وقتاً يسيراً، يتفرّغ من بعده إلى حقائق العلوم وشؤون الحياة[٣١].

---

(٢٨) المرجع السابق ص ٢٤٥.

(٢٩) المرجع نفسه ص ٢٢٢. ومن هذا الفريق أيضاً رشيد مخلة. انظر كتابه معنّى رشيد مخلة. مطبعة الكشاف. بيروت. ١٩٤٥ ص ٨٢ - ٨٣.

(٣٠) اسكندر المعلوف: اللغة الفصحى واللغة العامية، مجلة الهلال، ج ١٠ العدد ١٢، بيروت. (١٥ آذار، ١٩٠٢) ص ٣٧٦.

(٣١) من هذا الاتجاه أنطون سعادة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي. (انظر أنيس فريحة: نحو عربية ميسرة ص ١٧١).

٢ – اتجاه يطالب بالتخلي عن العربية، فصحى أو عامية، إلى لغة أجنبية تحيينا علمياً وثقافياً واقتصادياً، لأنّ اللغة العربية، بنظره، سائرة نحو الموت[٣٢].

٣ – اتجاه يدعو إلى نوع من الملاقاة أو التوحيد، بين الفصحى والعامية، ويكون ذلك بأخذ ما يستطاع أخذه من كل منها[٣٣].

٤ – اتجاه يدعو إلى ما سمّاه «اللهجة العربية المحكية المشتركة»[٣٤]، أو «لغة المتأدبين في جميع الأقطار العربية»[٣٥]، أو لغة «مثقفي العرب»[٣٦]، وهي «لغة عربية صرفة مشتركة بين الشعوب العربية، خلّفتها عوامل ثقافية واجتماعية وسياسية في الثلاثين سنة الأخيرة، وهي

---

(٣٢) من هذا الاتجاه أمين الشميل. انظر مقاله: «كلمة غيور على لغته» مجلة التبكيت والتنكيت. العدد ٥. القاهرة. تاريخ ١٨٨١/٧/١٠.

(٣٣) من هذا الاتجاه سلامة موسى، واسماعيل القباني، وعبد العزيز القوصي، وإبراهيم مدكور. انظر سلامة موسى: البلاغة العصرية واللغة العربية ط ٤. سلامة موسى للنشر والتوزيع. القاهرة. ١٩٦٤ ص ٤٤. وفتحي علي يونس ومحمود كامل الناقة: أساسيات تعليم اللغة العربية. دار الثقافة. القاهرة. ١٩٧٧. ص ٢٤. و Vincent Monteil: L'arabe moderne pp 80-82.

(٣٤) أنيس فريحة: نحو عربية ميسرة. ص ١٨١ وما بعدها.

(٣٥) المرجع نفسه ص ١٨٢.

(٣٦) المرجع نفسه ص ١٨٣ – ١٨٤. ويشبه دعوة فريحة هذه دعوة بعض الباحثين إلى «لغة المثقفين المصريين» ودعوة ساطع الحصري إلى «اللغة المتوسّطة»، وتوفيق الحكيم إلى «اللغة الثالثة»، ويوسف الخال إلى «اللغة العربية الحديثة». انظر على التوالي:

– ابراهيم أنيس: محاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة، منشورات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٠ ص ٦٦

– Vincent Monteil: L'arabe moderne. p 81.

– عبد القادر القط: من فنون الأدب، المسرحية والشعر. دار النهضة العربية بيروت. ١٩٧٥ ص ٤٠.

– يوسف الخال: «أربعة أسرار عن جنس الملائكة»، جريدة النهار، العدد ١٣٩٠٣ بيروت، تاريخ ١٩٧٩/٥/٢٥، ص ٧.

اللغة العربية المحكيّة التي يتكلّم بها المصري المثقّف، والعراقي، والسوري، واللبناني، والفلسطيني عندما يضمّهم مجتمع. وهي العربية المحكية التي تسمعها في أرض الجامعات العربية: في مصر، ودمشق، وبغداد، وبيروت. وهي لغة النادي والصالون، وهي لغة المجتمع العربي الرّاقي، التي خلقتها المدرسة والصّحافة والإذاعة والسياحة والاصطياف والتجارة والتقارب السياسي والتعاون الاجتماعي»[٣٧]. وهذه «اللغة» برأيه، سلسة طيّعة تصلح أن تكون اللغة العربية الأدبية»[٣٨]، ومن أهم خصائصها سقوط الإعراب[٣٩]، واتّصافها بنَوْرَم مشترك[٤٠]، واعتمادها الفصحى معيناً[٤١].

٥ - اتجاه يرى اعتماد العامية في الكتابة العلمية والأدبية، وفي مختلف الشؤون التي نستخدم فيها الفصحى. ونظراً لما أثاره هذا الاتجاه من فعل وردات فعل، ولكثرة الذين يؤيدونه، نؤثر أن نتناوله بشيء من التفصيل.

---

(٣٧) أنيس فريحة: نحو عربية ميسّرة. ص ١٨١.

(٣٨) المرجع نفسه ص ١٨٣.

(٣٩) وسقوط الإعراب، عند فريحة، من دلائل حيوية هذه اللهجة العربية المشتركة، ومقدرتها على مسايرة الحياة، لأن الإعراب، عنده، لا يعدو كونه زخرفاً لغوياً من بقايا العقلية القديمة في اللغة، فلا قيمة بقائية له. (انظر المرجع نفسه ص ١٨٤). وانظر مناقشتنا لهذا الرأي في أطروحتنا الجامعية: آراء أنيس فريحة في تبسيط اللغة العربية وأساليب تدريسها. أطروحة أعدت لنيل شهادة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها. جامعة القديس يوسف. بيروت. ١٩٨٠ ص ٦١ - ٦٧، وكذلك الفصل السابع من كتابنا هذا.

(٤٠) هو المصطلح الانكليزي norm أو الفرنسي norme، وقد عرّبه فريحة إلى «النورم» وفق الوزن العربي «فَعْلَل»، وهو، كما يوضح فريحة، المشترك أو النموذج العام، أو المألوف، أو العادي المتفق عليه والمقبول. ومن النواحي المشتركة بين اللهجات العربية، كما يذهب فريحة، الميل إلى الاقتصاد في الضمائر، وسقوط الإعراب، وأحكام العدد والمعدود، والتركيب النحوي، وأساليب التعبير. (انظر كتابه: نحو عربية ميسرة ص ١٨٥ - ١٨٦).

(٤١) المرجع نفسه ص ١٨٦.

٤ - الدعوة إلى العامية

ظهرت الدعوة إلى العامية في السنة ١٨٨٠[٤٢]، على يد الألماني ولهلم سبيتا (Dr. Wilhelm Spitta)[٤٣]، مدير دار الكتب المصرية يومذاك، في كتاب له بعنوان «قواعد العربية العامية في مصر»، لكنّ نشر دعوته باللغة الألمانية، أبعدها عن التأثير في المجال الفكري العربي[٤٤].

في السنة ١٨٨١، اقترحت مجلة «المقتطف» كتابة العلوم باللغة التي يتكلّمها الناس في حياتهم العامّة، مدَّعية أن الخلاف بين لغة النطق ولغة الكتابة عندنا، هو علّة تأخّرنا، ثمّ دعت رجال الفكر إلى بحث اقتراحها ومناقشته[٤٥]، فلبّى طلبها كثيرون[٤٦].

---

(٤٢) إن الاهتمام بالعامية بدأ منذ القرن الثاني للهجرة. فقد وضع الباحثون العرب القدامى كتباً عدة في مسألة العامية، منها كتاب لحن العامة لأبي الحسن حمزة الكسائي المتوفّى في السنة ١٩١ هـ، وكتاب لحن العامّة لأبي عبيدة المتوفّى في السنة ٢٠٩ هـ، وكتاب لحن الخاصّة لأبي هلال العسكري المتوفّى في السنة ٣٩٥ هـ... الخ (انظر عيسى اسكندر المعلوف: «اللهجة العربية العامية»، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، ج ١، ص ٣٥٣ - ٣٦٨ وج ٣ ص ٣٤٩ - ٣٥٦) لكن دراستهم للعامية لم تقصد الدعوة إليها، بل جاءت لتحفظ الفصحى من التحريف واللحن والدخيل، عن طريق تقويم ألسنة العامة وتصحيح أخطائهم.

(٤٣) متخصّص باللغات الشرقية (١٨٥٣ - ١٨٨٣). نال شهادة الدكتوراه من جامعة ليبزيغ في «تاريخ أبي الحسن الأشعري ومذهبه». له «تاريخ أبي الحسن الأشعري ومذهبه» و«فهرس المخطوطات العربية في دار الكتب المصرية» و«قواعد اللهجة العربية العامية بمصر» (نجيب العقيقي: المستشرقون ج ٢ ص ٧٠٥).

(٤٤) عائشة عبد الرحمن: لغتنا والحياة. دار المعارف، القاهرة ١٩٧١ ص ١٠٠.

(٤٥) مجلة المقتطف: «اللغة العربية والنجاح»، القاهرة، (تشرين الثاني، ١٨٨١) ص ٣٥٢ - ٣٥٤.

(٤٦) منهم من عارض دعوتها كالشيخ خليل اليازجي، ومنهم من أيدها كأسعد داغر وكاتب آخر سمّى نفسه «الممكن». انظر على التوالي:

- خليل اليازجي: «اللغة العربية والنجاح»، مجلة المقتطف، ج ٦، العدد ٧ القاهرة (كانون الأول، ١٨٨١) ص ٤٠٤.

وفي السنة ١٨٩٣، ألقى وليم ولكوكس (William Willcoks)، وهو مهندس ريّ إنكليزي، محاضرة في نادي الأزبكية في مصر بعنوان «لِمَ لَمْ توجد قوّة الاختراع لدى المصريين الآن»، عزا فيها، سبب عدم وجود هذه القوّة، إلى استخدام المصريين اللغة العربية الفصحى في الكتابة والقراءة، فنصح بنبذ هذه اللغة لصعوبتها وجمودها، وباستخدام اللغة العامية في الكتابة الأدبية(٤٧).

وفي السنة ١٩٠١ وضع سلدن ولمور (J. Seldon Wilmore) القاضي الإنكليزي في مصر، كتاباً في الإنكليزية عن العامية المصرية بعنوان «العربية المحكيّة في مصر»، دعا فيه إلى الاقتصار على العامية أداة للكتابة والحديث(٤٨).

في السنة ١٩٠٢ كتب اسكندر المعلوف(٤٩)، إلى مجلة «الهلال» يقول: إنّه اشتغل بالعامية كثيراً، حتى انتهى إلى الإيمان بصحّتها، ووجوب

- أسعد داغر: «استحالة المكن إذا أمكن»، مجلة المقتطف، ج ٦، العدد ٩، القاهرة (شباط، ١٨٨٢) ص ٥٥٦.
- «المكن»: «مستقبل اللغة العربية»، مجلة المقتطف، ج ٦، العدد ٨، القاهرة (كانون الثاني، ١٨٨٢) ص ٤٩٤.

(٤٧) انظر نص المحاضرة في مجلة الأزهر، العدد الأول من السنة السادسة، القاهرة، ١٨٩٣، ص ١ - ١٠.

(٤٨) عن نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامية وآثرها في مصر. ط ١. دار نشر الثقافة، الاسكندرية، ١٩٦٤. ص ١٠٩.

(٤٩) محام لبناني (١٨٤٩ - ١٩٠١)، ولد في كفرعقاب (لبنان)، درس في مدرسة مار الياس الأرثوذكسية في شويا (لبنان)، وعلى بعض فقهاء دمشق. كان محامياً أيام عهد المتصرفية. (عيسى اسكندر المعلوف: دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف. المطبعة العثمانية، بعبدا (لبنان). ١٩٠٧ - ١٩٠٨ ص ٣١٠ - ٣١١).

تدعيمها وإقرارها. وأمل أن يرى الصحف العربية وقد غيَّرت لغتها، وبالأخصّ مجلة «الهلال»[٥٠].

في السنة ١٩١٣، كتب أحمد لطفي السيد[٥١] في موضوع تمصير اللغة العربية، سبع مقالات نشرها في صحيفة الجريدة[٥٢]، ذهب فيها إلى أنّ الطريقة الوحيدة لإحياء اللغة العربية، هي إحياء لغة الرأي العام من ناحية، وإرضاء لغة القرآن من ناحية أخرى، وذلك باستعمال العامية في الكتابة[٥٣].

في السنة ١٩٢٥، أصدر الأب مارون غصن[٥٤]، كتاباً سمّاه «درس ومطالعة»[٥٥]، متنبِّئاً في أحد فصوله: «حياة اللغة وموتها – اللغةبالعامية» (ص ١٨٥)، بموت العربية الفصحى، قياساً على ما عرفه من تاريخ اللغتين: اليونانية واللاتينية، وداعياً إلى الكتابة بالعاميَّة السورية.

في السنة ١٩٥٥ أصدر أنيس فريحة كتابه «نحو عربيَّة ميسَّرة» دعا فيه إلى «أن يصبح لنا لغة واحدة هي لغة الحياة»[٥٦]، معتبراً أن الفصحى

---

(٥٠) اسكندر المعلوف: «اللغة الفصحى واللغة العامية» ص ٣٧٣ – ٣٧٧.

(٥١) هو سياسي مصري (١٨٧٢ – ١٩٦٣)، تولى وزارة الخارجية في السنة ١٩٤٦، وأحد رؤساء مجمع اللغة العربية. له «قصة حياتي». (فردينان توتل: المنجد في الأعلام، ص ٣٧٥ – ٣٧٦).

(٥٢) نشرت هذه المقالات في الأعداد: ٦، ٢٠، ٢٣، ٢٧، ٣٠ من نيسان و ١، ٤ من أيار من السنة ١٩١٣.

(٥٣) وقد كان لهذه الدعوة الجديدة، صدى كبير في الأوساط المصرية، فانقسم الناس حولها بين مؤيد ومعارض. (انظر نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر، ص ١٣٦ – ١٤٣).

(٥٤) كاهن وأديب لبناني (١٨٨١ – ١٩٤٠). له «حياة اللغات وموتها» و«درس ومطالعة» و«محاضرات في الزواج» (يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية. ج ٣ ص ٩٢٣ – ٩٢٥).

(٥٥) صدر في بيروت عن المطبعة الكاثوليكية في السنة ١٩٢٥.

(٥٦) أنيس فريحة: نحو عربية ميسرة ص ١٥٠. إن أنيس فريحة يدعو، في الظاهر، إلى ما يسمِّيه «اللهجة العربية المحكية المشتركة»، وهو مقتنع بضرورة تبني العامية، إذ يدرك أن اللغة =

«لغة أجيال مضى عهدها»، وهي بالتالي عاجزة عن أن تعبّر عن الحياة. أمّا العاميّة فلغة حيّة متطوّرة نامية تتميّز بصفات تجعل منها أداة طيّعة للفهم والإفهام، وللتعبير عن دواخل النفس[٥٧].

هذه هي أبرز الدعوات إلى العامية. أما الأسس التي استند إليها أصحابها فتتلخّص بما يلي:

١ - إنّ الفصحى «لغة أجيال مضى عهدها»[٥٨] تعجز عن أن تعبّر عن الحياة، وهي، بالتالي، صعبة التعلّم والتعليم لصعوبة نحوها، وصرفها، ومفرداتها، بخلاف العامية التي هي لغة سهلة، تسيل على الألسن بلا عسر ولا تصنّع، وذلك لخلوّها من الإعراب، ومن الألفاظ الحوشية والوحشية المائتة، ومن المترادفات والأضداد الكثيرة، ولمرونتها في قبول الأوضاع الأجنبية بلفظها العجمي، ولميلها أخيراً إلى إطلاق القياس في الاشتقاق للنموّ والتوسّع[٥٩].

٢ - إن ثمّة مسلمين كثيرين، لا يتوسّلون العربية أداة للتعبير نطقاً أو كتابة، ومن ثمّ، لا مسوّغ لتعلّق المسلمين بها. أما لغة القرآن فتبقى من

= تقرن أبداً بالدين والأدب، فهي فكر الأمة وروحها» وأن العالم العربي «ليس في حالة فكرية يستطيع معها تقبّل أي اقتراح يرمي إلى المساس باللغة العربية». (نحو عربية ميسرة ص ١٨٢)، وعليه فإنه يرى في الدعوة إلى «اللهجة العربية المحكية المشتركة» حلاً ممكناً يقضي على مساوىء الثنائية اللغوية، دون أن يمس الوحدة اللغوية بين الأقطار العربية، ويشكل في الوقت نفسه، مرحلة تستطيع بوساطتها الانتقال إلى تبني العاميات المعروفة في البلدان العربية. (لمزيد من التفصيل انظر أطروحتنا: آراء أنيس فريحة في تبسيط اللغة العربية وأساليب تدريسها، ص ١٢٦ - ١٢٧ وص ١٠٨ - ١١٣).

(٥٧) أنيس فريحة: نحو عربية ميسرة ص ١١٧.

(٥٨) المرجع نفسه ص ١٦٦.

(٥٩) المرجع نفسه ص ١١٧. وجورج الكفوري: اللغة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها. مطابع نصار. بيروت. ١٩٤٨ ص ٨٥.

اختصاص رجال الدين والاختصاصيّين اللغويين[٦٠].

٣ - إنّ في اعتماد العامية اقتصاداً لوقت طويل وثمين يهدر في تعلّم الفصحى وأحكامها[٦١].

٤ - إن من أهمّ أسباب التخلّف عندنا اختلاف لغة الحديث عن لغة الكتابة. وعليه، فاعتماد العامية كفيل بالقضاء على هذا التخلّف، وعلى سلبيات ثنائية اللغة جميعها[٦٢]. وهذه السلبيات، انفرد أنيس فريحة ببحثها بحثاً مفصّلاً [٦٣]، إذ لا نعلم أنّ أحداً غيره من الباحثين، قد أفرد لهذا الموضوع باباً خاصًّا في مؤلّفاته. ونظراً لأهميّة هذا الموضوع، ولارتباطه بموضوع بحثنا، ولخطورة ما ذهب إليه فريحة، آثرنا أن نفرده بالعرض ثمّ بالمناقشة.

٥ - أثر ثنائية اللغة في المجتمع عند أنيس فريحة

يرى فريحة أنّ هذا الأثر يظهر في الفكر، والتربية، والشخصية، والأخلاق، والفنون الجميلة على النحو التالي:

أ - أثر ثنائية اللغة في الفكر: يلاحظ فريحة، أنّ المتكلّم باللغة الفصحى، يُولي اهتمامه لغة فكره أكثر من فكره نفسه، حتّى أنّ الخاصّة

---

(٦٠) انظر اسكندر المعلوف: «اللغة الفصحى واللغة العامية» ص ٣٧٣ - ٣٧٧.

(٦١) يورد هنا بعضهم فكاهة اقتصادية أرسلها حفني ناصف، مفادها أن الجمع بين العامّية والفصحى يستنفد خمس عشرة سنة من عمر المتعلّم. وهذا يعني أنه في حال جعل التعليم إلزامياً، فإن الأمّة تخسر في كل عام عمل شخص في ٢٣٥٠٠٠٠ سنة (على اعتبار أن معدّل المواليد السنوي هو ٤٧٠٠٠٠ وأن معدّل وفياتهم هو النصف)، أي أنه يفوتها ربح زراعة ١١٧٥٠٠٠ فدان على فرض أن الفدان يزرعه اثنان. (انظر عبد الله العلايلي: مقدّمة لدرس لغة العرب وكيف نضع المعجم الجديد. المطبعة العصرية، القاهرة، لات. ص ٩٩ - ١٠٠).

(٦٢) انظر وليم ولكوكس: «لِمَ لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين» ص ١ - ١٠.

(٦٣) انظر كتابه: نحو عربية ميسّرة ص ١٣٤ - ١٦٦.

أنفسهم من أهل الفكر والعلم والفلسفة، عندما يعالجون قضايا علمية وفلسفية واجتماعية، يضطرون أحياناً إلى التضحية بالفكر في سبيل استقامة التركيب. كما أنّ أكثر المذيعين والحاضرين والواعظين يُنفقون الجهد الكبير في الشكل على حساب المعنى، إن طلب منهم أن يُذيعوا أو يحاضروا، أو يعظوا ارتجالاً[٦٤].

ب - أثر ثنائية اللغة في التربية: يرى فريحة أن العربي يصرف في تعلّم لغته، زمناً أطول من الزمن الذي يصرفه الغربي في تعلّم لغته، وأن إعراض الناس عن القراءة، وطغيان القالب اللغوي أو الأساليب الكتابية الموروثة على المعنى لدى الطلاّب، ونَفَرة هؤلاء من اللغة و...أمور تعود بشكل أساسي، إلى اختلاف الفصحى عن العامية، وإلى أنّ اللغة الفصحى لا تلين للصِّغار[٦٥].

ج - أثر ثنائية اللغة في تكوين الشخصية: يرى فريحة، أنّ الأب والأم في المجتمعات العربية، يشعران أن العامية ليست اللغة الراقية التي يجب أن ينشأ عليها الطفل، لذلك يتركان الأمر للمدرسة، التي تتولّى تلقينه - حسب رأيه - لغة غريبة عنه، بعيدة عن حياته، فينشأ مزدوج الشخصيّة: شخصيّة محبّبة طبيعية عندما يتكلّم بلغته الخاصّة، وشخصيّة مُصْطَنَعة عندما يتكلّم الفصحى في مواقفه الرسميّة[٦٦].

د - أثر ثنائية اللغة في الأخلاق: يلاحظ فريحة هنا أنّ للغة أثراً في التصرّف الإنساني، وأنّ الازدواجية هي في أساس خشونة الطباع وفظاظة الأخلاق في مجتمعنا. فمجتمعنا لا يستعمل اللغة الفصحى، إلاّ في المواقف الرسمية، بينما يستعمل في حياته الماديّة لغة عامية يعتبرها سَمِجة ركيكة،

---

(٦٤) المرجع السابق ص ١٣٥ - ١٤٢.
(٦٥) المرجع نفسه ص ١٤٣ - ١٥٣.
(٦٦) المرجع نفسه ص ١٥٦.

لا يضيرها، لكونها عاميّة، أن تكون خشنة غنيّة بالمسبّات[٦٧].

هـ- أثر ثنائية اللغة في الفنون الجميلة: يهمّ فريحة من هذه الفنون المسرح، فيلاحظ أن سبب قحط المسرح عندنا، يعود إلى اللغة العربية الفصحى، إذ إنّ التناقض ظاهر بين رسالة المسرح وبينها. فالمسرح للحياة، والرواية، على اختلاف أنواعها، يجب أن تمثّل مشهداً من مشاهد الحياة، والفصحى لا تستطيع أن تعبّر عن الحياة لأنّها لغة أجيال غابرة[٦٨].

٦- مناقشة الاتجاهات التي حاولت القضاء على الثنائية

بعد أن عرضنا لمواقف الباحثين من الثنائية عندنا، وعرفنا أن فريقاً منهم نظر إليها على أنها ظاهرة مضرَّة، فأبدى اقتراحات عدة للقضاء عليها، (وقد صنّفنا هذه الاقتراحات في خمسة اتجاهات)، لا بدّ لنا من مناقشة هذه الاتجاهات، مُظهرين ما لها وما عليها، على أن نُفرد مناقشة الدعوة إلى العامية بالبحث نظراً لكثرة الداعين إليها، وما أثارته من فعل وردات فعل.

أما الدعوة إلى جعل الناس يتكلّمون العربية الفصحى في جميع شؤونهم، حتى تصبح لغة طبيعية، تنتقل من السلف إلى الخلف عن طريق التقليد، فدعوة، لا شك في أن أصحابها مخلصون لعربيتهم ولقوميتهم، لكنها مستحيلة التطبيق، إذ من المتعذّر أن تُقنع الناس بهجر العامية، وهي لغة أسهل من الفصحى، إلى لغة عليهم أن يقضوا وقتاً طويلاً لحذقها. ولو سلّمنا جدلاً، أنّ سلطة ما، فَرَضت هذه اللغة الفصحى بالقوّة على الناس، ووضعت رقيباً على شفتي كل إنسان، فإنّ التاريخ سيُعيد نفسه، إذ ستنحلّ هذه اللغة، بعد جيل أو أكثر، إلى عاميات تختلف عنها في المستويات اللغوية كافّة.

---

(٦٧) المرجع السابق ص ١٥٩ - ١٦٣.

(٦٨) المرجع نفسه ص ١٦٦.

وأما الدعوة إلى التخلّي عن العربية، بحجة عجزها، وصيرورتها - بحسب أصحاب هذه الدعوة - إلى الموت، فمرفوضة من الأساس. لأنّه قد فات هؤلاء، أنّ دعوتهم تعني التخلّي عن بعض من ذواتنا، وعن «وطننا الروحي»، وعن تراثنا وثقافتنا، وعن أهم رابطة تجمع العرب بعضهم ببعض. كما فاتهم أيضاً، أن اللغة العربية الفصحى، قد حافظت، منذ نشأتها، حتى اليوم، على حيويتها وشبابها في حين انقرضت لغات كثيرة[٦٩]، وتبدّلت لغات أخرى تبدّلاً كبيراً في الجوهر والمظهر معاً[٧٠]، في حين ما زلنا نقرأ ونفهم القصائد الجاهلية، وهي من أوّل ما وصلنا من العربية الفصحى، إلا قليلاً ممّا ترجع صعوبته إلى دقّة المعاني وصعوبة بعض المفردات. وفات هؤلاء أيضاً وأيضاً أن اللغة تعجز بعجز أهلها، وتتطوّر بتطوّرهم، وأنه ليس هناك لغة قصّرت عن خدمة إنسان عنده فكرة يريد التعبير عنها[٧١]. وإذا كان هذا حالة أيّ لغة، فأحرى، بالعربية، أن تكون أبعد من غيرها عن العجز، ذلك أنها كانت، ولفترة طويلة من الزمن، لغة الحضارة في العالم، وتمكّنت من أن تكون لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وما فيهما من معان سامية رفيعة، وتعبيرات دينية واجتماعية وتشريعية، لا عهد للعرب بها في جاهليتهم.

وأما الدعوة إلى «اللهجة العربية المحكية المشتركة» أو «إلى لغة المثقفين العرب»، فإننا لا نرى أن المثقّف العربي يتكلّم في مخاطباته لغة تختلف عن اللغة الفصحى، اللهم إلا بسقوط الإعراب من اللغة الأولى، وبعدد المفردات، ذلك أنّ معجم المثقّف أغنى من معجم غيره. لكن هذا

---

(٦٩) كاللغة اللاتينية مثلاً.

(٧٠) كاللغة الإنكليزية.

(٧١) هذا القول لديكارت وقد أخذناه عن فندريس: اللغة، ص ٤٢١.

الاختلاف في سقوط الإعراب، وفي غنى المعجم، لا يعني أنّ لغة المثقّفين تختلف عن لغة غير المثقفين، فالتركيب واحد، و« اللغة بتركيبها »، كما يؤكد فريحة نفسه[٧٢]. واللبناني المثقّف، إن أراد التفاهم مع الجزائري المثقف مثلاً، تكلّم معه اللغة الفصحى أو لغة قريبة جداً منها، تشبهها في التركيب، والمفردات، والدلالة، والأصوات، وتختلف عنها في سقوط الإعراب. وإن كان هناك بعض الصفات المشتركة بين عاميات البلدان العربية، فإن مجال الاختلاف أوسع دائرة وأكثر شمولاً من مجال الاتفاق أو الاشتراك. فاللبناني، في سؤاله عن صحتك، مثلاً يقول: « كيفْ حالَكْ »، أمّا الشّامي فيقول: « شلُونك »، والمصري « إزّيّـك »، والمراكشي « لا بأس عليك ». وإن أراد اللبناني القول: « أرجوك أعطني كتابي حالاً »، يقول: « بتْرجّاك عْطيني كتابي هَلّقْ » (أو إسّا) ويقول المصري: « من فضلك أدّيني كتابي دِلوَقْتي »، ويقول الجزائري: « اعطيني كتاب ابتاعي دورك »، ويقول التونسي: « تحبّك اعطيني كتابي تَوّا ». فما هو « النّوَرَم » المشترك لهذه التعابير التي لا تفريق في استخدامها بين المثقّف وغيره؟

وإذا سلمّنا جدلاً، أنّ لغة المثقّف العربي تختلف عن لغة غير المثقّف، أي إن كانت « اللهجة العربية المحكية المشتركة »، تختلف عن العامية، التي نسمعها في مجتمعاتنا، فإنّنا لا نستطيع فرض مثل هذه اللغة على مخاطبات الناس، لأنّ أحداً من المواطنين العرب، لن يرضى بالتخلّي عن عاميّته ولهجته. ذلك أنّ العامية أسهل على المتكلّم بها من أيّ لغة أو لهجة مفروضة عليه. أما إذا اصطنعنا هذه « اللهجة العربية المحكية المشتركة » في كتاباتنا فقط، فإنّ مشكلة ثنائية اللغة تتفاقم، إذ يصبح عندنا ثلاث لغات: لغة عامية يتكلّمها الناس في حياتهم العادية، ولغة موصوعة نستخدمها في

(٧٢) أنيس فريحة: نحو عربية ميسرة، ص ١٢١.

كتاباتنا، ولغة فصحى نتعلّمها لفهم تراثنا، فنقع في المحظور الذي حاولنا الهروب منه، بل بأعظم منه، وذلك بتخلّصنا من الثنائية اللغوية، ووقوعنا في ثلاثية لغوية أشد خطورة.

٧ - مناقشة بحث فريحة في أثر ثنائية اللغة في المجتمع

أ- أثر ثنائية اللغة في الفكر: إن من أهم وظائف اللغة مساعدتها الآلية للفكر[٧٣]. وقد رأينا أن فريحة يذهب إلى أن الفصحى تعوق التفكير بدل أن تسهّله لأن من يتكلّم اللغة الفصحى، يهتم بلغة فكره، أكثر من اهتمامه بالفكر نفسه. والواقع أن هذه الظاهرة تبدو واضحة في أيّ مادة تعليمية يُطلب فيها من الطلاب الإجابة عن أسئلة المعلّم بلغة فصيحة، لا سيّما في مادة الاستظهار العربي، حيث يطلب المعلّم أحياناً من التلاميذ شرح أحد الأبيات الشعرية، فيبادر هؤلاء إلى شرحه بلغتهم العامية، حتى إذا نهاهم المعلّم عن التكلّم بهذه اللغة، فقدوا ثقتهم بأنفسهم وبدت عليهم مظاهر الارتباك.

ولكن مثلما أظهر فريحة أثر ثنائية الفصحى والعامية في الفكر، كان عليه أن يُبرز ما لازدواجية العربية والفرنسية، أو العربية والإنكليزية في مجتمعنا من انعكاس سلبي، على تفكير بعض الناس والطلاّب منهم خاصة. وقد كان يجمل به، أن يطالب بنقل العلوم إلى العربية، بدل أن ينعى على الفصحى صعوبة تدريس هذه العلوم بها[٧٤]. فثمّة طلاب كثيرون يُتقنون مادة الرياضيات، أو العلوم، لكنّهم لا يستطيعون التعبير عنها بلغة أجنبية. وقد كان، وما يزال، ضعف التلامذة عندنا باللغة الأجنبية سبباً من أسباب رسوب بعضهم في الامتحانات.

---

(٧٣) انظر بحثنا في وظيفة اللغة في الفصل الأول من كتابنا هذا.

(٧٤) انظر كتابه: نحو عربية ميسّرة ص ٢٨.

أما مسألة اضطرار أهل العلم إلى التضحية بالفكر في سبيل استقامة الوزن أو التركيب، كما يشير فريحة، فسببها لا يعود إلى اللغة، وإنما إلى عدم امتلاك اللغة أو إتقانها.

وإن كان أكثر المذيعين والواعظين والخطباء، يُنفقون الجهد في ضبط الشكل على حساب المعنى، إذا عُهد إليهم بالمحاضرة أو الإذاعة أو الوعظ ارتجالاً كما يذهب فريحة، فإننا نرى، في المقابل، حسنة تنتج عن اعتماد الفصحى وسيلة تعبير، تكمن في كوننا نستطيع بوساطتها أن نتوجّه بما نقول، إلى أكثر مواطني العالم العربي، مما يضاعف الاستفادة ويوسّع دائرة الاتّصال.

يبقى أن نشير ونحن نتحدّث عن علاقة اللغة بالفكر، وأثر ثنائية العامية والفصحى فيه، إلى ثلاثة أمور: أوّلها أن اللغة بارتباطها بالفكر، تصبح معيناً للتراث وقطعة من تاريخ الأمّة، وسجلاً صادقاً للكثير من آدابها، وعلومها، وعاداتها، وضروب تفكيرها. وهكذا نجد أن للغة العربية الفصحى دوراً أساسياً في ربط حاضر الأمّة العربية بماضيها. وثانيها أن كتابة الإنتاج الفكري العربي باللغة الفصحى على مرّ العصور، قد جعل هذه اللغة أكثر صلاحاً من العامية لتدوين مختلف العلوم[٧٥]، كما قد سهّل، وما يزال، تبادل هذا الإنتاج الفكري بين الدول العربية كافّة. وثالثها أن اللغة تخلق نوعاً من الشراكة في الفكر والإحساس بين المتكلّمين بها، مما يجعلها أحد مقوّمات الوطن والقومية، ومدعاة للوحدة الوطنية، ورابطاً قوياً يجمع الدول الناطقة بها[٧٦]. وعليه فـ «اللغات المختلفة في مملكة واحدة إنّما هي حواجز منيعة ضد الاحتكاك العقلي، وتدفّق الأفكار

---

(٧٥) كمال الحاج: في فلسفة اللغة ص ٢٤١ - ٢٤٥.

(٧٦) كما هي الحال في جامعة الدول العربية، ورابطة الشعوب التي تتكلم الفرنسية (franco-phone)، واتحاد دول الكومنولث.

والعادات، من عنصر إلى عنصر. فهي مانعة من الالتئام في وحدة قومية واحدة. يمكنك أن تجمع جماعات تحت راية حكم واحدة، لكنك لا تقدر أن تجمعها في قومية واحدة إذا كانت متعدّدة اللغات، ما لم تعم فيها لغة واحدة »(٧٧). لذلك يرى العرب أن وجود الفصحى إلى جانب العامية في مختلف أقطارهم، هو أحد عوامل التضامن العربي الذي يعكس إيجابياته في مختلف شؤون الحياة، سياسيّة كانت أم اقتصادية أم ثقافية.

ب - أثر ثنائية اللغة في التربية: إنّ للثنائية اللغوية، عند فريحة، أثراً في التربية، يتمثّل في هدر قسم كبير من العمر في تعلم اللغة، والإعراض عن القراءة والأدب، وطغيان القالب على المعنى، وصعوبة انتقال الطفل من لغة أمّه البسيطة إلى اللغة الفصيحة المعربة.

والواقع أنّ الثنائية اللغوية ليست وقفاً على اللغة العربية، وإنما هي ظاهرة طبيعية في كل اللغات، على اختلاف في الدرجة، يجب التكيّف معها(٧٨). لذلك، على كل إنسان، أيًّا تكن لغته، أنْ يُنفق شطراً من حياته في سبيل إتقانها. وإن كان العربي يُنفق مدّة أطول في هذا السبيل، فليس مردّ ذلك إلى اختلاف الفصحى عن العامية وحسب، بل إلى تقبّلنا قواعد الفصحى ومبادىء إملائها كما وصلتنا عبر الأجيال، أيضاً. ولهذا فإن تبسيط هذه القواعد يوفّر كثيراً من الوقت الذي يُصرف حالياً لإتقان العربية. كما أن إعداد المعلم الصالح، وإصلاح طرق التدريس، والاهتمام بتأليف الكتب المدرسية حسب مبادىء علم التربية، عوامل تساهم هي أيضاً مساهمة فعّالة في تقصير مدّة تعلم الفصحى. ولعلّ من المفيد إجراء دراسات مقارنة بين الفصحى والعامية في سبيل الكشف عن الصعوبات التي

---

(٧٧) هذا القول لجرجي زيدان وقد أخذناه عن كمال الحاج: في فلسفة اللغة ص ١٥٧.
(٧٨) علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٥٥.

تعترض التلميذ عند تعلّمه الفصحى. وأهميّة دراسة من هذا النوع، تكمن في أنها الطريقة الفعّالة لتحضير المواد اللغوية، ووضعها بتصرف التلميذ بطريقة يسهل عليه معها اكتشاف قواعد الفصحى، وفي أنّها تساهم في سدّ الفجوة بين الفصحى والعامية، عن طريق إكساب التلميذ كفاية ذاتية للعربية الفصحى، تتأصّل فيه بدرجة تقارب قدر المستطاع ملكته الطبيعية للكفاية الذاتية الخاصّة بالعربية العامية.

وإن كان لثنائية اللغة، ذلك الأثر السيِّىء، في إطالة الزمن الذي يُنفقه العربي في تعلم لغته، فإنَّ لها، أيضاً، حسنة بارزة في المجال الاقتصادي والثقافي. فمن المعروف في مجال النشر، أنّه كلما كثرت نسخ الكتاب المطبوع، تدنّت كلفة إنتاج النسخة الواحدة، الأمر الذي يؤديّ إلى انخفاض ثمنه. ووجود اللغة العربية الفصحى في جميع الدول العربية، يساهم في تأمين أسواق واسعة لاستهلاك الكتاب، بالإضافة إلى سوق البلد المنتج، مما يدفع بالناشر إلى طبع عدد من النسخ، يساوي أضعاف العدد الذي كان يمكن أن يطبعه لولا وجود الفصحى. وفضلاً عن أن زيادة عدد النسخ، من العوامل التي ينتج عنها خفض في سعر الكتاب، فإنها تسمح أيضاً، بتحقيق ربح إضافي لكلّ من المؤلّف والناشر. ومسألة خفض الأسعار، بالنسبة للمستهلك، وتأمين الربح الإضافي، بالنسبة للناشر والمؤلف، تساهم إلى حد بعيد، في النهضة الثقافية، من خلال التشجيع على تأليف الكتب وتيسير اقتنائها. كما أن وجود هذه اللغة المشتركة، بين الدول العربية، يُغنينا من ترجمة المصنَّفات العلمية العربية، التي تصدر في الأقطار العربية الأخرى، علماً أننا لا نستطيع إلا من خلال الفصحى وحدها، أن نتذوّق آداب هذه الأقطار، وآداب العرب، عبر العصور. إذ لو ترجمت هذه الآداب إلى اللغة العامية لفقدت الكثير من قيمتها.

ولا شك في أن ثنائية اللغة، أحد أسباب الإعراض عن القراءة،

وكساد الأدب، لكنها ليست سببها الأول. فالسبب الأول يعود، في نظرنا، إلى عدم اعتناء المؤلّفين عندنا بأدب الأطفال، وعدم تطبيقهم مبادىء الإحصاء، في استخلاص اللغة العربية الأساسية، كما فعل الفرنسيون والإنكليز، في استخلاص الفرنسية الأساسية (Le francais fondamental)، والإنكليزية الأساسية (Basic English). زِدْ على ذلك أنّ هناك أسباباً أخرى، لم يُنكرها فريحة، مسؤولة عن الإعراض عن القراءة، منها غلبة الأميّة في الأقطار العربية، وعجز الكثيرين عن شراء الكتاب، وتقصير المدرسة والأهل في ترغيب الأولاد في القراءة... الخ[٧٩]. وعلى ضوء هذا، نرى أنه من السهل التغلّب على هذه المشكلة إذا بادرنا إلى محو الأميّة، وتبسيط قواعد اللغة، والاهتمام بأدب الأطفال، ونشر الكتب بأسعار زهيدة، وتشجيع المطالعة في المدارس... الخ.

يبقى أخيراً أن نشير إلى أن السبب في طغيان القالب على المعنى، في إنشاء تلامذتنا، لا يعود، كما توهّم فريحة، إلى ثنائية الفصحى والعامية، وإنّما إلى المعلّم وطرق التدريس والكتب المدرسية، ذلك أن المحسّنات اللفظية والمعنوية، موجودة في معظم لغات العالم، ولا نرى الطلاب الذين يدرسون هذه اللغات، يهتمون بالمبنى على حساب المعنى. وما أشبه الدعوة إلى ترك الفصحى للتخلّص من هذه المشكلة، بالدعوة إلى ترك شيء مفيد بطبعه لضرر قد نشأ عنه.

ج- **أثر ثنائية اللغة في الشخصية:** لقد رد فريحة عجز أطفالنا في حسن التعبير، وعدم ثقتهم بأنفسهم إلى ثنائية اللغة، ذلك أن الأهلين، حسب رأيه، لا يعلّمون أولادهم اللغة، لاعتقادهم أنّ هؤلاء سيتعلّمون اللغة الصحيحة في المدرسة. والواقع أن قوّة الشخصية، أو ضعفها، أمر يعود إلى

---

(٧٩) أنيس فريحة: نحو عربية ميسّرة ص ١٤٦.

أساليب التربية المتّبعة في تنشئة الأطفال، وليس إلى اللغة أو ثنائيتها. ولا نعتقد أن الأهل في بلادنا، يقصّرون في تلقين أطفالهم منذ الصغر، أصول النطق الصحيح. وإن كان ثمّة أهلون يشعرون أنّ العامية، ليست اللغة الراقية التي يجب أن ينشأ عليها أولادهم، فيتركون، بالتالي، للمدرسة أمر الاهتمام بلغتهم، فإن خطأ هؤلاء لا يُرَدُّ إلى ثنائية الفصحى والعامية، بل إلى سوء معالجتهم للأمور.

د – أثر ثنائية اللغة في الأخلاق: لا شك في أنّ هناك تأثيراً متبادلاً بين الأخلاق واللغة، فالمجتمع المهذّب ذو لغة مهذبة والعكس بالعكس. ولكننا لا نعتقد، أن هناك علاقة بين ثنائية اللغة والأخلاق، على نحو ما قرّر فريحة. فمعجم المسبّات في الفصحى، لا يقلّ عن معجم العامية في هذا المجال، والعرب الأوائل الذين كانوا يتكلّمون الفصحى وأوجدوا هذه المسبّات، لم يكونوا ثنائيي اللغة، على ما نعنيه اليوم من «الثنائية». أما مسألة اعتبارنا، وعن غير وعي، اللغة العامية لغة ركيكة «لا يضيرها أن تكون خشنة غنية بالمسبّات، وبالصور التي تفرض سلوكاً معيّناً لأنها عامية»[٨٠]، فأمر يحتاج إلى بحوث تربوية وسيكولوجية واسعة لإثباته، وإن سلمنا جدلاً بصحته، يكون الخطأ خطأنا وليس خطأ لغتنا.

هـ – أثر ثنائية اللغة في الفنون الجميلة: لقد أعاد فريحة مسؤولية تأخر المسرح عندنا، إلى ثنائية الفصحى والعامية، أو إلى وجود الفصحى، لأنّ هذه لا تناسب المسرح. ومما يسترعي الانتباه أنّه كثيراً ما قام الجدال، حول قضية استعمال العامية للحوار القصصي، فثمّة فئة تؤثر أن تنطق الشخصيات بلهجاتها الطبيعية الخاصّة في مواقف الحوار والمناقشة، ومنهم

---

(٨٠) أنيس فريحة: نحو عربية ميسرة ص ١٦٢.

توفيق الحكيم[٨١] في «عودة الروح». وفئة أخرى تنوب عن شخصياتها في الحديث، دون أن تبالي إن كان هذا الحديث صادقاً معبّراً أم مفتعلاً مزوّراً. ومن هذه الفئة طه حسين الذي، على قلّة لجوئه إلى الحوار، لا يعمد إلى العامية مطلقاً، بل يجري على لسان شخصياته، على اختلاف طبقاتها ومستوياتها، حواراً أدبياً مختاراً. وفئة ثالثة تُؤثر استعمال العامية المفصّحة أو الفصحى المبسّطة، ومن هذه الفئة نجيب محفوظ[٨٢].

ولا شكّ في أن الفصحى، لا تناسب بعض المسرحيات، وخاصّة تلك التي تمثّل حياتنا الحاضرة، لكنّ تأخر المسرح أو تقدّمه، لا يعود إلى ثنائية اللغة، أو وحدتها، بل إلى عوامل لا تمتّ بصلة إلى اللغة، كالمؤلّف، والمنتج، والمخرج، والممثّل، ووجود المسارح، ومقدار تشجيع الحكومات للحركة المسرحية، إلى غير ذلك من عوامل، قد تؤثّر على المسرح سلباً أو إيجاباً. فوجود الفصحى، لا يمنع المؤلّف أو كاتب الحوار من استعمال العامية، وها هي أكثر المسرحيات، التي تمثّل اليوم، على مسارحنا، تعتمد اللغة العامية.

ومع نفي أثر ثنائية اللغة السيّء في اللغة، لا بدّ من الملاحظة، أن لهذه الثنائية، أثراً إيجابياً في تطوّر الفنون الجميلة، والمسرح منها بصورة خاصّة. فمن المسرحيات ما تصلح لها الفصحى أكثر من العامية، كالمسرحيات التاريخية، والفكرية، والمترجمة، إذ إنّ «طبيعة الشخصيات وبعدها التاريخي في المسرحية التاريخية، لا يجعل لها وجوداً عصرياً يتناقض مع حديثها باللغة الفصحى. والمستوى الفكري للحوار في الأعمال الفكرية،

---

(٨١) (١٩٠٢ -   ) أديب مصري من روّاد القصّة والمسرحيّة العربيّة المعاصرة. ولد في الاسكندرية. له: «عودة الروح»، و«يوميات نائب في الأرياف»، و«الضيف الثقيل».

(٨٢) محمد يوسف نجم: فن القصّة. دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت ١٩٥٥ ص ١١٥ - ١١٧. ونجيب محفوظ أديب وروائي مصري. بدأ حياته الأدبية بكتابة القصّة القصيرة والمقالة وانتهى إلى كتابة الرواية. له: «أولاد حارتنا»، و«بداية ونهاية» و«خان الخليلي».

يقتضي لغة مارست التعبير عن القضايا الفكرية، وأصبحت لها قدراتها وتقاليدها المعروفة في ذلك المجال. أما في المسرحية المترجمة، فقد يبدو غريباً، أن تتحاور الشخصيات الأجنبية بلهجة عربيّة عامية، تناقض وجودها في نفس المشاهد. ويكون من الخير في مثل هذه المسرحيات، أن تتحدّث الشخصيات بلغة ليس فيها من الروح المحلّية الخالصة، ما يبدو غريباً أو مضحكاً في بعض الأحيان، على لسان الشخصيات غير العربية »[٨٣]. ولا يعقل أن نكتب حوار مسرحية، تصوّر ناحية من العصر الجاهلي أو الإسلامي أو الأموي، إلا باللغة الفصحى، ذلك لأن المسرحيّة تصوير للحياة، والفصحى جزء من حياة تلك الأعصر. هذا فضلاً عن أن اعتماد الفصحى في الحوار المسرحي، يمكّن المسرحية من الانتقال إلى الدول العربية كافّة، مما يساعد على تشجيع التأليف المسرحي، وعلى الاستفادة مادياً ومعنوياً. ونلاحظ اليوم أنّ معظم المسلسلات التلفزيونية العربيّة، يُمثَّل باللغة الفصحى، وذلك لكي يتسنّى تسويقها في الدول العربية كافة.

وما يصحّ على المسرحية، يصحّ على الغناء والأدب. فالغناء بالفصحى، يساعد على انتشار الأغنية في جميع الدول العربية. أمّا الأدب، فإن أحد أسباب تطوره الرئيسة، يعود إلى وجود هذه اللغة الفصحى، التي بفضلها، نستطيع الاستفادة من التراث العربي القديم، ومن إنتاج أدباء الدول العربية كافة.

٨- مناقشة الدعوة إلى العامية

إن كون العامية أسهل من الفصحى، أمر واضح لا يحتاج إلى برهان يثبته، ذلك أن الفصحى، في جميع لغات العالم، تقف عند مرحلة معيّنة من

(٨٣) عبد القادر القط: من فنون الأدب: المسرحية والشعر ص ٣٩.

التطور اللغوي، ثم تتقيّد بقواعد تلك المرحلة وأحكامها، بخلاف العامية التي لا تنفك تتطوّر على ألسنة الناس، حتى تبلغ أقصى درجات السهولة والمرونة. فالناس، في محادثاتهم اليومية، ينزعون غالباً إلى الاقتصاد، وإلى التخلّص من قيود الفصحى، في مختلف مستويات اللغة. ولعلّ من أهم دلائل سهولة العامية، تخلّصها من الإعراب، واكتفاءها باسم موصول واحد هو «اللي»[٨٤]، مقابل أسماء موصولة عدّة في الفصحى، ينتظمها جدول طويل، تتوزّع فيه زُمَراً تبعاً للعدد والجنس.

أما الدعوة إلى العامية، فإذا بحثناها من زاوية علمية سكونية محض، أي إذا عزلناها تماماً عمّا يلازمها ويرتبط بها من مختلف القضايا الاجتماعية والفكرية، وحصرناها في إطار النظر العقلي والعلمي المجرد، ولم نبحثها من وجهة نظر جدلية منفتحة تأخذ بعين الاعتبار جميع العلائق والارتباطات الدينامية القائمة فعلاً بين اللغة وسائر البنيات الإيديولوجية والحياتية في داخل المجتمع وخارجه، لن نلقى في معظم الحجج والبراهين التي يقدّمها أنصار العامية، ما يخالف المنطق أو الصواب. فالقول بأن الثنائية بلغت مستوى الذروة، لأن الفصحى قد هجرت الأفواه، قول لا يمكن أن ينكره كل ذي حسّ لغوي سليم. والقول كذلك بأن لغة الفم هي لغة الحياة وهي ذروة التطور الذي بلغته الفصحى من خلال ممارستها العملية الحيّة، ومن خلال التفاعل الذي كان لها مع مختلف المؤثّرات، قول مستند إلى حقيقة التطوّر، وحقيقة المعطيات الواقعية والعلمية. والقول بأن للثنائية، في حدود هذا البعد الشاسع بين اللسانين، تأثيراً سلبياً أكيداً في صفاء النمو العقلي، وصلابة الشخصية وتماسكها عند جيل المتعلّمين الصغار، قول لا يمكن أن تنكره أبسط مبادىء التربية وعلم النفس.

---

(٨٤) إن هذا الاسم يلازم شكلاً واحداً في جميع التراكيب في العامية، فتقول: «الولد اللي راح»، و«الأولاد اللي راحوا»، و«البنات اللي راحت»... الخ.

أما إذا بحثنا مسألة الدعوة إلى العامية، من زاوية ارتباطاتها الدينامية القائمة بين اللغة وسائر البنيات الإيديولوجية والحياتية، وهذا هو البحث الصحيح لكل مؤسّسة اجتماعية وبخاصّة اللغة التي لها وظائف تؤدّيها داخل المجتمع، غير وظيفة «الإيصال» أو «التوصيل»، ولا تقل عن هذه الوظيفة أهمّية[٨٥]، نجد أنّ لهذه الدعوة أضراراً كبيرة وخطرة، فهي من ناحية تقضي على إيجابيات الثنائية التي أظهرناها في مناقشتنا فريحة في أثر ثنائية اللغة في المجتمع[٨٦]، وهي من ناحية أخرى تُوقعنا في مشاكل مستحيلة الحل، كما تُلحق بنا أضراراً كبيرة أوضحها أنصار الفصحى في ردودهم على الداعين إلى العامية[٨٧]. وتتلخّص هذه الأضرار بما يلي:

١ - إنها تهدم بناية التصانيف العربية بأسرها، وتضيّع الكثير من أتعاب علمائنا المتقدّمين. ولقد كان التطوير اللغوي نكبة على أصحابه، إذ لم يحكم على تراثهم القديم المشترك بالموت وحسب، بل هو ما يزال يقضي بين الحين والآخر على التراث القومي لكل شعب من هذه الشعوب بالاندثار. فالإنكليزي، الذي من عامة الشعب، لا يفهم اليوم لغة شكسبير[٨٨] الذي مات في القرن السابع عشر، بينما لا يستطيع أن يقرأ لغة من كان قبل شكسبير إلا قلّة من المتخصّصين. أما نحن العرب، وعلى اختلاف أقدارنا من الثقافة، فإننا نقرأ قصائد امرىء القيس[٨٩] ورسائل الجاحظ وغيرها،

---

(٨٥) انظر الفصل الأول من كتابنا هذا.

(٨٦) انظر النقطة السابعة من نقاط هذا الفصل.

(٨٧) انظر محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. ط ٣. دار النهضة العربية. بيروت. ١٩٧٢ ج ٢ ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٨٨) شاعر مسرحي انكليزي في مصاف رجال الأدب العالمي، امتاز بتحليله عواطف القلب البشري من حب وبغض. له: «هملت»، و«عطيل»، و«روميو وجوليات» (جبور عبد النور: المعجم الأدبي ص ٣٥٩).

(٨٩) من أشهر شعراء المعلّقات (٥٠٠ - ٥٤٠؟) لقّب بـ«الملك الضليل» وبـ«ذي =

فنفهمها جميعاً، إلا قليلاً مما ترجع صعوبته إلى دقة المعاني وصعوبة بعض المفردات.

٢ - إن العرب سيضطرون معها إلى ترجمة القرآن الكريم إلى العامية، مما يفقده الكثير من سحره وإعجازه وتأثيره في النفوس.

٣ - إن لهجات العامة لا يمكن الاعتماد عليها لتباينها واختلاف أوضاعها. لأنه، إنْ أردنا اعتماد العامية، لا ندري على أيِّ لغة من لغاتها يجب الاعتماد، وبين كل لغة من لغاتها وأختها من تباين اللهجة واختلاف الأوضاع، ما لا يقل عن الفرق بين إحداها وبين اللغة الفصحى. وهكذا فإن اعتماد لهجة معيّنة في الكتابة لا يقضي على الثنائية اللغوية، إلا في منطقة واحدة من المناطق، وهي المنطقة التي جعلنا لغة الحديث فيها لغة كتابتها.

٤ - إنّ اعتماد كل قطر عربي لهجته الخاصّة به يؤدّي إلى إضعاف التواصل بين الدول العربية، ولا يخفى ما لهذا الإضعاف من أضرار في مختلف المجالات. ولا شك في أن وحدة العرب اللغوية أقوى من وحدتهم السياسية، فيوم تفككت الدولة العباسية إلى دويلات متنافرة بقيت اللغة الفصحى تجمع هذه الدويلات جميعاً. ومن خلال هذه الوظيفة القومية للغة، واجه رجال الثورة الفرنسية مشكلة تعدد اللهجات، فكان رأيهم ما قاله على لسانهم الراهب غريغوار: «إن مبدأ المساواة الذي أقرّته الثورة يقضي بفتح أبواب التوظيف أمام جميع المواطنين، ولكن تسليم زمام الإدارة إلى أشخاص لا يحسنون اللغة القومية، يؤدّي إلى محاذير كبيرة. وأما ترك هؤلاء خارج ميادين الحكم والإدارة فيخالف مبدأ المساواة. فيترتّب على الثورة،

= القروح». له ديوان شعري ينطوي على فخر ووصف وغزل ووقوف على الطلل... الخ (فردينان توتل: المنجد في الأعلام ص ٣).

والحالة هذه، أن تعالج هذه المشكلة معالجة جدية، وذلك بمحاربة اللهجات المحليّة، ونشر اللغة الفرنسية الفصيحة بين جميع المواطنين »[٩٠]. واستناداً إلى هذا الدور الذي تؤدّيه الفصحى في مجال تعزيز القومية العربية، نرى أننا في عصر أحوج ما نكون فيه إلى هذا التعزيز. لذلك نعجب حين نسمع من ينادي منا بتمزيق لغتنا وأداة وحدتنا، في حين تتوالى الدعوات في بلاد الغرب، إمّا إلى لغة عالمية تجمع جميع سكان الأرض كافة (لغة الاسبيرنتو)، وإمّا إلى وضع لغة غربية تضمن للغرب وحدة روحية[٩١].

والذي نراه أن محاسن الفصحى أكثر من مساوئها، ومساوىء العامية أكثر من محاسنها، وأنه، إن كان من أهم مقومات الثقافة أن يتقن الإنسان عدة لغات بحيث قال الحلي[٩٢]:

بقـدْرِ لغات المرء يكثُرُ نفعُه ... وتلك له عند الشدائد أعوانُ
فبادرْ إلى حفظِ اللغات مسارعـاً ... فكلُّ لسان بالحقيقةِ إنسانُ[٩٣]

فأحرى بالعربي أن يتعلّم بالدرجة الأولى لغة تراثه وقرآنه وأداة تفاهمه مع مواطني الدول العربية الأخرى.

---

(٩٠) عن ساطع الحصري: آراء وأحاديث في اللغة والأدب، ط ١. دار العلم للملايين. بيروت. ١٩٥٨ ص ٧٠.

(٩١) لقد دعا العالم الفرنسي جوليان باندا Jullien Penda في العام ١٩٤٦ إلى تلك اللغة بقوله: « إذا كنا نريد أن نضمن للغرب وحدة روحية فعلينا أن نجهز الحملات في سبيل إنشاء لغة غربية تضاف إلى لغات مختلف القوميات الغربية ». (عن كمال الحاج: في فلسفة اللغة، ص ٢٥٦).

(٩٢) عبد العزيز بن سرايا، صفي الدين الحلي (١٢٧٨ - ١٣٤٩ م). ولد ونشأ في الحلة (بين الكوفة وبغداد). شاعر عصره. توفي ببغداد. له ديوان شعري و« العاطل الحالي » و« الأغلاطي » و« درر النُحور » (الزركلي: الأعلام. ج ٤ ص ١٧ - ١٨).

(٩٣) عن كمال الحاج: في فلسفة اللغة. ص ٢٨١.

أما بالنسبة لمسألة ثنائية الفصحى والعامية، فالواقع الذي لا بد من الإقرار به، هو أن خط التطور اللغوي اليوم، تحت تأثير وسائل الإعلام وكثافتها من ناحية، ونتيجة ارتفاع مستوى الثقافة من ناحية أخرى، يسير عملياً بالفصحى إلى ملاقاة العامية في كثير من الخصائص الجوهرية الحيّة التي تتصف بها اللغة العامية اللبنانية وسائر العاميات في البلاد العربية، من عدم اعتادها على الإعراب للدلالة على المعاني المختلفة، والاستغناء الكلي عن محنّطات الصيغ الكلامية التي زالت تماماً من واقع الإحساس والفكر والحياة، والابتعاد عن التقعُّر في الألفاظ، وقبول عدد كبير جداً من ألفاظ المخترعات الحديثة... الخ.

هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى، فلا شك في أن نشر التعليم وجعله إجبارياً في مرحلتيه: الابتدائية والمتوسِّطة، وتحسين وسائل التدريس، وإعداد المعلم الصالح، ونقل العلوم إلى العربية، وتبسيط قواعد النحو والصرف... الخ، هي من أنجع الوسائل في تضييق الهوّة التي نراها بين فصحانا وعاميتنا، وفي التخفيف، إلى حد كبير، من سلبيات ثنائية الفصحى والعامية عندنا.

وقد يكون من المفيد في مجال ردم الهوّة بين العامية والفصحى، الاعتناء بجمع كل المفردات العامية، ورد الاعتبار إلى كل ما يمكن رد الاعتبار إليه، وتصحيح كل ما يمكن تصحيحه منها بغير إبعاد لها عن صورتها كلما أمكن ذلك[٩٤]. وفي مثل هذا فائدة كبيرة، وبخاصّة للشاعر والكاتب ومعلّم العربية وطالبها، فلا يعود المعلّم يُقدِم على شجب ألفاظ يستخدمها الطالب في إنشائه، بحجّة أنها عامية نابية، ولا يعود الطالب يتشكّك في مفردات لغته، أو يشعر أن لغته عاجزة عن إظهار شعوره ومكنونات نفسه.

(٩٤) انظر في الصدد هذا أحمد رضا: قاموس رد العامي إلى الفصيح ط ٢. دار الرائد العربي. بيروت. ١٩٨١.

الفصل التاسع

في الترادف والاشتراك والتضاد

«وإن أردت أنّ سائر اللغات تُبين إبانة اللغة العربية، فهذا غَلَط، لأنّا لو احتجنا إلى أن نعبّر عن السَّيف وأوصافه باللغة الفارسية، لما أمكننا ذلك إلا باسم واحد، ونحن نذكر للسيف بالعربية صفات كثيرة، وكذلك الأسد والفرس وغيرهما من الأشياء المسمّاة بالأسماء المترادفة. فأين هذا من ذاك؟ وأين لسائر اللغات من السَّعة ما للغة العرب؟».

أحمد بن فارس

١ - المترادف

أ- تعريفه

المترادف (Synonyme) في اللغة هو ما اختلف لفظه واتفق معناه، أو هو إطلاق عدّة كلمات على مدلول واحد، كالأسد والسبع واللّيث وأسامة و.. التي تعني مسمّى واحداً، والحسام والسيف والمهنّد واليماني و... بمعنى واحد، والعسل والشهد، وريّق النحل، وقيء الزنابير، والحميت، والتحموت[1] و.. تدل على مدلول واحد. والعربية من أغنى لغات العالم

(١) السيوطي: المزهر ج ١ ص ٤٠٧.

بالمترادفات، وربّما كانت أغناها على الإطلاق. فللسيف مثلاً أكثر من ألف اسم، وللأسد خمسمئة اسم وللداهية أكثر من أربعمئة[٢]، وللثعبان مئتان، وللعسل أكثر من ثمانين، ولكل من المطر والنّاقة والماء والبئر والنور والظلام وغيرها من الأشياء التي عرفها العربي في جاهليته، والصفات: طويل، قصير، كريم، بخيل، شجاع، جبان.. الخ عشرات من الألفاظ. وقد جمع أحد المستشرقين المفردات العربية المتصلة بالجمل وشؤونه، فوصلت إلى أكثر من أربع وأربعين وستمئة وخمسة آلاف[٣].

ب- موقف الباحثين منه

أنكر بعض العلماء وقوع الترادف في العربية، والتمسوا فروقاً دقيقة بين الكلمات التي يُظَنُّ فيها اتحاد المعنى. فكان ثعلب يرى أنَّ ما يظنه بعضهم من المترادفات، هو من المتباينات[٤]. ويروى أن أبا علي الفارسي قال: «كنت بمجلس سيف الدولة بحلب وبالحضرة جماعة من أهل اللغة ومنهم ابن خالويه[٥]، فقال ابن خالويه: أحفظ للسيف خمسين اسماً، فتبسّم أبو علي وقال: ما أحفظ له إلا اسماً واحداً وهو السيف. قال ابن خالويه، فأين المهنّد والصّارم وكذا وكذا؟ فقال أبو علي: هذه صفات»[٦]. كذلك ذهب ابن فارس مذهب معلّمه ثعلب فأنكر وقوع الترادف قائلاً: «ويُسمّى

(٢) وقد قيل: أسماء الدواهي من الدواهي.
(٣) عن علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٦٩.
(٤) السيوطي: المزهر ج ١ ص ٤٠٣. والمتباين هو ما اختلف لفظه واختلف معناه.
(٥) الحسين بن أحمد (؟ - ٩٨٠ م) لغوي، من كبار النحاة. أصله من همذان.
استوطن حلب، بعد أن عهد إليه سيف الدولة بتأديب أولاده، وتوفي فيها. من كتبه: «ليس في كلام العرب»، و«شرح مقصورة ابن دريد»، و«الاشتقاق» و«المقصور والممدود» (الزركلي: الأعلام. ج ٢ ص ٢٣١).
(٦) السيوطي: المزهر. ج ١ ص ٤٠٥.

الشيء الواحد بالأسماء المختلفة نحو: السَّيف والمهنَّد والحُسام. والذي نقوله في هذا إن الاسم واحد هو السَّيف، وما بعده من الألقاب صفات. ومذهبنا أنّ كل صفة منها فمعناها غير معنى الأخرى... وأما قولهم إنّ المعنيين لو اختلفا لما جاز أن يعبِّر عن الشيء بالشَّيء، فإنّا نقول: إنما عبَّر عنه عن طريق المشاكلة، ولسنا نقول إنّ اللفظتين مختلفتان فيلزمنا ما قالوه، وإنّما نقول: إنّ في كل واحدة منهما معنى ليس في الأخرى[٧] ».

وقد حرص بعض العلماء على إظهار الفروق الدقيقة بين الألفاظ المستعملة والتي يُظن أنها من قبيل الاشتراك، فأفرد الثعالبي في كتابه « فقه اللغة وسر العربية » فصلاً في « أشياء تختلف أسماؤها وأوصافها باختلاف أحوالها »[٨]. ومن العلماء من توسَّط فقال: « وينبغي أن يحمل كلام من منعه [أي الاشتراك]، على منعه في لغة واحدة، فأما في لغتين فلا ينكره عاقل »[٩].

ونرى أنه من التعسُّف الشديد، إنكار وجود الترادف في العربية، وإيجاد معنى لكل اسم من أسماء الأسد أو السيف أو العسل أو الداهية أو.. الخ، يختلف عن غيره في بعض الصِّفات أو التفاصيل. فالترادف ظاهرة لغوية طبيعية في كل لغة نشأت من عدة « لهجات » متباينة في

---

(٧) ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. ص ٩٦ – ٩٧.

(٨) وهو الفصل الأول من الباب الثالث، ينقل فيه عن أبي عبيدة أنه « لا يقال كأس إلاّ إذا كان فيها شراب، وإلاّ فهي زجاجة. ولا يقال مائدة، إلاّ إذا كان عليها طعام وإلاّ فهي خِوان. ولا يُقال كوز إلاّ إذا كانت له عُروة وإلا فهو كوب. ولا يقال قلم إلا إذا كان مبرياً وإلاّ فهو أنبوبة. ولا يقال خاتَم إلاّ إذا كان فيه فَصٌّ وإلاّ فهُو فَتْخة. ولا يقال فَرْو إلاّ إذا كان عليه صوف وإلاّ فهو جِلْد. ولا يقال ريطة إلاّ إذا لم تكن لفقين [قطعتين] وإلاّ فهي ملاءة [جنس من الثياب تلبسه النساء]. ولا يقال أريكة إلاّ إذا كانت عليها حَجَلَة وإلاّ فهو سرير. ولا يقال لطيمة [وعاء المِسك]، إلاّ إذا كان عليها طيب وإلاّ فهي عِير ».

(٩) السيوطي: المزهر. ج ١ ص ٤٠٥.

المفردات والدلالة. وليس من الطبيعي أن تسمّي كل القبائل العربية الشيء الواحد باسم واحد. وعليه نرى أن الترادف واقع في اللغة العربية الفصحى التي كانت مشتركة بين قبائل العرب في الجاهلية، وكان من الطبيعي أن نقع على بعض الكلمات في القرآن الكريم[١٠]، لنزوله بهذه اللغة المشتركة[١١].

ج- أسبابه

إن كثرة المترادفات في اللغة العربية يعود إلى الأسباب التالية[١٢]:

١- انتقال كثير من مفردات اللهجات العربية إلى لهجة قريش بفضل طول الاحتكاك بينها. وكان بين هذه المفردات كثير من الألفاظ التي لم تكن قريش بحاجة إليها لوجود نظائرها في لغتها، مما أدّى إلى نشوء الترادف في الأسماء والأوصاف والصيغ.

٢- أخذ واضعي المعجمات عن لهجات قبائل متعدّدة[١٣]، كانت مختلفة في بعض مظاهر المفردات، فكان من جراء ذلك أن اشتملت المعجمات على مفردات غير مستخدمة في لغة قريش ويوجد لمعظمها مترادفات في متن هذه اللغة.

٣- تدوين واضعي المعجمات كلمات كثيرة كانت مهجورة في الاستعمال ومستبدلاً بها مفردات أخرى.

٤- عدم تمييز واضعي المعجمات بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي،

---

(١٠) انظر بعض أمثلة هذه الكلمات في كتاب صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة ص ٣٠٠.

(١١) انظر الفصل السادس من كتابنا هذا.

(١٢) علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة. ص ١٧٢ - ١٧٥.

(١٣) هي قبائل قيس عيلان وتميم وأسد وهذيل وقريش وبعض كنانة وبعض الطائيين. (انظر عبد الله البستاني: البستان. المطبعة الأميركانية. بيروت ١٩٢٧ ج ١ ص ٣٤).

فكثير من المترادفات لم توضع في الأصل لمعانيها، بل كانت تستخدم في هذه المعاني استخداماً مجازياً.

٥- انتقال كثير من نعوت المسمّى الواحد من معنى النعت إلى معنى الاسم الذي تصفه. فالهندي والحُسام واليماني والعضب والقاطع من أسماء السيف يدل كل منها في الأصل على وصف خاصّ للسيف مغاير لما يدل عليه الآخر.

٦- إن كثيراً من المترادفات ليست في الحقيقة كذلك، بل يدل كل منها على حالة خاصة من المدلول تختلف بعض الاختلاف عن الحالة التي يدل عليها غيره. فرمَقَ ولَحَظَ وحَدَجَ وشَفَن ورنا مثلاً يعبِّر كل منها «عن حالة خاصّة للنظر تختلف عن الحالات التي تدل عليها الألفاظ الأخرى. فرمق يدل على النظر بمجامع العين، ولحظ على النظر من جانب الأذن، وحدجه معناه رماه ببصره مع حدة، وشفن يدل على نظر المتعجب الكاره، ورنا يفيد إدامة النظر في سكون، وهلمّ جرًّا»[١٤].

٧- انتقال كثير من الألفاظ السامية والمولَّدة والموضوعة والمشكوك في عربيتها إلى العربية، وكان لكثير من هذه الألفاظ نظائر في متن العربية الأصلي.

٨- كثرة التصحيف في الكتب العربية القديمة، وبخاصة عندما كان الخط العربي مجرّداً من الإعجام والشكل.

(١٤) علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٧٤.

٢ - المشترك اللفظي

أ- تعريفه

يقابل المشترك اللفظي Homonyme المترادف، وهو كل كلمة لها عِدَّة معانٍ حقيقية غير مجازية، أو هو «اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل اللغة»(١٥). ومن أمثلته لفظ «الحوب» الذي يطلق على أكثر من ثلاثين معنى، منها: الإثم، الأخت، البنت، الحاجة، المسكنة، الهلاك، الحزن، الضرب، الضخم من الجمال، رقة فؤاد الأم، زجر الجمل.. الخ. وكلفظ الخال الذي يطلق على أخ الأم، وعلى الشامة في الوجه، والسحاب، والبعير الضخم، والأكمة الصغيرة.. الخ.

ب- موقف الباحثين منه

اختلف الباحثون في مسألة ورود المشترك اللفظي في اللغة العربية، إذ أنكره فريق منهم مؤوِّلاً أمثلته تأويلاً يخرجها من بابه كأن يجعل إطلاق اللفظ في أحد معانيه حقيقة وفي المعاني الأخرى مجازاً. وكان في طليعة هذا الفريق، ابن دُرُسْتُويه(١٦) في كتابه «شرح الفصيح»، فإذا ظن اللغويون أن لفظ «وجد» مثلاً يفيد عدة معان: عثر، غضب، تفانى في حبه، فإنه لا يسلّم بأن هذا لفظ واحد قد جاء لمعان مختلفة، «وإنما هذه المعاني كلها شيء واحد، وهو إصابة الشيء خيراً أو شرًّا، ولكن فرّقوا بين المصادر، لأن المفعولات كانت مختلفة، فجعل الفرق في المصادر بأنها أيضاً مفعولة، والمصادر كثيرة التعاريف جداً، وأمثلتها كثيرة مختلفة، وقياسها غامض، وعللها خفية، والمفتشون عنها قليلون، والصبر عليها معدوم، فلذلك توهّم

---

(١٥) السيوطي: المزهر. ج ١ ص ٣٦٩.

(١٦) عبد الله بن جعفر (٨٧١ - ٩٥٨ م)، من علماء اللغة، فارسي الأصل، اشتهر وتوفي ببغداد. له تصانيف كثيرة، منها «الكتّاب»، و«معاني الشعر»، و«الإرشاد» و«نقض كتاب العين» (الزركلي: الأعلام. ج ٤ ص ٧٦).

أهل اللغة أنها تأتي على غير قياس، لأنهم لم يضبطوا قياسها، ولم يقفوا على غورها »[١٧].

وذهب فريق آخر إلى كثرة وروده، فأورد له شواهد كثيرة لا سبيل إلى الشكّ فيها، ومن هذا الفريق الأصمعي وأبو عبيدة[١٨] وأبو زيد، الذين أفردوا لأمثلته مؤلّفات على حدة.

والحق أن الاشتراك اللفظي، ظاهرة لغوية موجودة في معظم لغات العالم، ومن التعسّف إنكار وجودها في اللغة العربية، وتأويل جميع أمثلتها تأويلاً يخرجها من هذا الباب. ففي بعض شواهده لا نجد بين المعاني التي يطلق عليها اللفظ الواحد أي رابطة تسوّغ هذا التأويل. وقد كان له عند أصحاب البديع، وبخاصة المتأخرون، مكانة مرموقة، فلولاه ما راجت سوق التورية[١٩] والاستخدام[٢٠] والجناس التام[٢١] وطرق التعمية والإيهام.

---

(١٧) السيوطي: المزهر. ج ١ ص ٣٨٤.

(١٨) مَعْمَر بن المُثَنّى (٧٢٨ – ٨٢٤ م). من أئمة الأدب واللغة. مولده ووفاته في البصرة. له نحو مئتي مؤلف، منها «نقائض جرير والفرزدق»، و«مجاز القرآن»، و«المَقَقة والبَرَرة»، و«مآثر العرب» و«ما تلحن فيه العامّة». (الزركلي: الأعلام. ج ٧. ص ٢٧٢).

(١٩) هي أن يضع القائل في كلامه كلمة لها معنيان: أحدهما قريب يدل عليه ظاهر الكلام، والآخر بعيد يقصده القائل.

(٢٠) يفهم على طريقتين: أولاهما، إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، مع إرادة أحد المعنيين، ثم الإتيان بضمير عائد على هذا اللفظ مع إرادة المعنى الثاني، نحو قوله تعالى: «فمن شهد منكم الشهر فليصمه». فكلمة «الشهر» أريد بها الهلال، ثم أعيد عليها الضمير في يصمه مع قصد أيام رمضان. وثانيهما إطلاق لفظ مشترك بين معنيين ثم الإتيان بلفظين، أو ضميرين يُفهم من أحدهما أحد المعنيين، ومن الثاني المعنى الآخر، نحو قول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

فالسماء لها معنيان: المطر والكلأ، والضمير في «نزل» يعود إلى المطر، وهو في «رعيناه» يعود إلى «الكلأ».

(٢١) هو كلمتان اتفقتا لفظاً في عدد الحروف وترتيبها ونوعها وحركاتها، واختلفتا معنى.

ج- أسبابه

أعاد الباحثون سبب الاشتراك اللفظي في اللغة العربية إلى عوامل عِدَّة منها[٢٢]:

١ - اختلاف اللهجات العربية القديمة. فمعظم ألفاظ المشترك جاء نتيجة اختلاف القبائل في استعمالها[٢٣]، وعندما وُضعت المعاجم، ضمَّ أصحابها المعاني المختلفة للفظ الواحد، دون أن يُعْنوا بنسبة كل معنى إلى القبيلة التي كانت تستعمله.

٢ - التطور الصوتي الذي يطرأ على بعض أصوات اللفظ الأصلية من حذف أو زيادة، أو إبدال، فيصبح هذا اللفظ متحداً مع لفظ آخر يختلف عنه في المدلول. فقد طرأ مثلاً على لفظة « النغمة » واحدة « النغم »، تطور صوتي بإبدال الغين همزة لتقارب المخرج، فقيل « النأْمة » بمعنى النَّغْمة. وكذلك بالنسبة لـ « جَذْوة » و « جَثْوة »، و « الغَشْم » و « الغشْبُ » (التعدي والظلم).

٣ - انتقال بعض الألفاظ من معناها الأصلي إلى معانٍ مجازيّة أخرى لعلاقة ما، ثم الإكثار من استعمالها، حتى يصبح إطلاق اللفظ مجازاً في قوة استخدامه حقيقة. ومن ذلك لفظ « العين » مثلاً فإنه يطلق على

(٢٢) انظر ربحي كمال: التضاد في ضوء اللغات السامية. نشر جامعة بيروت العربية. بيروت ١٩٧٢ ص ٦ - ٨. وعلي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٩١ - ١٩٢.

(٢٣) من هذا الاختلاف ما يروى أن رجلاً من بني كلاب أو من بني عامر بن صعصعة، خرج إلى ذي جَدَن من ملوك اليمن، فأطلع إلى سطح والملك عليه، فلما رآه الملك قال له: ثِبْ، يريد « اقعد »، فظن الرجل أنه أمره بالوثوب، فقال: « لَتَجِدُني أيها الملك مطواعاً » ثم وَثَبَ من السطح ودُقَّت عنقه. فقال الملك: « ما شأنه »، فقالوا له إن الوثب في كلام نزار الوثوب إلى أسفل، فقال الملك: ليست عربيتنا كعربيتهم. مَنْ دَخلَ ظفار حمَّر (أي عليه أن يتكلَّم بلهجة حمير). (انظر ابن فارس: الصاحبي في فقه اللغة. ص ٥١).

العين الباصرة، وعلى العين الجارية، وعلى أفضل الأشياء وأحسنها، وعلى النقد من الذهب أو الفضّة.. الخ.

٤- العوارض التصريفية التي تطرأ على لفظين متقاربين في صيغة واحدة، فينشأ عنها تعدّد في معنى هذه الصيغة. ومن الأمثلة على هذا النوع من الاشتراك لفظ «وجد» فيقال: وجد الشيء وجوداً أو وجداناً إذا عثر عليه، ووجد عليه موجدةً إذا غضب، ووجد به وجداً إذا تفانى في حبّه[٢٤].

٣- التضاد

أ- تعريفه

هو أن يطلق اللفظ على المعنى وضدّه. فهو، إذاً، نوع من المشترك اللفظي، فكل تضاد مشترك لفظي وليس العكس. ومن أمثلته الأزر: القوّة أو الضعف، والبسل: الحلال أو الحرام، وبلَق الباب: فتحه كله أو أغلقه بسرعة، تَلَّ: دكّ أو رفع، الحميم: الماء البارد أو الحار، المولى: العبد أو السيد. الذّوح: الجمع أو التفريق، الرّسّ: الإصلاح أو الفساد، الرّعيب: الشجاع والجبان، الرّهوة: ما ارتفع من الأرض أو ما انخفض، الجون: الأبيض أو الأسود.. الخ[٢٥].

ب- موقف الباحثين منه

بما أن التضاد نوع من الاشتراك اللفظي، فقد اختلف الباحثون بصدد وروده في اللغة العربية، اختلافهم في ورود المشترك اللفظي نفسه، وقد

(٢٤) السيوطي: المزهر. ج ١ ص ٣٨٤.
(٢٥) ربحي كمال: التضاد في ضوء اللغات السامية ص ٦٩ - ٩٧.

كان من الطبيعي أن ينكره ابن دُرُستُويه لإنكاره الاشتراك اللفظي، فأفرد كتاباً لتأييد رأيه سمّاه «إبطال الأضداد[٢٦]». وذهب فريق إلى كثرة وروده، وأورد له شواهد كثيرة ومنهم الخليل وسيبويه وأبو عبيدة والثعالبي والسيوطي[٢٧]، وقد وقف بعضهم مؤلّفات على حدة لسرد أمثلته[٢٨]، لعلّ من أشهرها وأنفسها كتاب الأضداد لابن الأنباري[٢٩] الذي أحصى فيه أكثر من أربعمئة شاهد عليه.

والحقيقة أنّ كثيراً من ألفاظ التضاد يمكن تأويله على وجه آخر يُخرجه من هذا الباب. ففي بعض الأمثلة استعمل اللفظ في ضد ما وضع له لمجرد التفاؤل كالسليم للملدوغ، والريّان والناهل للعطشان، أو للتهكم كإطلاق لفظ العاقل على المعتوه أو الأحمق. «وقد يجيء التضاد في الظاهر من اختلاف مؤدّي المعنى الواحد باختلاف المواقع. وذلك مثل كلمة «فوق» التي قالوا إنها قد تستعمل في ضد معناها الأصلي، فتأتي بمعنى دون، كما في قوله تعالى: «إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها»[٣٠] أي فما دونها. والحق أنها في هذا المثال وما إليه، تدل على معناها الأصلي، إذ تفسير الآية ما يفوق الذبابة حقارة»[٣١].

---

(٢٦) السيوطي: المزهر. ج ١ ص ٣٩٦. ولم يصلنا كتاب ابن درستويه، هذا ففاتنا الاطلاع على الأسس التي اعتمدها في مذهبه.

(٢٧) المصدر نفسه. ج ١ ص ٣٨٧. والثعالبي: فقه اللغة وسر العربية. الباب الثلاثون. الفصل السادس عشر.

(٢٨) ومن هؤلاء محمد بن المستنير المعروف بقطرب، والأصمعي، وعبد الله بن محمد التوزي، وابن السكيت، وأبو حاتم السجستاني، وابن الأنباري، وأبو الطيب عبد الواحد بن علي الحلبي، وسعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان، والصغاني.

(٢٩) محمد بن القاسم (٨٨٤ - ٩٤٠ م) من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار. ولد في الأنبار وتوفي ببغداد. من كتبه: «الزاهر»، و«خلق الإنسان» و«الأمثال»، و «التضاد» (الزركلي: الأعلام. ج ١ ص ٣٣٤).

(٣٠) البقرة: ٢٦.

(٣١) علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة. ص ١٩٦.

لكن إن كنا نستطيع أن نؤوِّل كثيراً من الكلمات التي ذكرها ابن الأنباري وغيره ممّن بالغوا في إثبات التضاد، كشواهد على ما يذهبون إليه، فإنه من التعسّف تأويلها جميعاً، حتى أنّ ابن دُرُستويه، وهو على رأس المنكرين للتضاد، قد اضطُرّ إلى الاعتراف ببعض هذه الألفاظ. فقال: «وإنما اللغة موضوعة للإبانة عن المعاني، فلو جاز لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين، وأحدُهما ضد الآخر، لما كان ذلك إبانة بل تعمية وتغطية. ولكن قد يجيء الشيء النادر من هذا لعلل..»[٣٢].

ج- أسبابه

أعاد الباحثون وجود ظاهرة التضاد في اللغة العربية إلى أسباب عدّة أهمها[٣٣]:

١ - دلالة اللفظ في أصل وضعه على معنى عام يشترك فيه الضدّان. وقد يسهو بعضهم عن ذلك المعنى الجامع فيظن الكلمة من قبيل التضاد، «فمن ذلك الصَّريم، يقال لليل صريم، والنهار صريم، لأن الليل ينصرم من النهار، والنهار ينصرم من الليل، فأصل المعنيين من باب واحد وهو القطع، وكذلك الصارخ: المغيث، والصارخ: المستغيث، سُمّيا بذلك لأن المُغيث يصرخ بالإغاثة، والمستغيث يصرخ بالاستغاثة، فأصلها من باب واحد. وكذلك السُّدفة: الظلمة، والسدفة الضوء، سُمّيا بذلك لأنّ أصل السُّدفة الستر، فكأن النهار إذا أقبل ستر ضوؤه ظلمة الليل، وكأن الليل إذا أقبل سترت ظلمته ضوء النهار»[٣٤].

---

(٣٢) عن ربحي كمال: التضاد في ضوء اللغات السامية: ص ٩.

(٣٣) المرجع نفسه ص ١٠ - ١٤.

(٣٤) السيوطي: المزهر. ج ١ ص ٤١١.

٢ - انتقال اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر مجازي. فقد يكون اللفظ موضوعاً عند قوم لمعنى حقيقي، ثم ينتقل إلى معنى مجازي عند هؤلاء أو عند غيرهم، إما للتفاؤل، كإطلاق لفظ البصير على الأعمى، والسليم على الملدوغ، والناهل للعطشان، وإما للتهكّم كإطلاق لفظ أبي البيضاء على الأسود، وإما لاجتناب التلفّظ بما يُكره كتسمية السيّد والعبد بالمولى.

٣ - اتفاق كلمتين في صيغة صرفية واحدة. ومن ذلك كلمة «مجتثّ» ومعناها الذي يجتثّ الشيء، والذي يُجتثّ. وأُصل اسم الفاعل من «اجتثّ» «مُجْتَثِث»، واسم المفعول «مُجْتَثَث»، وقد نشأ اتحاد اللفظين: اسم الفاعل واسم المفعول، من الإدغام. ومن هذا القبيل «المختار» الذي يكون بمعنى الذي يَختار والذي يُختار، و «المبتاع»، بمعنى البائع وبمعنى المبيع... الخ.

٤ - اختلاف القبائل العربية في استعمال الألفاظ. كلفظة «وَثَبَ» المستعملة عند حِمْيَر بمعنى «قَعَد» وعند مضر بمعنى «طَفِر»، وكلفظة السُّدفة التي تعني عند تميم الظلمة، وعند قيس الضوء، وكلفظ «سَجَد» الذي يعني «انتصب» عند «طيء»، و «انحنى» عند سائر القبائل..

٥ - اتحاد لفظ مع لفظ آخر مضاد وفقاً لقوانين التطور الصوتي. «مثال ذلك: أقوى الرجل فهو مُقوٍ، إذا كان ذا قوّة. وأقوى فهو مُقْوٍ، إذا كان قوي الظهر، وأقوى فهو مُقْوٍ، إذا ذهب زادُه، ونَفِذ ما عنده. قلت إنّ الأصل في مادة «قوي»، هو ضدّ الضعف، فيقال: قَوِي على الأمر: طاقه، وقاواني فقويته أي غالبني فغلبته، وقاواه: أعطاه. وتقاوى القومُ المتاع بينهم: تزايدوا حتى يُبلغوه غاية ثمنه. وأرى أنّ المعنى لم ينصرف إلى الضدّ وهو الضعف (في «أقوى» بمعنى ذهب

زادُه، ونفِد ما عنده) إلاّ لِا طرأ من تطوّر صوتي على كلمة «أخْوى» التي تؤدّي معنى الخلو والفراغ، وتدلّ على ضد «أقوى»، وذلك بإبدال الخاء قافاً لتقارب المخرج فيقال: خَوِيَ المكان: فرغ وخلا، وخويت الدار: خلت، وأخوى الزَّند: لم يُورِ وأخوى الرجل: جاع، وأخوتِ النجوم: أمْحَلَتْ فلم تُمطِر، وأقوى: افتقر، وأقوت الدار: خلت من ساكنيها، وأخوى ما عند فلان: أخذ كل شيء منه، وأقوى البقعة: أخلاها»[٣٥].

(٣٥) ربحي كمال: التضاد في ضوء اللغات السامية. ص ١٣.

الفصل العاشر

الاشتقاق(١)

«الاشتقاق عملية خلق في اللغة».

أنيس فريحة

١ - تعريفه وأنواعه

الاشتقاق في اللغة هو «أخذ شق الشيء وهو نصفه، والاشتقاق الأخذ في الكلام وفي الخصومة يميناً وشمالاً مع ترك القصد. واشتقاق الحرف من الحرف أخذه منه»(٢). وقد حافظت كل المعاجم اللغوية العربية على هذا المعنى اللغوي، دون أن تغيِّر فيه شيئاً(٣). أما في الاصطلاح، فقد أُعطي الاشتقاق تعريفات عدّة(٤)، منها: «اقتطاع فرع من أصل، يدور في

---

(١) إن الاشتقاق من أهم خصائص العربية، وربما كان أهمها، لذلك قلّما نجد كتاباً يدرس اللغة العربية إلا ويفرده بالبحث، لكن أفضل كتاب، بنظرنا، يعالج موضوع الاشتقاق هو كتاب فؤاد ترزي: الاشتقاق (منشورات كلية العلوم والآداب في جامعة بيروت الأميركية. طبع دار الكتب. بيروت ١٩٦٨). لذلك سنعتمد عليه اعتماداً كبيراً في هذا الفصل. ويليه في الأهمية كتاب عبد الله أمين: الاشتقاق (لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٩٥٨).

(٢) الجوهري: الصّحاح. مادة «شقّ».

(٣) انظر «لسان العرب»، و«القاموس المحيط»، و«تاج العروس»، و«البستان» وغيرها. مادة «شقّ».

(٤) انظر فؤاد ترزي: الاشتقاق ص ١٢ - ١٤.

تصاريفه (حروف ذلك) الأصل »، و« أخذ كلمة من أخرى بتغيير ما، مع التناسب في المعنى »، و« ردّ كلمة إلى أخرى لتناسبها في اللفظ والمعنى »، و« نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتها معنىً وتركيباً ومغايرتها في الصيغة »... إلخ. وقد ذكر التهانوي[٥] شروط الاشتقاق واختلاف الناس فيه، فقال: « اعلم أنه لا بد في المشتق، اسماً كان أو فعلاً، من أمور أحدها أن يكون له أصل، فإن المشتق فرع مأخوذ من لفظ آخر، ولو كان أصلاً في الوضع غير مأخوذ من غيره لم يكن مشتقاً. وثانيها أن يناسب المشتق الأصل في الحروف، إذ الأصالة والفرعية، باعتبار الأخذ، لا تتحقّقان بدون التناسب بينهما، والمعتبر المناسبة في جميع الحروف الأصلية، فإن الاستسباق من السبق مثلاً، يناسب الاستعجال من العجل، في حروفه الزائدة والمعنى، وليس مشتقّ منه بل من السبق. وثالثها المناسبة في المعنى، سواء لم يتّفقا فيه أو اتّفقا فيه، وذلك الاتفاق بأن يكون في المشتق معنى الأصل، إمّا مع زيادة كالضرب فإنه للحدث المخصوص والضارب فإنه لذات ما له ذلك الحدث، وإمّا بدون زيادة سواء كان هناك نقصان كما في اشتقاق الضرب من ضَرَبَ على مذهب الكوفيين، أو لا بل يتّحدان في المعنى كالمقتل مصدر من القتل. والبعض يمنع نقصان أصل المعنى في المشتقّ، وهذا هو المذهب الصحيح. وقال البعض لا بدّ في التناسب من التغاير من وجه، فلا يجعل المقتل مصدراً مشتقاً لعدم التغاير بين المعنيين، وتعريف الاشتقاق يمكن حمله على جميع هذه المذاهب »[٦].

وكانت دائرة الاشتقاق، حتى النصف الأخير من القرن الرابع

---

(٥) هو محمد علي الفاروقي (؟ - ١٧٤ م). باحث هندي. له: « كشاف اصطلاحات الفنون » و« سبق الغايات في نسق الآيات ». (الزركلي: الأعلام ج ٢ ص ٢٩٥).

(٦) التهانوي: كشاف اصطلاحات الفنون. جمعية البنجال الآسيوية. كلكته. ١٨٦٢ ص ٧٦٦ - ٧٦٧.

الهجري، لا تتعدّى الكلمات المتناسبة في اللفظ والمعنى مع ترتيب الحروف، وهذا ما يسمّى بالاشتقاق الصغير أو الأصغر. لكن ابن جني أضاف إليه في أواخر القرن الرابع الهجري، باباً آخر يشمل الكلمات المشتقّة من تقاليب اللفظة الواحدة، مفترضاً أن هذه الكلمات تشترك في معنى عام[٧]. كما أن الحاتمي[٨] اعتبر إبدال الحروف من الاشتقاق. فأصبحت أنواع الاشتقاق ثلاثة، أضاف إليها أحد المعاصرين[٩] نوعاً رابعاً هو باب النحت مطلقاً عليه اسم « الاشتقاق الكبّار ». وسنتناول بالدراسة كلًّا من هذه الأنواع الأربعة.

٢ – الاشتقاق الصغير أو الأصغر

أ – تعريفه

الاشتقاق الصغير أو الأصغر، أو العام[١٠] هو نزع لفظ من آخر أصل منه، بشرط اشتراكهما في المعنى والأحرف الأصول وترتيبها. كاشتقاقك اسم الفاعل « ضارب » واسم المفعول « مضروب » والفعل « تضارب » وغيرها من المصدر « الضرب » على رأي البصريين، أو من الفعل « ضرب » على رأي الكوفيين.

وهذا النوع من الاشتقاق هو أكثر أنواع الاشتقاق وروداً في العربية، وأكثرها أهميّة، وعليه تجري كلمة « اشتقاق »، إذا أطلقت دون تقييد،

---

(٧) ابن جني: الخصائص. ج ٢ ص ١٣٣ – ١٣٤.

(٨) محمد بن الحسن (؟ – ٩٩٨ م)، أديب نقاد من أهل بغداد. له « الرسالة الحاتمية »، و« الحالي والعاطل »، و« مختصر العربية »، و« حلية المحاضرة » (الزركلي: الأعلام. ج ٦ ص ٨٢).

(٩) هو عبد الله أمين في كتابه: الاشتقاق ص ١ – ٢.

(١٠) كما يسمّيه علي عبد الواحد وافي في كتابه: فقه اللغة ص ١٧٨.

وقد أفرده بالبحث جماعة من المتقدّمين[١١]، كما تناوله الصرفيون واللغويون على حد سواء، لكن الأوائل نظروا إلى هيئات الكلمات وصُوَرها، في الاشتقاق[١٢]، بينما بحث اللغويون عن اشتراك الكلمتين في الحروف، وفي المناسبة بينهما في المعنى، دون التفات إلى حركات أو سكون.

ب- تقسيم اللغات بالنسبة إليه

وتقسم اللغات بالنسبة لهذا النوع من الاشتقاق إلى ثلاث فئات[١٣]:

١ - اللغات الفاصلة(isolantes)وهي التي تحافظ فيها الكلمة المفردة على شكل واحد مهما اختلفت وظائفها في الجملة. ومنها اللغة الصينية. فإذا كان الضمير «أنا» في العربية، يُصبح «تُ» في نحو: «أكلتُ»، و«ني» في نحو «كافأني»، و«ي» في نحو «كتابي»، فإن الصيني يقول: «أكل أنا - كافأ أنا - كتاب أنا». أي إنّ الضمير في الصينية لا يتغيَّر من حالة الرفع إلى النصب إلى الجر بالإضافة.

٢ - اللغات اللاَّصقة (agglutimatives) وهي التي تُضيف إلى أوائل الكلمات الأصلية فيها صدوراً أو سوابق préfixes، وإلى أواخرها كواسع أو لواحق suffixes. «وقد احتفظت اللغة الإنكليزية ببعض

---

(١١) منهم قطرب (- ٢٠٦ هـ)، والأصمعي (- ٢١٥ هـ)، وأبو الحسن الأخفش (- ٢٢١ هـ)، والمبرد (- ٢٨٥ هـ)، والزجاج (- ٣١١ هـ)، وابن دريد (- ٣٢١ هـ)، وأبو جعفر النحاس (- ٣٣٨ هـ)، وعبد الرحمن بن إسحق الزجاجي (- ٣٤٠ هـ) وابن خالويه (- ٣٧٠ هـ).. إلخ. لكن لم يصلنا من كتب هؤلاء سوى كتاب ابن دريد في اشتقاق الأسماء (وهو مطبوع). وكتاب الزجاجي في اشتقاق أسماء الله تعالى وصفاته. وهو ما زال مخطوطاً وموجوداً في دار الكتب ٣ لغة ش (انظر فؤاد ترزي: الاشتقاق: ص ٣ - ٤).

(١٢) كأن يقولوا مثلاً إن اسم الفاعل يصاغ من الفعل الثلاثي على وزن «فاعل» ومن غيره على صورة المضارع، مع إبدال حرف المضارعة ميماً مضمومة، وكسر ما قبل الآخر.

(١٣) انظر: أنيس فريحة: «الاشتقاق عملية خلق في اللغة» مجلة آفاق. شتاء ١٩٥٩. الجزء الأول ص ٢٤.

خصائص هذه الفئة من اللغات. فهي تضيف مثلًا إلى جذر form السوابق الآتية: de, per, in, con, re، وغيرها، فيتغيّر المعنى الأول تبعاً لمعنى السابقة. غير أن الجذر form لا يتغيّر. وكذلك يمكن إلحاق لواحق مثل tion, al, ly, ness, ism فيتغيّر المعنى، ولكن بدون أن يطرأ تغيير ما على الجذر الأصيل. وأحسن مثال على اللغات اللّاصقة اللغة التركية »[١٤].

٣ - اللغات المتصرّفة(inflexionnelle)وهي التي نستطيع أخذ صيغ مختلفة من المادّة الواحدة منها، للدّلالة على المعاني المختلفة. ومنها اللغات الهندو - أوروبية والسامية.

وليس الاشتقاق من خصائص العربية وحسب، بل إنه من أهمّها، فالأوزان العربية كثيرة جداً، حتى أنها بلغت عند بعضهم عشرة ومئتين وألفاً[١٥]، وقد دعا بعض الباحثين[١٦]، إلى استبدال مصطلح «الاشتقاق» بمصطلح «الصرف»[١٧]، وإلى تقديم دراسة الاشتقاق على دراسة النحو[١٨].

---

(١٤) المرجع السابق ص ٢٤.

(١٥) السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. ج ٢ ص ٤.

(١٦) أنيس فريحة، تبسيط قواعد اللغة العربية على أسس جديدة، ص ٣٩. و «هذا الصرف وهذا النحو! أما لهذا الليل من آخر؟» مجلة الأبحاث، ج ٨، العدد ١، بيروت (آذار ١٩٥٥) ص ٩٢.

(١٧) وكان بعض الكوفيين يستعملون مصطلح «الاشتقاق» بدل مصطلح «الصرف» (انظر أنيس فريحة: «إعادة النظر في تعليم قواعد اللغة العربية»، المجلة التربوية. بيروت كانون الثاني، ١٩٨٠ ص ٢٣). وكان ابن جني قد ذهب إلى «أن بين التصريف والاشتقاق نسباً قريباً واتصالاً شديداً، لأن التصريف إنما هو أن تجيء إلى الكلمة الواحدة فتصرفها على وجوه شتى... وكذلك الاشتقاق» (ابن جني: المنصف في شرح كتاب التصريف للمازني، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، ط ١، البابي، القاهرة ١٩٥٤ - ١٩٦٠. ج ١ ص ٣ - ٤) ونحن نميل إلى هذا الرأي، لأن كلمة «صرف» اللّصيقة بحياة الطلاب في قولهم «صرفت الوقت»، و«صرفت الفلوس» مثلاً، لا علاقة لها من حيث اشتقاقها وبنيتها بعلم مفردات اللغة وأحكامها.

(١٨) وكان ابن جني قد ذهب إلى أنه «من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ =

ج- موقف الباحثين من أصله

كما اختلف اللغويون في تعريف الاشتقاق، كذلك اختلفوا في دائرته، فذهبت طائفة «إلى أن الكَلِم بعضه مشتقّ وبعضه غير مشتق، وذهبت طائفة من متأخّري أهل اللغة إلى أن الكَلِم كلّه مشتقّ، وقد نسب هذا المذهب للزجّاج وزعم بعضهم أن سيبويه كان يرى ذلك، وزعم قوم من أهل النظر أن الكلم كله أصل وليس منه شيء اشتقّ من غيره»[19]. كذلك اختلفوا في أصل الاشتقاق فذهب البصريون إلى أن المصدر هو أصل الاشتقاق وأن الفعل مشتقّ منه، وذهب الكوفيون، إلى عكس ذلك. وقد اعتمد كل منهما على حجج أكثرها منطقي، لتأييد وجهة نظره. وقد أورد

= بمعرفة التصريف، لأن معرفة ذات الشيء الثابتة ينبغي أن يكون أصلاً لمعرفة حاله المتنقلة» (ابن جني: المنصف في شرح كتاب التصريف للمازني ج ١، ص ٤). لكن ابن جني يعود فيسوّغ البدء بالنحو لصعوبة الصرف، ولا ندري ما إذا كان هذا التسويغ هو مجرّد الاعتذار عما وقع قبله بالفعل، أم هو تعبير عن رأيه ومنهجه في هذه القضية. وكثيرون هم اللغويون المحدثون الذين يرون أن السياق اللغوي يتكون من عناصر لغوية تأتلف فيما بينها، وتنتظم في مرتبات هرمية تسبق المرتبة الصرفية فيها المرتبة النحوية (أنظر:

Zellig Harris: Methods in structural linguistics, University of Chicago, Chicago. 1951).

والواقع أن لهذه الدعوة ما يسوّغها، ذلك أن الصرف يشكل مقدمة ضرورية لدراسة النحو. فإذا أخذنا الجملة التالية: «زيد قارىء كتاباً» فإننا لا نعرف «الوظيفة النحوية» لكلمة «كتاباً» إلا بمعرفة «البنية التصريفية» لكلمة «قارىء» كما نلاحظ أن القرائن اللفظية الدالة على أبواب النحو المختلفة، هي غالباً، عناصر تحليلية مستخرجة من الصرف، من ذلك اشتراط صيغة صرفية ما لتكون مبنى لباب نحوي ما، أي قرينة لفظية على ذلك الباب، كاشتراط المصدر للمفعول المطلق والمفعول لأجله، وكالقول بالجمود للتمييز، وبالاشتقاق للحال والنعت... إلخ. (للمزيد من الإيضاح أنظر أطروحتنا: «آراء أنيس فريحة في تبسيط اللغة العربية وأساليب تدريسها». ص ٥١ - ٥٢).

(١٩) السيوطي: همع الهوامع. شرح جمع الجوامع. دار المعرفة. بيروت لبنان. لا.ت.ج ٢ ص ٢١٢ - ٢١٣.

ابن الأنباري[٣٠] هذه الحجج مفصّلة في كتابه «الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين»[٣١]. وتتلخّص حجج البصريين بما يلي[٣٢]:

١ - إنّ المصدر يدل على زمان مطلق، أما الفعل فيدلّ على زمان معيّن. وكما أنّ المطلق أصل للمقيد، فكذلك المصدر أصل للفعل.

٢ - إنّ المصدر اسم، والاسم يقوم بنفسه، ويستغني عن الفعل، لكن الفعل لا يقوم بنفسه، بل يفتقر إلى الاسم، وما يستغني بنفسه ولا يفتقر إلى غيره أولى بأن يكون أصلاً ممّا لا يقوم بنفسه ويفتقر إلى غيره.

٣ - إنّ المصدر إنما سمّي كذلك لصدور الفعل عنه.

٤ - إنّ المصدر يدلّ على شيء واحد وهو الحَدَث، أما الفعل فيدلّ بصيغته على شيئين: الحدث والزمان المحصّل. وكما أن الواحد أصل الاثنين فكذلك المصدر أصل الفعل.

٥ - إنّ المصدر له مثال واحد نحو «الضرب»، و«القتل»، والفعل له أمثلة مختلفة، كما أن الذهب نوع واحد وما يوجد منه أنواع وصور مختلفة.

٦ - إن الفعل يدل بصيغته على ما يدل عليه المصدر. فالفعل «ضربَ» مثلاً يدلّ على ما يدلّ عليه «الضرب» الذي هو المصدر، وليس

---

(٣٠) عبد الرحمن بن محمد (١١١٩ - ١١٨١ م) من علماء اللغة والأدب وتاريخ الرجال سكن وتوفي ببغداد. له: «نزهة الألباء في طبقات الأدباء» و«الإغراب في جدل الإعراب» و«أسرار العربية» و«الإنصاف في مسائل الخلاف» (الزركلي: الأعلام، ج ٣، ص ٣٢٧).

(٣١) انظر المسألة الثامنة والعشرين من هذا الكتاب دار الفكر. بيروت. لا. ت ج ١ ص ٢٣٥. وقد أوردها أيضاً وبشكل موجز في كتابه «أسرار العربية» (مطبعة الترقي. دمشق ١٩٥٧) ص ١٧١ - ١٧٦.

(٣٢) انظر ابن الأنباري: الإنصاف في مسائل الخلاف ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

العكس صحيحاً. لذلك كان المصدر أصلاً والفعل فرعاً، لأن الفرع لا بد وأن يكون فيه الأصل.

٧- لو كان المصدر مشتقاً من الفعل لكان يجب أن يجري على سنن في القياس، ولم يختلف كما لم يختلف أسماء الفاعلين والمفعولين، ولَوَجَبَ أن يدلّ على ما في الفعل من الحدث والزمان، وعلى معنى ثالث، كما دلّت أسماء الفاعلين والمفعولين على الحدث وذات الفاعل والمفعول به. فلما لم يكن المصدر كذلك دلّ على أنه ليس مشتقاً من الفعل.

وأما حجج الكوفيين فأهمها ما يلي(٢٣):

١- إن المصدر يصحّ لصحّة الفعل ويعتلّ لاعتلاله نحو: قاوم قواماً وقام قياماً.

٢- إن الفعل يعمل في المصدر نحو: ضربت ضرباً. وبما أن رتبة العامل قبل رتبة المعمول، وجب أن يكون المصدر فرعاً على الفعل.

٣- إن المصدر يذكر تأكيداً للفعل، نحو: ضربتُ ضَرْباً. ورتبة المؤكَّد قبل رتبة المؤكِّد.

٤- إنّ هناك أفعالاً لا مصادر لها، وهي: نعم، بئس، عسى، ليس، فعل التعجب، وحبّذا، فلو كان المصدر أصلاً لما خلا من هذه الأفعال، لاستحالة وجود الفرع من غير أصل.

٥- إن المصدر لا يُتصوَّر معناه ما لم يكن فعل فاعل، والفاعل وُضع له «فَعَلَ» و«يَفْعَلُ»، فينبغي أن يكون الفعل الذي يعرف به المصدر أصلاً للمصدر.

---

(٢٣) المصدر السابق ج ١ ص ٢٣٥ - ٢٣٦. وقد رد ابن الأنباري على هذه الحجج بعد إيرادها. (انظر المصدر نفسه ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٥).

وقد استمر هذا الاختلاف حول أصل الاشتقاق إلى أيامنا هذه. فمن علمائنا من انتصر للنظرية البصرية، «لأن المصدر يدل على حدث، والفعل يدل على حدث وزمن، والأسماء المشتقّة تدل على حدث وزمن مع زيادة ثالثة كالدّلالة على الفاعل أو المفعول أو التفضيل أو المكان. فهذه الكثرة من المشتقات التي جعلت للغة سعتها ومرونتها، أخذت من المصادر التي هي جميعاً أسماء معانٍ»[٢٤]. ومنهم من انتصر للنظرية الكوفية، ذاهباً إلى «أنه يصعب اعتبار المصدر أصلاً للاشتقاق للأسباب التالية:

١ - إنّ المصدر هو اسم لمعنى، وأسماء المعاني أسماء مجرّدة لا يمكن أن تكون أصولاً لألفاظ أقرب منها إلى التجسيد، واللغات، كما هو معروف، تسير في تطورها من التجسيد إلى التجريد لا العكس.

٢ - إن لكثير من الأفعال عندنا مصادر متعدِّدة، والمعقول أن يشتقّ المتعدِّد من الواحد، لا الواحد من المتعدِّد...

٣ - إنّ المصدر اسم للفعل، ويصعب ظهور الاسم قبل ظهور مسمّاه، فلا «جلوس» قبل أن يعرف الفعل «جلس»، اللّهم إلا إذا كان ذلك في الذهن»[٢٥].

وقد ذهب أحد الباحثين المعاصرين إلى «أنّ أصل المشتقات جميعاً شيء آخر، لا هو المصدر، ولا هو الفعل»، و«أن الفعل مقدّم على المصدر، وعلى جميع المشتقّات في النشأة، وأن هذه المشتقات جميعها، ومعها المصدر، مشتقّة من الفعل، بعد اشتقاق الفعل من أصل المشتقّات، وهي أسماء المعاني من غير المصادر وأسماء الأعيان والأصوات»[٢٦]، أي إنّ الأسماء الجامدة

---

(٢٤) سعيد الأفغاني: في أصول النحو. ط ٢. مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٥٧. ص ١٣٤. وقد أيّده في رأيه صبحي الصالح. (انظر كتابه: دراسات في فقه اللغة ص ١٨١).

(٢٥) فؤاد ترزي: الاشتقاق ص ٦١ - ٦٢.

(٢٦) عبد الله أمين: الاشتقاق. ص ١٤.

وأسماء الأصوات هي أصل للفعل، والفعل بدوره أصل للمشتقات.

ولهذه النظرية ما يسوّغها، إذ كثيراً ما اشتق العرب من الأسماء الجامدة فقالوا: «دَمَغْتُه» إذا ضربت دماغه، و«أَفَخْته» إذا ضربت يافوخه، و«تبنّيته» إذا اتخذت منه ابناً، وشَتَوا وأَخْرفوا وأَرْبَعوا إذا دخلوا في الشتاء والخريف والربيع[٢٧]، كما اشتقوا من أسماء الأصوات فقالوا: هاهيت وحاحيت، وعاعيت وحأحأت وسأسأت وشأشأت[٢٨]. يقول ابن جني: «الحروف يشتقّ منها ولا تشتقّ هي أبداً، وذلك أنها لما جمدت فلم تتصرّف، تشابهت بذلك أصول الكلام الأول التي لا تكون مشتقّة من شيء، لأنّه ليس قبلها ما تكون فرعاً له، ومشتقّة منه. يؤكّد ذلك عندك قولهم: سألتك حاجة فَلَوْلَيْتَ لي، أي قلت لي: لولا. فاشتقّوا الفعل من الحرف المركّب من لو ولا»[٢٩].

لكن هذه النظرية تمثّل جانباً من اللغة لا اللغة كلّها، إذ اشتق العرب الأسماء من الأفعال نحو «قائم» من «قام» و«منطلق» من «انطلق»[٣٠]، كما اشتقّوا الأفعال من الأسماء نحو: «بَرِقَ» من «البَرْق»، و«شَمِسَ» (أي كان مشمساً) من «الشمس»، و«قَلَبه» (أصاب قلبه) من «القلب»، و«اسْتَحْجَر» من «الحَجَر».. إلخ[٣١]. كما اشتقّوا الأسماء من الأسماء، فاشتقوا «فارس» من «الفرس» و«تامر» (صاحب التمر) من «التمر»، و«الفاعلية»، و«المسؤولية» و«الانهزامية»، و«الحزبية»، من

---

(٢٧) انظر ابن جني: الخصائص ج ٢ ص ٣٣ – ٣٤.

(٢٨) هذه الأفعال تقال لزجر الحيوانات. فـ«هاهيت» تقال لزجر الإبل و«عاعيت» لزجر الغنم، و«حأحأت» لزجر الكبش، و«سأسأت» و«شأشأت» لزجر الحمار.

(٢٩) ابن جني: الخصائص ج ١ ص ٤٣٦.

(٣٠) المصدر نفسه ج ٢ ص ٣٣ – ٣٤.

(٣١) انظر فؤاد ترزي: الاشتقاق ص ٢٨٣ – ٢٨٦.

« الفاعل »، و « المسؤول » و « الانهزام » و « الحزب »[٣٢].

ولعلّ أقرب المذاهب إلى الحقيقة، بالنسبة إلى أصل الاشتقاق، مذهب فؤاد ترزي[٣٣]، الذي يتلخّص في:

« ١ - أنّ أصل الاشتقاق في العربية ليس واحداً، فقد اشتقّ العرب من الأفعال، والأسماء (الجامد منها والمشتق)، والحروف، ولكن بأقدار تقلّ حسب ترتيبها هذا. فأكثر ما اشتق منه الأفعال، ثم الأسماء، فالحروف.

٢ - أنّ ما ندعوه بالمشتقات - بما فيها المصادر - قد اشتق من الأفعال بصورة عامّة.

٣ - أنّ هذه الأفعال، بدورها، قد تكون أصيلة مرتجلة، وقد تكون اشتقّت من أسماء جامدة، أو ما يشبه الأسماء الجامدة من أسماء الأصوات والحروف »[٣٤].

وإن كان الباحثون، قد اختلفوا في أصل الاشتقاق، وفي اشتقاق المصدر والفعل، فإنهم لم يختلفوا في بقية المشتقات، وعندهم أن هذه المشتقات تشمل اسم المصدر[٣٥]، واسم المرة[٣٦]، واسم الهيئة[٣٧]، والمصدر

---

(٣٢) للمزيد من التوسع انظر فؤاد ترزي: الاشتقاق ص ٢٣٨ - ٢٤١.

(٣٣) لغوي لبناني (١٩١٤ -)، من مواليد غزّة، أحد أساتذة دائرة اللغة العربية في الجامعة الأميركية في بيروت له « الاشتقاق »، و« دراسات لغوية »، و « الأصوات العربية ومخارجها ».

(٣٤) فؤاد ترزي: الاشتقاق ص ٧٢ - ٧٣.

(٣٥) هو اسم يساوي المصدر في الدلالة على الحدث، ويختلف عنه بخلوه من بعض أحرف فعله لفظاً وتقديراً نحو: تكلم كلاماً وأعطى عطاءً.

(٣٦) هو اسم يقصد به الدلالة على معنى المصدر ووقوعه مرّة واحدة نحو: جلستُ جَلسةً، ووقفتُ وَقفةً.

(٣٧) هو اسم يقصد به الدلالة على معنى المصدر وهيئة وقوعه نحو: جلس جِلسة، ووقف وِقفة.

الميمي[٣٨]، واسم الزمان[٣٩]، واسم المكان[٤٠]، واسم الفاعل[٤١]، واسم المفعول[٤٢]، والصّفة المشبّهة[٤٣]، وصيغ المبالغة[٤٤]، واسم التفضيل[٤٥]، واسم الآلة[٤٦].

وقد ذهب جمهور النحاة إلى اعتبار الفعل الماضي المجرّد الثلاثي أو الرباعي، الأصل الذي اشتُقّت منه الأفعال المزيدة التي تأتي على أوزان كثيرة منها[٤٧]:

١ - مزيدات الثلاثي ومنها: فَعَّل يُفَعِّل (جدَّد، يجدِّد)، أفعل يُفْعِل (أكرم، يُكرِم)، فاعل يفاعل (جالَس، يُجالِس)، تفعَّل يَتَفَعَّل (تعلَّم، يَتَعَلَّم)، تَفاعل يَتَفَاعَل (تقاتَل، يَتَقَاتَل)، انفَعَل يَنْفَعِل (انقسَم، يَنْقَسِم)، افتَعَل يفتَعِل (اجتمَع، يَجْتَمِع)، افْعَلَّ يَفْعَلّ (ابيضَّ يَبْيَضُّ)، استَفْعَلَ يَسْتَفْعِل (استَخرَج، يستخرِج)، افعوعَلَ يَفْعوعل (اعشوشب، يَعْشوشب).

(٣٨) هو اسم بمعنى المصدر، يبدأ بميم زائدة لغير المفاعلة نحو: مورد، موقف.

(٣٩) هو اسم يدل على زمن وقوع الفعل، نحو: مولد، مستقبَل.

(٤٠) هو اسم يدل على مكان وقوع الفعل نحو: مولد، مجلِس.

(٤١) هو اسم يشتق من الفعل للدلالة على وصف من قام بالفعل على معنى الحدوث (أي أن يكون المعنى القائم بالموصوف متجدِّداً بتجدّد الأزمنة فلا تكون الصفة ملازمة لموصوفها ثابتة فيه) نحو: جالس، مجتهِد.

(٤٢) هو اسم اشتق من فعل لمن وقع عليه هذا الفعل نحو: مكتوب مستخرَج.

(٤٣) هي اسم يشتق من الفعل اللازم للدلالة على معنى قائم بالموصوف على وجه الثبوت نحو: كريم، أبيض.

(٤٤) هي ألفاظ تدل على ما يدل عليه اسم الفاعل بزيادة. نحو: فهّامة، سبّاح، صدِّيق.

(٤٥) هو الاسم المبني على «أفعل» غالباً، لزيادة صاحبه على غيره في أصل الفعل نحو: أكرم، أعلم.

(٤٦) هو الاسم الدال على الآلة نحو: منشار، مبرد.

(٤٧) انظر فؤاد ترزي: الاشتقاق ص ٢٤٩ - ٢٥٣. وانظر معاني هذه المزيدات في المرجع نفسه ص ٢٦١ - ٢٨٢.

٢ - مزيدات الرباعي ومنها تَفَعْلَل يَتَفَعْلَل (تَدَحْرَج يَتَدَحْرَج)، افْعَنْلَل يَفْعَنْلِل (احْرَنْجم يَحْرَنْجم)، افْعَلَلَّ يَفْعَلِلُّ (اطْمأنَّ يطمئنُّ). تَفَعْلَل يَتَفَعْلَل (تَجَلْبَبَ يَتَجَلْبَبُ)، تَفَيْعَل يَتَفَيْعَل (تَشَيْطَن، يَتَشَيْطن) تَمَفْعَل يَتَمَفْعَل (تَمَسْكَن يَتَمَسْكَن) وافْعَنْلَل يَفْعَنْلِل (اقْعَنْسَس يَقْعَنْسِس).

٣ - الاشتقاق الكبير

أ - تعريفه

الاشتقاق الكبير أو الأكبر[48]، أو القلب اللغوي[49]، هو أن يكون بين كلمتين[50] تناسب في اللفظ والمعنى[51] دون ترتيب الحروف نحو: جذب وجبذ، وحمد ومدح، اضمحلَّ وامضحلَّ. وأوّل من اهتم بهذا النوع من الاشتقاق وسمّاه، هو ابن جني الذي أفرد له باباً خاصاً سمّاه «الاشتقاق

(٤٨) كما يسميه ابن جني. انظر كتابه: الخصائص ج ٢ ص ١٣٣ - ١٣٤. وهذه التسمية يُطلقها اللغويون المحدثون على النوع الثالث من الاشتقاق، كما سنعرف بعد قليل.

(٤٩) كما يسميه فؤاد ترزي. انظر كتابه: الاشتقاق ص ٣٢٣. وقد سمّاه عبد القادر المغربي «القلب» بالإطلاق (انظر كتابه: الاشتقاق والتعريب. مطبعة الهلال بمصر ١٩٠٨ ص ١٤).

(٥٠) يذهب عبد القادر المغربي في كتابه «الاشتقاق والتعريب» (ص ١٥)، إلى أن الكلمة الأكثر شيوعاً وتداولاً تجعل الأصل المشتق منه، والأخرى مشتقة، ومن ثم كان «الجذب» هو الأصل و«جبذ» هو الفرع المشتق، لأن جذب أكثر دوراناً على الألسنة. أما ابن جني فيذهب إلى أن الكلمتين قد تتقاربان في التقديم والتأخير من غير أن تكون إحداهما مقلوبة عن الأخرى، كقولهم «جذب» «وجبذ»، ليس أحدهما مقلوباً عن صاحبه، وذلك أنهما جميعاً يتصرفان تصرفاً واحداً نحو: جذب، يجذب جذباً فهو جاذب والمفعول مجذوب، وجبذ، يجبذ جبذاً فهو جابذ والمفعول مجبوذ، فإن جعلت مع هذا أحدهما أصلاً لصاحبه فسد ذلك، لأنك لو فعلته لم يكن أحدهما أسعد بهذه الحال من الآخر» (الخصائص ج ١ ص ٤٦٧)..

(٥١) نقول تناسباً - لا اتحاداً - في المعنى، لأنه يغلب أن يكون في إحدى الكلمتين شيء من المعنى غير ملاحظ في الأخرى.

الأكبر »، افتتحه بقوله: « هذا موضع لم يسمّه أحد من أصحابنا، غير أن أبا علي - رحمه الله - كان يستعين به، ويخلد إليه، مع إعواز الاشتقاق الأصغر[٥٢]، لكنه مع هذا لم يسمِّه، وإنما كان يعتاده عند الضرورة، ويستروح إليه، ويتعلّل به. وإنّما هذا التلقيب لنا نحن. وستراه فتعلم أنه لَقَب مستحسن. وذلك أن الاشتقاق عندي على ضربين: كبير وصغير، فالصغير ما في أيدي الناس وكتبهم، كأن تأخذ أصلاً من الأصول فتقرأه فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيغه ومبانيه. وذلك كتركيب (س ل م)، فإنك تأخذ منه معنى السلامة في تصرّفه، نحو سلم ويسلم، وسالم، وسلمان، وسلمى، والسلامة، والسليم: اللديغ، أطلق عليه تفاؤلاً بالسلامة.... فهذا هو الاشتقاق الأصغر.... وأما الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية، فتعقد عليه، وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً، تجتمع التراكيب الستة وما يتصرّف من كل واحد منها عليه، وإن تباعد شيء من ذلك رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل، إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد »[٥٣].

ومن الشواهد التي أوردها على هذا النوع من الاشتقاق تقليب (ج ب ر) « فهي، أين وقعت، للقوة والشدّة، منها « جبرت العظم والفقير » إذا قويتها، وشددت منها، والجَبْر: الملك لقوته وتقويته لغيره. ومنها « رجل مجرَّب » إذا جرَّسته الأمور ونجّذته، فقويت مُنَّته، واشتدَّت شكيمته. ومنه الجراب لأنه يحفظ ما فيه... ومنها « الأبجر والبُجرة » وهو القوي السُّرَّة... ومنه « البرج » لقوّته في نفسه وقوّة ما يليه به... ومنها رجَّبت الرجل إذا عظّمته وقوّيت أمره، ومنه رجب لتعظيمهم إيّاه عن القتال فيه، وإذا كُرمت النخلة على أهلها فمالت دعموها بالرُّجبة، وهو شيء تسند

---

(٥٢) يعني أنه كان يستعين به لمعرفة أصول الكلم إن أعوزه الاشتقاق الأصغر.

(٥٣) ابن جني: الخصائص ج ٢ ص ١٣٣.

إليه لتقوى به، والراجبة: أحد فصوص الأصابع، وهي مقويّة لها »[٥٤]. كذلك يأخذ تقاليب (ق س و) فيجد فيها قوة واجتماعاً، فمنها « القسوة » وهي شدّة القلب واجتماعه، ومنها « القوس » لشدتها، واجتماع طرفيها. ومنها « الوَقْس » لابتداء الجرب، وذلك لأنه يجمع الجلد ويُقْحِله[٥٥]، ومنها « الوسْق » للحمل، وذلك لاجتماعه وشدّته، ومنه: استوسق الأمر أي اجتمع، « والليل وما وسق »[٥٦] أي جمع، وذلك لأنه استحثاث وجمع للمسوق بعضه إلى بعض... »[٥٧].

ولعل ابن جني وجد صعوبة، لا بل استحالة – في تعميم فكرته على الألفاظ الرباعية الأصول أو ما يلحق بها، فقصر أمثلته على الألفاظ الثلاثية.

وفكرة التقاليب، تعود إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي حاول بعبقريته الفذّة، حصر كل المستعمل من كلمات اللغة العربية، معتمداً على تقليب اللفظ إلى كل الاحتمالات الممكنة، ومبيّناً المستعمل من هذه التقاليب من غير المستعمل. وعلى أساس فكرة التقاليب هذه، رتّب معجمه « كتاب العين ». لكن الخليل لم يَرَ أن التقاليب الستة للكلمة الثلاثية، تدخل في باب اشتقاق واحد، وترجع إلى أصل واحد يجمعها، بسبب اشتراكها في الحروف الثلاثة مهما يكن موقعها وترتيبها[٥٨]. وعلى نهج

---

(٥٤) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٣٥ – ١٣٦.

(٥٥) يُقحِلُه: يجعله قحلاً (يابساً).

(٥٦) الانشقاق: ١٧.

(٥٧) ابن جني: الخصائص. ج ٢ ص ١٣٦ – ١٣٧.

(٥٨) يذكر الشيخ صبحي الصالح في كتابه « دراسات في فقه اللغة » (ص ١٨٨) أن الخليل بن أحمد الفراهيدي، قد فطن إلى هذه الروابط المعنوية في الاشتقاق الكبير. لكنه لم يقدم أي دليل يثبت ما يذهب إليه. ونحن لا نرى رأيه، إذ لم نجد في معجم الخليل « العين »، أي إشارة إلى هذه الروابط المعنوية. زد على ذلك أن ابن دريد الذي نَهَج نَهْج الخليل في معجمه =

الخليل سار ابن دريد (٨٣٨ - ٩٣٣ م) وغيره[٥٩] في ترتيب مواد معاجمهم. ويظهر أن أستاذ ابن جني، أبا علي الفارسي، قد استهوته هذه الفكرة كما يذكر ابن جني نفسه[٦٠].

وتعسّف ابن جني واضح كل الوضوح، في المذهب الذي ذهبه، وحتى في الأمثلة التي استشهد بها، «إذ كيف يستطيع المرء أن يجد صلة بين القول والقلو، وهو حمار الوحش، وبين اللوقة (الزبدة) واللّقوة (العُقاب)، والكلام والمَلك والكمال والكِلْم (الجرح)، والبجرة (السُّرَّة) والبرج؟ ولعلّه ليس عَبَثاً أن أغفل ابن جني لفظة كالجرب مثلاً - وهي من تقاليب (ج ب ر)، حين رأى أنه لا يستطيع أن يستنبط من الداء قوة»[٦١]. وقد شعر ابن جني نفسه بهذا التكلّف فقال: «على أن هذا وإن لم يطّرد وينقد في كل أصل، فالعذر على كل حال فيه أبين منه في الأصل الواحد، من غير تقليب لشيء من حروفه، فإذا جاز أن يخرج بعض الأصل الواحد من أن تنظمه قضيّة الاشتقاق له كان فيما تقلّبت أصوله: فاؤه وعينه، ولامه، أسهل والمعذرة فيها أوضح. وعلى أنك إن أنعمت النظر ولاطفته، وتركت الضجر وتحاميْته، لم تكد تعدَم قرب بعض من بعض، وإذا تأمّلت ذلك، وجدته بإذن الله»[٦٢].

= «الجمهرة»، اكتفى بعرض التقاليب مهملاً المعنى الذي اشتركت فيه، كما أكد الصالح نفسه (دراسات في فقه اللغة ص ١٩٠).

(٥٩) منهم الأزهري في معجمه «تهذيب اللغة» والقالي في معجمه «البارع» وابن سيدة في «المحكم» والزبيدي في «مختصر العين».

(٦٠) ابن جني: الخصائص ج ٢ ص ١٣٣.

(٦١) فؤاد ترزي: الاشتقاق ص ٣٢٧.

(٦٢) ابن جني: الخصائص ج ١ ص ١١ - ١٢.

ب- موقف الباحثين منه

وقف اللغويون والباحثون من مذهب ابن جني ثلاثة مواقف مختلفة، ففريق منهم أيّده وبالغ فيه، ومن هذا الفريق الزجّاج الذي كان يزعم «أن كل لفظتين اتفقتا ببعض الحروف، وإن نقصت حروف إحداهما عن حروف الأخرى، فإن إحداهما مشتقّة من الأخرى، فتقول: «الرَّحل مشتق من الرحيل، والثور إنما سمّي ثوراً لأنه يثير الأرض، والثوب إنما سمّي ثوباً لأنه ثاب (أي رجع) لباساً بعد أن كان غزلاً »(٦٣).

وفريق أنكر هذا النوع من الاشتقاق كالسيوطي الذي يقول: «وهذا مما ابتدعه الإمام أبو الفتح ابن جني، وكان شيخه أبو علي الفارسي يأنس به يسيراً، وليس معتمداً في اللغة، ولا يصحّ أن يستنبط به اشتقاق في لغة العرب، وإنما جعله أبو الفتح بياناً لقوة ساعده ورد المختلفات إلى قدر مشترك، مع اعترافه وعلمه بأنه ليس هو موضوع تلك الصيغ، وأن تراكيبها تفيد أجناساً من المعاني مغايرة للقدر المشترك، وسبب إهمال العرب وعدم التفات المتقدمين إلى معانيه أن الحروف قليلة وأنواع المعاني المتفاهمة لا تكاد تتناهى فخصّوا كل تركيب بنوع منها، ليفيدوا بالتركيب والهيئات أنواعاً كثيرة ولو اقتصروا على تغاير المواد، حتى لا يدلّوا على معنى الإكرام والتعظيم إلا بما ليس فيه من حروف الإيلام والضرب لمنافاتهما لهما، لضاق الأمر جداً، ولاحتاجوا إلى ألوف حروف المعاني لا يجدونها، بل فرّقوا بين معتِق ومعتَق بحركة واحدة حصل بها تمييز بين ضدّين »(٦٤).

ومن هذا الفريق أيضاً إبراهيم أنيس(٦٥)، الذي اتهم ابن جني بالتكلّف

---

(٦٣) السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها ج ١ ص ٣٥٤.

(٦٤) السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. ج ١ ص ٣٤٧.

(٦٥) عالم لغوي مصري (١٩٠٦ -) ذو تخصّص في الدراسات الصوتية وأحد أعضاء مجمع اللغة العربية. له «من أسرار اللغة» و«الأصوات اللغوية» و«دلالة الألفاظ».

والتعسُّف، لأنه، «إن استطاع في مشقّة وعَنَت أن يسوق لنا للبرهنة على ما يزعم بضع مواد من كل مواد اللغة التي يقال إنها في جمهرة ابن دريد تصل إلى أربعين ألفاً، وفي معجم لسان العرب تكاد تصل إلى ثمانين ألفاً، فليس يكفي مثل هذا القدر الضئيل المتكلّف لإثبات ما يسمى بالاشتقاق الكبير»[٦٦].

ومنه أيضاً فؤاد ترزي الذي دحض هذه النظرية بحجج قويّة فقال: «إن الاعتقاد بصحّة هذه النظرية يترتّب عليه أمران: الأول أن لكلّ حرف من حروف العربية قيمة دلالية خاصّة لا يضيرها تغيُّر موقع الحرف في اللفظة، أو تغييره بحرف آخر من مخرجه. والثاني أن صوت الحرف هو الذي يؤدي إلى هذه القيمة الدلالية. وفي كل من هذين الأمرين ما فيه من مجافاة للواقع وحدّ لمدلولات اللغة. ولو فرضنا، جدلاً، وجود دلالة معنوية خاصّة للحرف العربي، لاقتضى ذلك أن تلازمه هذه الدلالة في كل لفظة يوجد فيها، ومن ثم يصبح بين جميع الكلمات التي تشترك في حرف أو أكثر نوع من الاشتراك المعنوي يتناسب وعدد الحروف المشتركة بينها. ويترتّب على هذا وجود قرابة معنوية بين الألفاظ التي تشترك بحرف واحد من نحو: ماج، ومرح، ودمج، وعمد، وعلم، وسقم، وقرابة أقوى بين الألفاظ التي تشترك بحرفين من نحو: سلم وسلب، وكسد وحسد، وجلس ولمس، وقرابة توجب الترادف بين الألفاظ التي تشترك بجميع الحروف مهما كان ترتيبها من نحو: لمح، وحمل، وحلم، وحمل، وحِلم، ومِلح، وهذا يتنافى والواقع، ويتعارض وفلسفة اشتقاق الكلم في اللغة كما نعلمه، ولا يتفق بتفاصيله مع نظرية ابن جني نفسها. ولا أدري كيف يمكن تفسير الأضداد على هذا الأساس... وقد أشرنا إلى أنّ في اللغة كثيراً جداً من الألفاظ التي يتعذّر

---

(٦٦) إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة. ص ٦٨.

إيجاد أيّة صلة معنوية بين تقاليبها »[٦٧].

وفريق ثالث وقف موقفاً وسطاً بين الفريقين السابقين فمن ناحية تحفّظ على بعض الأمثلة التي أوردها ابن جني في هذا الباب، واتّهمه بالتعسف أحياناً[٦٨]، لكنه ذهب إلى أنه «مع هذا التحفّظ، ومع هذا الحذر من الوقوع في التكلّف، يظل بحث الاشتقاق الكبير.. يؤتي ثمره إلى اليوم، حتى ليمكن القول: إن لغويي العرب لم يعرفوا إنتاجاً أعظم منه »[٦٩].

ونحن نرى أنه إذا أطلنا النظر في معجم «العين» أو في غيره من المعاجم التي اعتمدت أساس «التقليبات» الخليلي، نرى أنّ هناك تباعداً بين معاني معظم الكلمات التي تنتمي إلى تقاليب لفظة ما، دون أن نُعدَم شواهد تتشابه فيها معاني بعض ما تنتظمه تقاليبها من كلمات. ومن أمثلة هذه الشواهد يَئِسَ وأَيِسَ، وكلام وحشي وحُوشي، وبَتَّ وتَبَّ، وشَجَّ وجَشَّ (دَقَّ وكَسَر)، وبَجَّ وجَبَّ (قطع)، والأوباش والأوشاب (الأخلاط من الناس)، ورضب وربض، وهفا فؤاده وفَها، وعاثَ في الأرض وعَثا فيها، وما أطيبه وأيطَبَه... إلخ[٧٠]. لكن القلب في هذه الأمثلة يقوم على الترادف بين اللفظين، والترادف ليس من دواعي الاشتقاق. ويظهر أن القلب سنّة من سنن العرب كما يؤكد ابن فارس[٧١]. وقد يعود بعض أمثلة هذا القلب إلى أسباب عِدَّة منها الاختلاف في التقديم والتأخير نحو صاعِقَة وصاقِعة والاضطرار في بعض المواضع بسبب السجع أو القافية أو الاتباع،

---

(٦٧) فؤاد ترزي: الاشتقاق ص ٣٣١ - ٣٣٢.

(٦٨) صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة ص ١٩٤.

(٦٩) المرجع نفسه ص ٢٠٩.

(٧٠) انظر السيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها ج ١ ص ٤٨١.

(٧١) يقول ابن فارس: «ومن سنن العرب القلب، وذلك يكون في الكلمة، ويكون في القصّة، فأما الكلمة فقولهم جذب وجبذ وبكل ولبك، وهو كثير وقد صنّف فيه علماء اللغة». (انظر كتابه الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ص ٢٠٢).

وغلط الرواة، واضطراب الحروف على اللسان نحو لعمري ورَعَملي، والرّغبة في تخفيف اللفظ أو التفنّن فيه.

٤ - الإبدال اللغوي (الاشتقاق الأكبر)[٧٢]

أ- تعريفه

الإبدال هو إقامة حرف مكان آخر في الكلمة، أو « هو ارتباط بعض المجموعات الصوتية ببعض المعاني ارتباطاً عاماً لا يتقيّد بالأصوات نفسها، بل بترتيبها الأصلي والنوع الذي تندرج تحته. وحينئذ متى وردت، إحدى تلك المجموعات الصوتية على ترتيبها الأصلي، فلا بدّ أن تفيد الرابطة المعنوية المشتركة، سواء احتفظت بأصواتها نفسها، أم استعاضت عن هذه الأصوات، أو بعضها بحروف أخر تقارب مخرجها الصوتي، أو تتّحد معها في جميع الصّفات »[٧٣]. ومن أمثلته طَنَّ ودَنَّ، نَعَق ونَهَقَ، جَذَم وجَذَلَ (قطع) والسراط والصراط. واستبدال الدال بتاء الافتعال في نحو: « ادّعى » (أصلها: « ادتعى »).

ب- قسماه

الإبدال قسمان:

١ - الإبدال الصرفي وهو أن تقيم مكان حروفٍ معينةٌ، حروفاً أخرى،

---

(٧٢) كما يسمّيه علي عبد الواحد وافي، وسعيد الأفغاني وصبحي الصالح وغيرهم. انظر على التوالي:

- علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٨٤.
- سعيد الأفغاني: في أصول النحو ص ١٢٣.
- صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة ص ٢١٠.

(٧٣) صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة ص ٢١٠ - ٢١١.

بغية تيسير اللفظ وتسهيله، أو الوصول بالكلمة إلى الهيئة التي يشيع استعمالها، كإبدال الواو ألفاً في نحو «صام» (أصلها صَوَم) أو كإبدال الطاء من التاء في «اصطنع» (وأصلها «اصتنع»). وقد اهتم النحاة اهتماماً كبيراً بهذا النوع من الإبدال، فاختلفوا في عدد حروفه. فهي عند بعضهم تسعة أحرف يجمعها قولك «هدأتُ مُوطياً»[٧٤]، وهي عند سيبويه أحد عشر حرفاً[٧٥]، وعند غيره اثنا عشر حرفاً، يجمعها قولك «طال يوم أنجدته»، أو أربعة عشر، أو اثنان وعشرون[٧٦].

٢ – الإبدال اللغوي، وهو أوسع من الإبدال الصرفي، بحيث يشمل حروفاً لا يشملها الإبدال الأوّل. وقد اختلف اللغويون في مفهوم هذا الإبدال، فوسَّع بعضهم دائرته فقال: إن هذا النوع من الإبدال يشمل جميع حروف الهجاء، وضيَّقها آخرون فاشترطوا أن تكون الحروف المتعاقبة متقاربة المخرج، وأن تكون إحدى اللفظتين أصلاً للأخرى لا لغة في الثانية[٧٧]. وبما أنه يتعذَّر اليوم التمييز بين ما هو أصل وما هو فرع في مثل نَعَقَ ونَهَقَ، سَقْر وصَقْر، طَنَّ ودَنَّ، الشازِب والشَّاسِب (اليابس)، والجذم والجذل (الأصل)، على الرغم مما وضعه اللغويون والنحاة من قواعد لهذا التمييز[٧٨]، فإن فؤاد ترزي يرى أن الإبدال الحقيقي يجب أن تتوافر فيه الشروط التالية:

---

(٧٤) ابن هشام: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك. دار الجيل. بيروت ١٩٧٩، ج ٤، ص ٣٧٠. و «مُوطياً» اسم فاعل من «أوطأت» أي جعلت وطيئاً.

(٧٥) هي الهمزة والألف والهاء والياء والتاء والدال والطاء والميم والجيم والنون والواو.

(٧٦) انظر فؤاد ترزي: الاشتقاق ص ٣٣٧.

(٧٧) المرجع السابق ص ٣٤١.

(٧٨) من هذه القواعد للدلالة على أصالة لفظة بالنسبة إلى أختها: كثرة استعمالها نحو: ثعالب بالنسبة إلى ثعالي، واكتمال اشتقاقها وتصرفها نحو: وجوه بالنسبة إلى أجوه. (انظر الرضي: شرح شافية ابن الحاجب. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٩٧٥ ج ٣ ص ١٩٧ – ١٩٨. والسكاكي: مفتاح العلوم. المطبعة الميمنية، القاهرة ١٣١٨ هـ ص ٩).

١ - « قرب مخارج الحروف المتعاقبة.
٢ - الترادف أو شبهه.
٣ - وحدة القبيلة التي يدور في لسانها اللفظان المبدلان »[٧٩].

ج - صلته بالاشتقاق

اختلف الباحثون في صلة الإبدال اللغوي بالاشتقاق، إذ اعتبره بعضهم أحد أنواع الاشتقاق وسمّاه « الاشتقاق الكبير »[٨٠] أو « الأكبر »[٨١]، بينما ذهب آخرون، ومنهم فؤاد ترزي، إلى أن الإبدال يتنافى وطبيعة الاشتقاق، وحجّته:

١ - أن الاشتقاق، في أساسه، لا يهدف إلى الترادف ولا يؤول إليه.
٢ - أن ابن جني، الذي توسّع في مفهوم الاشتقاق إلى حد أدخل فيه القلب اللغوي، لم يعتبر الإبدال ضرباً منه[٨٢]، وكذلك فعل السيوطي[٨٣] وغيرهما. وعنده أن الإبدال ليس سوى ظاهرة صوتية تقوم على استبدال بعض الحروف ببعضها الآخر، وتعود إلى أسباب عدّة منها:

أ - التطور الصوتي في الحرف المبدل[٨٤]، وأكثر ما يكون ذلك في الحروف

(٧٩) فؤاد ترزي: الاشتقاق. ص ٣٤٤.
(٨٠) عبد الله أمين: الاشتقاق ص ٣٣٣.
(٨١) سعيد الأفغاني: في أصول اللغة والنحو ص ١٢٣. وصبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة ص ٢١٠.
(٨٢) انظر كتابه: الخصائص. ج ٢ ص ١٣٤.
(٨٣) انظر كتابه: المزهر في علوم اللغة وأنواعها. ج ١ ص ٣٤٧.
(٨٤) يقول إبراهيم أنيس في كتابه: من أسرار اللغة (ص ٧٥) « حين نستعرض تلك الكلمات التي فسّرت على أنها من الإبدال حيناً، أو من تباين اللهجات حيناً آخر، لا نشك لحظة في أنها جميعاً نتيجة التطور الصوتي، أي أن الكلمة ذات المعنى الواحد، حين تروي لها المعاجم صورتين =

المتقاربة المخرج كالسين والزاي في مثل «الشاسب» و«الشازب» (اليابس) وكالسين والصاد في نحو القسطل والقصطل.

ب- الخطأ في السمع في نحو «الخَطيط» في «القَطيط».

د- التَّصْحيف الناتج عن قلّة الإعجام قديماً نحو: تَقَيَّأت المرأة وتفَيَّأت (تثَنَّت على بعلها وتكسَّرت له تدلّلًا وألقت نفسها عليه)[85].

وأغلب الظن، أن الإبدال اللغوي، في معظم أمثلته الواردة في كتب اللغة والنحاة، أقرب أن يكون ظاهرة صوتية، من أن يكون ظاهرة اشتقاقية، ومردّ تلك الظاهرة الصوتية تقارب الحروف المبدلة، بالمخرج والصفة أو بأحدها، والخطأ في السمع، والتصحيف، واللثغة وما إليها. وهي موجودة في اللغات السامية، لكنها أكثر وضوحاً في اللغة العربية، بسبب امتداد الرقعة التي قطنها أو عرَّبها العرب، وبسبب تعدّد الأقوام الذين خضعوا للحكم العربي.

٥ - النحت

أ- تعريفه

النحت في اللغة هو النشر والبري والقطع[86]، قال تعالى: «وتنحتون

= أو نطقين، ويكون الاختلاف بين الصورتين لا يجاوز حرفاً من حروفها، نستطيع أن نفسرها على أن إحدى الصورتين، هي الأصل والأخرى فرع لها أو تطور عنها غير أنه في كل حالة يشترط أن نلحظ العلاقة الصوتية بين الحرفين للمبدل والمبدل منه. ودراسة الأصوات كفيلة بأن توقفنا على الصلات بين الحروف وصفات كل منها، أي أن القرب في الصفة أو المخرج شرط أساسي في كل تطور صوتي».

(٨٥) فؤاد ترزي: الاشتقاق ص ٣١٥-٣١٦.

(٨٦) انظر «لسان العرب» و«تاج العروس» و«المعجم الوسيط» مثلاً مادة «نحت».

من الجبال بيوتاً آمنين »[87]. وهو في الاصطلاح «أن ينتزع من كلمتين أو أكثر، كلمة جديدة تدلّ على معنى ما انتزعت منه. وتكون هذه الكلمة إما اسماً كالبسملة (من قولك باسم الله)، أو فعلاً كحمدل (من قولك الحمد لله)، أو حرفاً كإنّما (من «إن» و«ما») أو مختلَطَة كعمّا (من «عن» و«ما»). ولا بدَّ لها في الحالتين الأوليين أن تجري وفق الأوزان العربية، ومن أن تخضع لما تخضع له هذه الأوزان من تصاريف [88].

ب- موقف الباحثين منه

انقسم الباحثون في مسألة نسبة النحت إلى الاشتقاق، إلى ثلاثة فرقاء:

١ - فريق يؤكّد «أن مراعاة معنى الاشتقاق تنصر جعل النحت نوعاً منه: ففي كل منهما توليد شيء من شيء، وفي كل منهما فرع وأصل »[89].

٢ - فريق ثان يذهب إلى أن النحت غريب عن نظام اللغة العربية الاشتقاقي، لذلك لا يصح أن يعدّ قسماً من الاشتقاق فيها. وحجّته أن لغويينا المتقدّمين لم يعتبروه من ضروب الاشتقاق[90]، وأنّه يكون في نزع كلمة من كلمتين أو أكثر، بينما يكون الاشتقاق في نزع كلمة من كلمة. زِدْ على ذلك أن غاية الاشتقاق استحضار معنى جديد، أما غاية النحت فالاختصار ليس إلا[91].

---

(٨٧) سورة الشعراء الآية ١٤٩.

(٨٨) فؤاد ترزي: الاشتقاق. ص ٣٥١ - ٣٥٢.

(٨٩) صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة. ص ٢٤٣. ولعل عبد الله أمين أول من نسب النحت إلى الاشتقاق فسماه «الاشتقاق الكبّار» (انظر كتابه الاشتقاق ص ٣٩١) ثم جاراه في مذهبه سعيد الأفغاني (انظر كتابه: في أصول النحو ص ١٢٦). وصبحي الصالح.

(٩٠) إذ أهمله ابن جني وابن الأثير في بحوثهما، ولم يذكره السيوطي في الباب الذي خصَّه للاشتقاق، بل أفرد له باباً خاصاً.

(٩١) فؤاد ترزي: الاشتقاق. ص ٣٦٣. وانظر أيضاً أنيس فريحة: «الاشتقاق عملية خلق =

٣ - فريق ثالث توسَّط فاعتبر النحت «من قبيل الاشتقاق وليس اشتقاقاً بالفعل»[٩٢].

ج - أنواعه وطرقه

ردَّ الذين بحثوا النحت أنواعه إلى أربعة[٩٣]:

١ - النحت النسبي وهو أن تنسب شيئاً أو شخصاً أو فعلاً إلى اسمين نحو: عبشمي وعَبْدَري وعَبْقَسي ومرقسي وتيملي، وبلحارث وبلعنبر، وبلهجيم وطبرخزيٌّ، في النسبة إلى عبد شمس، عبد الدار، عبد القيس، امرىء القيس، تيم الله، بني الحارث، بني العنبر، بني الهجيم وطبرستان وخوارزم. ونحو: تَعَبْشَم الرجل وتَعَبْقَسَ... إذا ارتبط بعبد شمس أو بعبد قيس... بحلف أو بجوار أو ولاء.

٢ - النحت الفعلي وهو ما ينحت من الجملة دلالة على منطوقها، وتحديداً لمضمونها. ومن أمثلة الحالة الأولى بَسْمَل وحَمْدَل وحَوْقَل (أو حَوْلَق) وحَسْبَل وسَمْعَل وحَيْعَل ودمْعَزَ وهَيْلَلَ (أو هَلَّل) وطَلْبَقَ وبأبأ وجعفد، إذ قال على التوالي: باسم الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله، والسلام عليكم، وحي على الصلاة حي على الفلاح، وأدام الله عزك، ولا إله إلا الله، وأطال الله بقاءك، وبأبي أنت، وجعلت فداءك. ومن أمثلة الحالة الثانية: بعثر أي بعث وأثار. ويلاحظ أن كل أفعال هذا النوع من النحت رباعية مجرَّدة.

= في اللغة» مجلة آفاق. شتاء ١٩٥٩. ج ١ ص ٢٦ - ٢٧، ومحمد المبارك: فقه اللغة وخصائص العربية ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٩٢) عبد القادر المغربي: الاشتقاق والتعريب. ص ٢١.

(٩٣) انظر المرجع نفسه ص ٢١ - ٢٣. وسعيد الأفغاني: أصول النحو ص ١٢٦، وفؤاد ترزي: الاشتقاق ص ٣٥٧ - ٣٥٨.

٣ - النحت الاسمي: وهو أن تنحت من كلمتين اسماً نحو: جلمود: من جلْد وجَمُد، وحَبْقُر من حب وقرّ (أي حب البَرَد)، وعقابيل[٩٤] من عُقبى وعِلّة.

٤ - النحت النسبي وهو أن تنحت من كلمتين كلمة تدل على صفة بمعناها أو بأشد من هذا المعنى نحو: ضبطر (للرجل الشديد) من «ضبط وضبر»[٩٥]. و «صَهْصَلَق» من «الصهيل والصَّلق»[٩٦]. والجدير بالملاحظة هنا أنّ ابن فارس، وهو أول من توسّع بمفهوم النحت، قد استهوته فكرته فزعم أن أكثر الكلمات الزائدة على ثلاثة أحرف، منحوت من لفظين ثلاثيين[٩٧].

ويلاحظ أن أمثلة النوعين الأخيرين من أنواع النحت، وأمثلة الحالة الثانية من النوع الثاني، فيها الكثير من التكلّف والتعسّف وهي من مبتكرات ابن فارس البعيدة عن الحقيقة والواقع[٩٨]، كما يلاحظ أن أمثلة

---

(٩٤) بقايا العلّة في الجسد ولا مفرد لها.

(٩٥) ضبط الشيء إذا حفظه بالحزم. و «ضبر» يعني اتصلت عظامه واكتنز لحمه. فالضبطر هو القوي المتّصل العظام والمكتنز اللحم.

(٩٦) الصَهْصَلِق: الحاد الصوت وهو مأخوذ من الصهيل وهو صوت الحصان، والصلق وهو الصوت الشديد.

(٩٧) يقول ابن فارس في كتابه «الصاحبي في فقه اللغة» (ص ٢٧١) ما يلي: «العرب تنحت من كلمتين كلمة واحدة، وهو جنس من الاختصار.. هذا مذهبنا في أن الأشياء الزائدة على ثلاثة أحرف فأكثرها منحوت مثل قول العرب للرجل الشديد ضِبَطْر، من ضَبَطَ وضَبَرَ. وفي قولهم: صَهْصَلِقٌ أنه في صَهَل وَصَلَقَ. وفي الصِّلْدِم أنه من الصَّلْد والصَّدْم». ويقول في معجمه «المقاييس» (تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة. دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٦٦. ج ١ ص ٣٢٨ - ٣٢٩) «اعلم أن للرباعي والخماسي مذهباً في القياس، يستنبطه النظر الدقيق. وذلك أن أكثر ما تراه منه منحوت، ومعنى النحت أن تؤخذ كلمتان وتنحت منهما كلمة تكون آخذة منهما جميعاً بحظ».

(٩٨) انظر صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة. ص ٢٦٧ - ٢٧١.

النوعين الأولين محدودة لا تتعدّى العشرات عداً، بينا تجد الكلمات المنحوتة شائعة شيوعاً قوياً في اللغات الهندية- الأوروبية، وبخاصّة الحديثة منها، «حتى أن ما يرجع من مفردات هذه اللغات إلى أصل واحد لقليل بالنسبة إلى ما يرجع منها إلى أصلين أو عدة أصول»[٩٩].

هاتان الملاحظتان دفعتا بعض الباحثين إلى القول بأن «العربية غير قابلة للنحت»[١٠٠] وأن «الكلمة العربية في طورها الحالي شديدة التمسّك بفرديتها واستقلالها، وتأبى أن تذوب في غيرها»[١٠١]. كما دفعت بعض الباحثين الآخرين إلى «التوسط» فذهب إلى «أن لغتنا ليست من اللغات التي تقبل النحت على وجه لغات أهل الغرب، كما هو مدوّن في مصنفاتها. والمنحوتات عندنا عشرات، أما عندهم فمئات، بل ألوف، لأن تقديم المضاف إليه على المضاف معروف عندهم، فساغ لهم النحت. أما عندنا فاللغة تأباه وتتبرّأ منه»[١٠٢].

وعندنا أن اللغات الأجنبية وبخاصّة المتحدّرة من اللغة اللاتينية، أكثر قابلية للنحت من اللغة العربية، وأنّه في أكثر الأحيان، يستحيل في العربية نحت كلمة من كلمتين. ولكن هذا لا يعني أن لغتنا غير قابلة للنحت، فإنّ أحداً لا يستطيع إنكار الكلمات المنحوتة فيها. والذين ذهبوا إلى أن العربية لا تقبل النحت، اعترفوا أنها وفّقت في نحت بعض الكلمات نحو برمائي (بر+ ماء) ومدرحي أو مدرحية (مادة+ روح)[١٠٣]. والحقيقة أنّ

---

(٩٩) علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٨٧.

(١٠٠) أنيس فريحة: «الاشتقاق عملية خلق في اللغة». مجلة آفاق. شتاء ١٩٥٩. ج ١ ص ٢٦.

(١٠١) المرجع نفسه ص ٢٧.

(١٠٢) هذا القول للأب أنستاس الكرملي، وقد نشره في مجلة لغة العرب (المجلد الخامس عدد ١ نيسان ١٩٢٨. ص ٢٩٣).

(١٠٣) أنيس فريحة: الاشتقاق عملية خلق في اللغة. ص ٢٧.

الكلمات المنحوتة المستحدثة كثيرة، ومنها: مكزماني (مكان+زمان)، زمكاني (زمان+مكان)، دَرْعَمي (نسبة إلى دار العلوم)، أنفمي (للصوت الذي يخرج من الأنف والفم معاً)، وقبتاريخ (قبل+ تاريخ préhistoire).. إلخ. وقد كثرت الحاجة إلى النحت في العصر الحديث، وبخاصّة عندما بدأ العرب بنقل العلوم إلى العربية، مما دفع مجمع اللغة العربية إلى إصدار قرار يُجيز النحت «عندما تلجىء إليه الضرورة العلمية»[١٠٤].

وأهم طرق النحت ما يلي[١٠٥]:

١ - إلصاق الكلمة بالأخرى، دون تغيير شيء بالحروف والحركات نحو: برمائي واللاأدرية.

٢ - تغيير بعض الحركات دون الحروف نحو: شقحطب (من شق حطب).

٣ - إبقاء إحدى الكلمتين كما هي، واختزال الأخرى نحو: مُشْلَوْز[١٠٦] ومُحَبْرَم[١٠٧].

٤ - إحداث اختزال متساوٍ في الكلمتين، فلا يدخل في الكلمة المنحوتة إلا حرفان من كل منهما نحو: تَعَبْشَم.

٥ - إحداث اختزال غير متساوٍ في الكلمتين نحو: سَبْحَلَ.

٦ - حذف بعض الكلمات حذفاً تامًّا دون أن تترك في الكلمة المنحوتة أي أثر نحو: طلبق (أي أطال الله بقاءك) وهيلل (أي: لا إله إلا الله). فإن كلمة «الله» في الأولى، وكلمتي «لا» و«إلا» في الثانية، قد حذفت تماماً، ولم يبق لها أي أثر في الكلمتين المنحوتتين المذكورتين.

---

(١٠٤) انظر مجلة مجمع اللغة العربية. المجلد السابع ص ١٥٨.

(١٠٥) انظر فؤاد ترزي: الاشتقاق. ص ٣٥٨ - ٣٥٩.

(١٠٦) منحوتة من المشمش واللوز.

(١٠٧) من حب الرمان.

ومهما يكن من أمر النحت وطرقه، فإن الاشتقاق في العربية، هو أفضل الطرق لتكوين كلمات جديدة دالّة على معان جديدة. لذلك يجب ألّا نلجأ إلى النحت، إلا إذا أعيانا الاشتقاق، زد على ذلك أن «النحت يحتاج إلى ذوق سليم خاصّة، فكثيراً ما تكون ترجمة الكلمة الأعجمية بكلمتين عربيتين، أصلح وأدلّ على المعنى من نحت كلمة عربية واحدة يمجّها الذوق ويستغلق فيها المعنى»(١٠٨). وإن اضطررنا إلى النحت، يجب على الكلمة المنحوتة، كي تكون مقبولة، أن تتّصف بشروط أهمّها انسجام حروفها، وخضوعها لأحكام العربية، وصياغتها على وزن عربي.

---

(١٠٨) مصطفى الشهابي: المصطلحات العلمية (في اللغة العربية في القديم والحديث) معهد الدراسات العربية العالية، سنة ١٩٥٥ ص ١٥.

الفصل الحادي عشر

في التعريب

«الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يعطي الموجودات أسماء، لذلك فإن للغة من الأهمية ما يعادل خلق العالم».

لويس لاڤيل

١ - تعريفه

إذا تتبعنا كتب اللغة التي عالجت التعريب، نجد أنها أعطته تعريفات متعدِّدة منها: «أن تتكلّم العرب بالكلمة الأعجمية على نهجها وأسلوبها»[١]، و «أن تتكلم العرب بالكلمة الأعجمية مطلقاً»[٢]، و «نقل الكلمة من العجمية إلى العربية»[٣]، و «المعرَّب هو اللفظ الأجنبي الذي غيَّره العرب بالنقص أو الزيادة أو القلب»[٤]... الخ. وهذه التعريفات تتّفق فيا بينها، على أن المعرَّب لفظ أجنبي تنطق به العرب، لكنها تختلف في شرط هذا التعريب، فبعضها يشترط تغيير اللفظ المعرَّب بالنقص أو

(١) الجوهري: الصحاح. مادة «عرب».

(٢) عبد القادر المغربي: الاشتقاق والتعريب ص ٦٥.

(٣) طاهر الجزائري: التقريب لأصول التعريب ص ٣.

(٤) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط ص ١٦.

الزيادة أو القلب، وإلحاقه بأحد الأوزان العربية، وبعضها الآخر لا يشترط هذا الشرط.

والواقع أننا إذا نظرنا إلى الكلمات المعرَّبة في اللغة العربية، نجد أنّ هناك ألفاظاً معرَّبة غير ملحقة بأحد الأوزان العربية نحو: «خراسان، إبراهيم، إطريفل، اهليلج، ابريسم، آجرّ، شَطرنج»، إذ لا يوجد في العربية أوزان: فَعالان، إفعاليل، إفعيلل، فاعُلّ، فَعْللٌ»[5]، وألفاظاً أخرى معرَّبة، طرأ عليها التغيير، دون أن تلحق بأحد الأوزان العربية، نحو كلمة «شهنشاه»[6] وأصلها «شاهان شاه» أي ملك الملوك في الفارسية، فقد طرأ عليها التغيير، كما يلاحظ، دون أن تصبح منطبقة على وزن من أوزان العرب. هذه الألفاظ وأمثالها، دفعت سيبويه وجمهور أهل اللغة[7]، إلى الذهاب بأن التعريب هو تكلّم العرب بالكلمة الأجنبية بالإطلاق، أي دون اشتراط تغييرها أو إلحاقها بأحد الأوزان العربية. لكن الألفاظ المشار إليها وأمثالها، قليلة جداً إذا قيست بمجموع الألفاظ المعرَّبة التي لحقها التغيير، فالعرب قلَّما يعرِّبون كلمة، ما لم يردّوها إلى كلمة توازنها في لغتهم. وهذا الملحظ، دفع بعضهم إلى جعل التغيير والإلحاق بأحد الأوزان العربية شرطاً للتعريب، وهذا ما عناه جمال الدين الأفغاني[8] بقوله: «إذا أردنا استعمال كلمة أعجمية في اللغة العربية، فما علينا إلا أن نلبسها مشلحاً وعقالاً فتصبح عربية»[9]، فالمشلح والعقال عنده هما التغيير

---

(٥) عبد القادر المغربي: الاشتقاق والتعريب ص ٦٣.

(٦) لقد وردت هذه الكلمة في شعر الأعشى. انظر المرجع نفسه ص ٦٥ - ٦٦.

(٧) المرجع نفسه ص ٦٥. وطاهر الجزائري: التقريب لأصول التعريب ص ١٦.

(٨) محمد بن صفدر الحسيني (١٨٣٨ - ١٨٩٧ م) فيلسوف الإسلام في عصره، وأحد الرجال الأفذاذ الذين قامت على سواعدهم نهضة الشرق الحاضرة. ولد في أفغانستان وتوفي في الآستانة. له «تاريخ الأفغان»، و«رسالة الرد على الدهريين» (الزركلي: الأعلام. ج٦ ص١٦٨ - ١٦٩).

(٩) عن عبد القادر المغربي: الاشتقاق والتعريب. ص ٦٤.

والإلحاق بأحد الأوزان العربية.

ونحن، إن كنا نميل إلى رأي سيبويه وجمهور النحاة، في عدم اشتراط التغيير والإلحاق، فإنه «ينبغي أن نقف في ذلك عند حد محدود. وإلا تكاثرت الكلمات الأعجمية ذات الأوزان المختلفة والصيغ المتباينة في لغتنا الفصحى. وخرجت على تمادي الأيام بذلك عن صورتها وشكلها. وعادت لغة خلاسية: لا عربية ولا أعجمية، كاللغة المالطية، أو كسائر اللغات العربية العامية في مختلف الأقطار العربية»[10].

٢ - أنواع التغيير الطارىء على الكلمة المعربة ومعرفة عجمتها

إنَّ التغيير الذي يطرأ على الكلمة المعرَّبة، أربعة أنواع[11]:

١ - إبدال حرف بحرف نحو «جَرْم» معرَّب «كَرْم» الفارسية (بمعنى الحر)، و «صَرْد» معرَّب «سَرْد» الفارسية (بمعنى البرد).

٢ - إبدال حركة بحركة نحو «سِرداب» معرَّب «سَرْدآب» (بمعنى بناء تحت الأرض). وقد اجتمع النوعان: الأول والثاني في نحو «سُكَّر» معرَّب «شكَر».

٣ - زيادة شيء نحو «أرَنْدَج» (جلد أسود) معرَّب من «رنده» الفارسية، ويلاحظ في هذه الكلمة، قلب الهاء جيناً[12].

٤ - نقص شيء نحو «بَهْرَج» معرَّب «نَبْهْرَه» (أي باطل ومعناه الزغل).

---

(١٠) المرجع السابق ص ٦٧.

(١١) طاهر الجزائري: التقريب لأصول التعريب ص ٣ - ٤.

(١٢) غالباً ما تقلب الهاء في الكلمات الفارسية، جيماً عند التعريب. (انظر المرجع نفسه ص ١٢ - ١٣).

وتعرف عجمة الكلمة بأمور عدة، أهمها(١٣):

١ - خروجها عن الأوزان العربية، نحو «إبْريسَم، آمين» على وزن «افعيلل، فاعيل». وهذان الوزنان غير موجودين في أوزان الأسماء العربية.

٢ - اجتماع حرفين لا يجتمعان في كلمة عربية، لذلك حكم اللغويون على «الطاجن (الطابق يُقْلَى عليه)، صولجان، منجنيق، مهندز»، بأنها أعجمية، وذلك لاشتمال الكلمة الأولى على الطاء والجيم، والثانية على الصاد والجيم، والثالثة على القاف والجيم، ولانتهاء الرابعة بزاي مسبوقة بدال، وكل هذا لا نجده في الكلمات العربية الأصيلة.

٣ - خلو الكلمات الرباعية والخماسية من حروف الذلاقة (ب - ر - ف - ل - م - ن)، ويُستثنى من ذلك كلمة عسجد (أي الذهب).. إذ نصَّ العلماء على عربيتها.

٤ - نص أئمة اللغة على أن اللفظ غير عربي.

٣ - وجود المعرَّب في القرآن الكريم

دخلت الألفاظ المعرَّبة اللغة العربية منذ أقدم العصور، إذ نجد الكثير منها، في القصائد الجاهلية التي وصلتنا، ومنها: الدولاب، الدسكرة، الكعك، والسميد، والجُلَّنار، (وأصلها فارسي)، وفلفل وجاموس، وشطرنج وصندل (وأصلها هندي)، وقنطار وترياق وقبان (وأصلها يوناني)(١٤). لكن الباحثين اختلفوا في وقوع المعرَّب في القرآن الكريم، إذ نفاه بعضهم، مستدلاً «بأن المعرّب غير عربي، فلو وقع منه شيء في القرآن، لزم أن

---

(١٣) للمزيد من التفصيل، انظر طاهر الجزائري: التقريب لأصول التعريب ص ٧٢ - ٧٤.
(١٤) صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة. ص٣١٦.

يكون في القرآن ما ليس بعربي، وهو مناف لقوله تعالى: «إنّا جعلناه قرآناً عربياً»[15] وقوله تعالى: «بلسان عربي مبين»[16]، وقوله تعالى: «ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فَصِّلت آياته - أأعجمي وعربي»[17]. وأكّده آخرون، معتبرين أن المعرَّبات التي دخلت القرآن قليلة بحيث لا تخرجه عن كونه عربياً، وأنّ الأساس في كون الكلام عربياً، أن يجري على أسلوب كلام العرب ونظمهم، ولا يضير في ذلك دخول المعرَّب فيه»[18].

والواقع أن البحث اللغوي أثبت وجود المعرَّب في القرآن، ففيه من الفارسية «أباريق»، «سجِّيل»، «استبرق»، «دينار»، «ياقوت»، «مسك»، ومن اليونانية «الرقيم»، «الصراط»، «القسطاس»، «الشيطان»، «إبليس»، ومن الحبشية «جهنم»، «ملائكة»، أخدود»، ومن التركية القديمة «غسَّاق»، ومن الهندية «مشكاة» (الكوّة التي لا تنفذ)، ومن القبطية «هيتَ لك»... الخ[19] وكيف لا يشتمل القرآن الكريم علىّ ألفاظ معرَّبة، طالما أنه نزل باللغة العربية، والعربية «ليست بدعاً من اللغات الإنسانية، فهي جميعاً تتبادل التأثر والتأثير، وهي جميعاً تُقرض غيرها وتقترض منه، متى تجاورت أو اتصل بعضها ببعض على أي وجه، وبأي سبب، ولأي غاية. ومن يَرُمِ العربية مقصورة على الإعراب، محبوسة عن التعريب، ويزعم أنها بصيغها وأنواع اشتقاقها وحدها، أعربت عن خصائصها الذاتية، وأنها إن أدخلت على نفسها، بالتعريب،

---

(١٥) الزخرف: ٣.

(١٦) الشعراء: ١٩٥.

(١٧) فصلت: ٤٤. (طاهر الجزائري: التقريب لأصول التعريب. ص ٦٣).

(١٨) للمزيد من التفصيل انظر المرجع نفسه ص ٦٣ - ٦٦.

(١٩) انظر عبد القادر المغربي: الاشتقاق والتعريب ص ٤٧ - ٥١. وقارن بنور الدين صمّود: «المعرَّب والدخيل ضروريان لازدهار اللغة» مجلة اللسان العربي. ج ١٤، العدد ١، ص ١٨٦ - ١٨٧.

مصطلحات الحضارة، شوّهت محاسنها وفقدت خصائصها، وأنكرت نفسها بنفسها، فليس يريد لهذه العربية إلا الموت، وليس يعيش بعربيته، إلا في بروج من العاج بناها له خيال سقيم»[٢٠].

٤ - مشكلات التعريب في العصر الحديث

تدرَّجت الإنسانية عبر تاريخها الطويل تدرّجاً ملحوظاً، وانتقلت من طور تغلب فيه السذاجة إلى طور يتّسم بالمدنية، مما جعل اللغات تصادف أشياء كثيرة تتطلّب تسميات، وتواجه أفكاراً عدّة يعوزها التعبير. لكن ما واجهه الشعب العربي، في أول عصر النهضة، وما زال يعانيه، قد يفوق ما عانته وتعانيه معظم الشعوب. إذ إن العرب، عندما استفاقوا من كبوتهم، وجدوا أنفسهم متخلّفين كثيراً في سلّم الحضارة، ورأوا أن لغتهم تفتقر افتقاراً بيِّناً إلى معظم المصطلحات العلمية التي أوجدتها العلوم الحديثة، وكان لزاماً عليهم، أن يعملوا جاهدين على إيجاد مقابل لهذه المصطلحات. فنشط العلماء يولون الأمر أهمِّيته، وبدأوا بالترجمة والتعريب والاشتقاق والنحت. لكن ما زاد الأمر تعقيداً أن هؤلاء العلماء، في بدء النهضة، لم يكونوا وثيقي الصلة فيما بينهم، فكان كل واحد منهم يصطلح كما يرى، ويعبِّر كما يحلو له، مما أدّى إلى بلبلة المصطلح، واضطراب استعماله في الحديث والكتابة[٢١]. وكان لا بد لمجامع اللغة العربية، من أن تأخذ الأمر على عاتقها، فعقدت له اللجان، ونظمت المؤتمرات. وكان مجمع اللغة العربية في القاهرة، أشدّ المجامع نشاطاً في هذا المجال، حتى أنه وقف نحو

---

(٢٠) صبحي الصالح: دراسات في فقه اللغة ص ٣١٤ - ٣١٥.

(٢١) إبراهيم مدكور: مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً. الهيئة العامّة لشؤون المطابع الأميرية. القاهرة. ١٩٦٤. ج ١ ص ٥٦ - ٥٧.

٧٠٪ من نشاطه على جمع المصطلحات ومناقشتها وإقرارها[٢٢]. وانقسم العلماء فيما بينهم بالنسبة لمسألة تعريب المصطلحات المستحدثة (أي بالنسبة لفائدة هذا التعريب وضرره)[٢٣]. ويمكن رد اتجاهاتهم المختلفة إلى ثلاثة:

١ - اتجاه رأى أن اللغة بشكلها القديم أجود مما هي عليه اليوم، فرفض التعريب مؤثراً التوسع في استعمال الألفاظ العربية لتأدية المعنى الأجنبي، إمّا بالاشتقاق من المواد اللغوية العربية، مثل «سيارة» (للأتوموبيل automobile)، وإمّا بترجمة اللفظ بمرادفه مثل «الصور المتحرّكة» (للسيناتوغراف cinématographe)، وقد وضع هذا الاتجاه لبعض المصطلحات ألفاظاً كانت موضوع تندّر[٢٤].

٢ - اتجاه آخر أراد أن يختصر الطريق، فقال بالتوسّع في التعريب والاشتقاق من المعرَّب، كما كان العرب يفعلون في نحو «دِرْهم مُدَرْهَم» و«دينار مُدَنَّر»... الخ. وعليه، فلا فرق في نظر بعضهم، بين أن نقول «تلفون»، وأن نقول «هاتف» لكونه مصطلحاً واحداً في ذاته. وعنده أن لا فرق بينهما ما دامت كلمة «تلفون» تنطبق على الوزن العربي، وتمكّننا من أن نشتق فعل «تَلْفَنَ»، وما دامت الحروف المؤلّفة منها، (أي التاء واللام والفاء والواو والنون) هي حروف عربية، ولا مانع أيضاً من أن نقول «دكْتَر» (من docteur) و«أكّسَ» (من axe) و«كَرْتَزَ» (من Descartes)، و«رَوْدَج» (من rodage)، و«شَوْفَر» (من chauffeur)... الخ، أي لا مانع عند هذا الاتجاه من أن نعرّب معظم

---

(٢٢) المرجع السابق ج١ ص٦٠.

(٢٣) أنظر: Vincent Monteil: l'arabe moderne pp. 155 - 156.

(٢٤) لقد نسب إلى هذا الاتجاه أنه قال بالمرعور للوزير، والأرزيز للتليفون، والشاطر والمشطور بينهما كامخ لـ «الساندويش»... الخ (أنظر إبراهيم مدكور: مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً. ج١ ص٥٩).

المصطلحات العلمية، إذ لا فرق هنا بين الترجمة والتعريب[٢٥].

٣- اتجاه ثالث اتخذ موقفاً وسطاً من الاتجاهين السابقين، إذ كان يبحث عن أسماء المسمّيات الحديثة، بأي طريق من الطرق الجائزة لغة، فإذا لم يتيسَّر له ذلك، استعار اللفظ الأجنبي بعد صقله ووضعه على منهاج اللغة العربية[٢٦].

ولا شكّ في أنّ الاتجاه الأول، قد أساء اختيار الوسيلة في حبّه للغته، إذ كاد يحنّطها في ألفاظها. والعربية لم تكن يوماً من الأيام خالية من كل دخيل. ولا عار على اللغة أن تقتبس، فالاقتباس «سنَّة الطبيعة بين الأمم التي تتجاور، أو تختلط بالعلم أو الغزو. إذ لا تستطيع لغة واحدة، مهما علا شأنها أن تقوم بحاجة التعبير عن كل شيء، دون الالتجاء إلى سواها والاستعانة بها»[٢٧].

أما الاتجاه الثاني، فقد تطرَّف في تساهله بقبول اللفظ الدخيل، لأنه، إن كان نطق اللفظة اللاتينية بلفظ يقابلها في العربية، يجعلها عربية، فأي كلمة أجنبية لا تكون عربية بعد ذلك؟ وما يمنع، والحالة هذه، من قراءة الألفباء اللاتينية بلفظ عربي، لنستريح من مشكلة المصطلحات؟ ثم ماذا

---

(٢٥) كمال الحاج: في فلسفة اللغة ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

(٢٦) من هذا الاتجاه يعقوب صروف، إبراهيم اليازجي، مصطفى الغلاييني، وأنيس فريحة. أنظر على التوالي:

- يعقوب صروف: «اللغة العربية والمصطلحات العلمية». المقتطف، ج ٩٤ العدد ١، القاهرة (كانون الثاني، ١٩٢٩) ص ٨.

- فؤاد البستاني، الروائع، العدد ٤١، الشيخ إبراهيم اليازجي، ط ٢، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٦ ص ٤٤ - ٤٥.

- مصطفى الغلاييني: نظرات في اللغة والأدب. مطبعة طبارة. بيروت. ١٩٢٧ ص ٢٠٠ - ٢٠١.

- أنيس فريحة: تبسيط قواعد اللغة العربية على أسس جديدة ص ١٨.

(٢٧) كمال الحاج: في فلسفة اللغة. ص ١٨.

يبقى من العربية إذا استعملنا تعابير مثل « أتْرَمْتُ إلى أوتيل الكوانْ كالْم ورجعتُ مُتَنْبِلاً » لـ «ركبت القطار إلى منامة الزاوية الهادئة ورجعتُ بالسيارة »؟

وأما الاتجاه الثالث، فيبدو أن آراءه، هي الأسلم، ذلك أنه، لو أتينا بأعرابي من الصحراء وسألناه عن كلمة «مذياع » أو « هاتف » أو « سيّارة » مثلاً، فإنّ هذا الأعرابي، على الرغم من جهله لهذه الآلات المستحدثة، يستطيع أن يرى في مادة الكلمة الأولى معنى « الذيوع »، وفي مادّة الثانية معنى « الهتاف »، وفي الثالثة معنى « السير »، ويرى في صيغها جميعاً معنى الآلة، وبذلك قد يصل إلى أنّ المذياع آلة تذيع، والهاتف آلة للهتاف، والسيارة آلة للسير. في حين أنه يستحيل عليه أن يستدلّ من ألفاظ كـ « الراديو » أو « التليفون » أو « الأوتومبيل » على المسمّيات المقصودة. وأن لفظة كلفظة « ديماغوجي » مثلاً هي تعريب لكلمة démagogue، وتفسيرها قائد الأوباش، أي رئيس عصابة من العوام. وقد كان بالإمكان استخدام كلمة « غوغائي » بدلاً منها. «غوغائي» تعني السَّفَلة من الناس والمتسرّعين في الشرّ، وهي كلمة عربية غير أعجمية. وقِسْ على ذلك غيرها من الألفاظ.

أما بالنسبة لعدم التحرّج من الاقتباس، فلا بد من إبداء الملاحظات التالية:

١ - إنّ الاقتباس سنّة طبيعية بين الأمم، وما من لغة تستطيع أن تدّعي أنها خالية من الألفاظ الدخيلة.

٢ - إنّ إرغام الألفاظ العلمية القديمة على أن تتسربل بثوب الألفاظ العلمية الحديثة، أمر لا يؤدّي إلى الغاية المطلوبة. ومهما حاول بعضهم استثمار الذخيرة اللغوية القديمة، فإنهم لن يستطيعوا أن يجدوا مقابلاً لجميع المصطلحات المستحدثة. لذلك، لا بدّ من الاقتباس وبخاصة في أسماء

الأعيــان، وأعــلام الجنس، كالأوكسجــين، والهيدروجين، والأنزيم، والإلكترون، وما يدل على تصنيف عام من أجناس وأنواع في النبات، والحيوان، أو سلسلة مواد متشابهة في الكيمياء.

٣ - إن اللغات الغربية تؤلّف مصطلحها العلمي من كسوع، أي من عدد من الوصلات، تدخل الوصلة على الأخرى تصديراً أو إقاماً أو تذييلاً[٢٨]، كما تأتي الوصلات متتابعة ومرتبطة بعضها ببعض، مما يساعد على خلق مصطلحات طويلة[٢٩]. أما العربية، فقد لجأت إلى التركيب المزجي (نحو «برمــــائي»)، أو إلى اختزال إحــــدى وصلــــتي المفردة (نحو «مكزماني = مكان + زمان و «زمكاني» = زمان + مكان)، أو إلى النحت (نحو «مدرحي» = مادة + روح)، فأوجدت مصطلحات ملتبسة الفهم، ومنفصمة العُرى، مما يحول دون تصنيفها تصنيفاً علمياً. وهنا يبدو الاقتباس من اللغات الأجنبية أسهل منالاً، وأدقّ دلالة من الترجمة، أو الاشتقاق، أو النحت، وما إليها.

٤ - إنّ حركة العلم في تطور مستمر، حتى أنّ عدد المصطلحات العالمية المتخصّصة يبلغ الآن أكثر من مليون ونصف مليون مفردة، حصّة الطب فيها، ما يقارب الخمسين ألف مفردة. وهذه الحركة، لا تنفك، تفرز من المصطلحات، ما يتراوح بين خمسين ومئة مصطلح جديد يومياً[٣٠].

---

(٢٨) نحو: «polytechnique» (متعدّد الفنون والعلوم)، و«télégraphe» (مبراق، جهاز إرسال برقي)، و«astrologie» (علم التنجيم)... الخ.

(٢٩) مثل dichlorohydrat de N métoxy-amino chlorobenyamide. أنظر ريمون طحان: «التعبير عن العلوم واللغة العربية». مجلة دراسات، العدد الثاني. السنة ١٩٥٥، والعدد الأول السنة ١٩٧٦.

(٣٠) عبد العزيز بنعبد الله: «المعاجم الحديثة العامّة والمختصّة». اللسان العربي. ج ١٤. المغرب. ص ١٥٩.

الاقتباس إذاً (أي التعريب)، لا مفر منه، مهما اعتمدنا الطرق الأخرى في وضع المصطلح العربي العلمي، ولكن، لا بدّ من مراعاة قواعد فيه، منها الاحتفاظ بالأصل ما أمكن، والأخذ بأقرب نطق إلى العربية، دون تحيّز إلى أصل فرنسي أو إنكليزي، وتوحيد هذا النطق قدر الإمكان مع صياغته على أحد الأوزان العربية كلما تيسَّر لنا ذلك[٣١]، ثم اتباع المصطلح المعرَّب بكتابته بأحرف لاتينية.

ولا خوف على اللغة من اقتباس عدد من المصطلحات العلمية. فلغتنا، بلفظها وحرفها، خالدة بالقرآن الكريم وبإنتاج السلف وآثار الآباء والأجداد، ولا خوف على سلامتها وكيانها من الترميز، أو من المصطلحات العلمية المقتبسة.

ونحن اليوم نملك الكثير من المعاجم المتخصّصة للمصطلحات العلمية، وما يقابلها من ألفاظ عربية[٣٢]، فهل حُلّت مشكلة المصطلحات؟ في الحقيقة، ما زلنا نواجه مشكلتين: تتلخّص الأولى في أن المصطلح العلمي، كان ينتشر بلفظه الأجنبي بين الناس، قبل أن تضع له المجامع اللغوية اللفظ العربي المقابل له، وتسهم في ذيوعه. فتكون النتيجة أن يشيع اللفظان: الأجنبي والعربي (مذياع وراديو، سيارة وأوتوموبيل، تلفون وهاتف...)،

---

(٣١) كاقتباسنا كلمة «فلسفة» التي تقابل الكلمة اليونانية philos-sophia (أي صديق الحكمة) والكلمة الفرنسية philosophie والإنكليزية philosophy.

(٣٢) من هذه المعاجم نذكر:

– معجم المصطلحات العلمية والفنية والهندسية. مكتبة لبنان. بيروت. ١٩٧١.

– معجم المصطلحات الأثرية. مجمع اللغة العربية. دمشق. ١٩٦٧.

– معجم المصطلحات الطبية. تأليف كليرفيل. إ.ل. ترجمة أحمد حمدي الخياط ومحمود صلاح الدين الكواكبي. مطبعة الجامعة السورية. دمشق. ١٩٥٦.

– معجم المصطلحات الزراعية. تأليف محمود مصطفى الدمياطي ومحمد عبد الجواد. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. ١٩٦٠.

أو أن يموت اللفظ الفصيح (الخيالة، الرائي... الخ). أما المشكلة الثانية، فنتجت عن فكرة رسّخها المستعمر في أذهان بعضنا، تزعم أنّ العربية عاجزة عن أن تكون لغة أيّ علم حديث.

بالنسبة للمشكلة الأولى، نرى أنه على المجامع اللغوية عندنا، أن تسارع، إلى درس المصطلحات العلمية المنتشرة بين الناس، وأن تعتمد الاستعمال أو الشيوع، لا الفصاحة أو عدمها، معياراً لإقرارها وجعلها في عداد ألفاظ اللغة العربية[٣٣]. أمّا المصطلحات الجديدة، أو تلك التي لم تنتشر انتشاراً واسعاً، فعلى المجامع كذلك، أن تضع لها اللفظ المقابل بإحدى الطرق المشروعة لغة، فإن أعياها ذلك، لا مفر من اللجوء إلى التعريب أو الاقتباس. ومفيدة هي الإشارة، في هذا المجال، إلى أنّ العمل على نشر المصطلح، بعد وضعه، بشتّى وسائل الإعلام، أمر بالغ الأهمية والأثر، لأن المسألة تبدو أحياناً، نوعاً من السباق بين الفصحى والعامية، فالتي تسبق منها إلى المعنى الجديد، أو المخترع الجديد، تسمّيه وتفرضه على الأخرى، «لأن اللفظ، متى شاع في معنى أو ذات، صعب محوه من الكلام وطرده من اللغة. وإذا وضعنا بجانبه لفظاً آخر من العربي الفصيح، وضعناه ميتاً، لأن ثلاثة أرباع الشعب لن يستعملوه، والقليل الباقي من أكثر الناس لن يقبلوه. وإذا قبلوه واستعملوه، اتسع الخلاف بين لغة القلم ولغة اللسان»[٣٤]. وعليه، نأمل للمنهاج الذي وضعه مكتب تنسيق

---

(٣٣) فالكلمات التالية: «أمبريالية»، «بورجوازية»، «ديموقراطية» مثلاً، هي تعريب لـ «imperialisme» و «Bourgeoisie» و «Democratie». وهي كثيرة الاستعمال في كتاباتنا اليومية، فلا بأس من إقرارها، وإدخالها المعاجم العربية المتيدة.

(٣٤) أحمد حسن الزيات: «مجمع اللغة العربية بين الفصحى والعامية». مجلة المجمع العلمي العربي. ج ٣٢. دمشق. ص ١٨٧.

التعريب التابع لجامعة الدول العربية[٣٥]، والذي يهدف إلى تنسيق التعريب في الوطن العربي، أن يلاقي النجاح، لأنه كفيل بالقضاء على مشكلة بلبلة المصطلح العربي، وعلى قلّة انتشاره وعدم شموله كل ميادين التخصّص.

أما بالنسبة للمشكلة الثانية، أعني مشكلة اعتقاد بعض أهل الفكر عندنا، أن العربية عاجزة عن التعبير عن العلوم الحديثة، فمن الملاحظ أنها تطوَّرت، عند بعض أصحاب الأقلام المأجورة، إلى دعوى تردّ تخلفنا العلمي والقومي والحضاري، إلى تشبثنا - حسب زعمهم - بلغة بدوية لا تصلح لغير حداء الإبل والوقوف على الطلل[٣٦]، ثم كان من نتائجها بروز ثلاث دعوات: واحدة إلى العامية[٣٧]، وثانية إلى لغة أجنبية حيَّة بديلة[٣٨]،

---

(٣٥) يقتضي هذا المنهاج:

أ- جرد ألفاظ اللغة العربية وتبويبها حسب معانيها.

ب- جرد ألفاظ اللغتين الفرنسية والإنكليزية وتبويبها حسب معانيها.

ج- جمع المصطلحات المعرَّبة.

د- ترتيب المعرَّبات العلمية والفنية حسب مواضيعها.

هـ- جرد المصطلحات غير المعرَّبة.

و- تأليف معجم اللغة العربية.

ز- توحيد المصطلحات وإقرارها في الوطن العربي.

انظر عبد العزيز بنعبد الله: التعريب ومستقبل اللغة العربية. مطبعة الشعب القاهرة. ١٩٧٥ ص ٣٥ - ٤٢.

(٣٦) اتهم سلامة موسى اللغة العربية الفصحى، بمسؤوليتها عن التخلّف والجنون والإجرام في مجتمعنا. (انظر سلامة موسى: البلاغة العصرية واللغة العربية. ص ٥٥ - ٦٤). كذلك أرجع وليم ولكوكس، أحد مديري دار الكتب المصرية، سبب عدم وجود قوة الاختراع لدى المصريين إلى استعمالهم اللغة الفصحى. (انظر وليم ولكوكس: «لِمَ لَمْ توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن». مجلة الأزهر، العدد الأول، القاهرة. ١٨٩٣، ص ١ - ١٠).

(٣٧) انظر تفصيل القول فيها في الفصل الثامن من كتابنا هذا.

(٣٨) انظر هذه الدعوة في مقال أمين الشميّل: «كلمة غيور على لغته» مجلة التبكيت والتنكيت، العدد الخامس، تاريخ ١٠/٧/١٨٨١.

وثالثة إلى إبقاء التعليم عندنا – ولا سيما العالي منه – باللغات الأجنبية، كي لا ننقطع عن النشاط الفكري العالمي، وكي لا تصبح اللغة الوطنية حاجزاً منيعاً دون مواصلة التقدّم[٣٩].

وعندنا، لا يصح اتهام اللغة العربية، أو أي لغة أخرى، بالعجز، لأن اللغة بأهلها، تعجز بعجزهم، وتتطور بتطورهم، لذلك كان أحرى بالذين اتهموا العربية بالعجز، أن يتهموا أهلها بهذه الصفة. يقول ديكارت[٤٠]: «إننا لا نعلم إطلاقاً لغة قد قصَّرت عن خدمة إنسان عنده فكرة يريد التعبير عنها. فلا ننصت إذاً إلى أولئك المؤلفين العاجزين، الذين يُحمِّلون لغاتهم مسؤولية النقص. الذين يفكِّرون خير تفكير، ويهضمون أفكارهم خير هضم، ليجعلوها واضحة مفهومة، يستطيعون دائماً، أكثر من عداهم أن يُفهموا الآخرين آراءهم، ولو لم يتكلموا غير البريتانية السفلى»[٤١]. وإن كانت هذه حالة أي لغة، فماذا نقول بشأن العربية التي كانت، ولفترة طويلة من الزمن، لغة الحضارة في العالم، والتي تمكّنت أن تكون لغة القرآن، والحديث وما فيها من معان سامية رفيعة، وتعبيرات دينية واجتماعية وتشريعية، لا عهد للعرب بها في جاهليتهم؟ إن النظرة الموضوعية إلى تاريخ اللغة العربية، ترى أن هذه اللغة استطاعت «أن تكون أداة لكل ما نقل من علوم الفرس والهند واليونان وغيرهم. وفي نحو ثمانين سنة من بدء العهد العباسي، كانت خلاصة كل هذه الثقافات مدوَّنة بالعربية. والعرب الذين لم يكونوا يعلمون شيئاً من مصطلحات الحساب والهندسة والطب، ولا

---

(٣٩) هذا الرأي للأب لامنس. انظر فليكس فارس: رسالة المنبر إلى الشرق العربي. لامط. الاسكندرية. ١٩٣٦. ص ٧٥.

(٤٠) هو فيلسوف ورياضي فرنسي (١٥٩٦ – ١٦٩٠)، اشتهر بكتابه «مقالة الطريقة» وفيه مبدأه المعروف «أنا أفكر إذاً أنا موجود». له عدة اكتشافات هندسية وفيزيائية. (فردينان توتل: المنجد في الأعلام. ط ٧. دار المشرق. بيروت. ١٩٧٣. ص ٢٩٥).

(٤١) فندريس: اللغة، ترجمة الدواخلي والقصاص ص ٤٢١.

شيئاً من منطق أرسطو[42] وفلسفته، أصبحوا، في قليل من الزمن، يعبّرون عن أدق نظريات اقليدس[43]، ونظريات بطليموس[44]، وطب جالينوس[45]، وحكم بزرجمهر»[46]. وأوضح دليل على كفاءة اللغة العربية في أن تكون لغة العلوم، أن كليات الهندسة والطب والصيدلة والزراعة وغيرها، في سوريا، تدرِّس هذه العلوم باللغة العربية وحدها.

أما الرأي القائل بإبقاء التعليم العالي باللغة الأجنبية، لئلا ننعزل عن الحركة العلمية العالمية، فمردود لعدة أسباب. منها أنه لا يجوز فصل التعليم العالي عن التعليم الابتدائي والثانوي. ومنها أيضاً أنه، إن كانت العربية خيراً في المراحل الأولى من التعليم، فهي كذلك في المراحل العليا منه، وإن كانت العربية لغة الدولة بصحفها وكتبها ومجلاتها ومكاتباتها الرسمية وقانونها و.. الخ، فلا يجوز أن يشذ التعليم عن كل هذا. ومنها أخيراً أن أوروبة، لم تجعل اللغة العربية، لغة التعليم العالي في العصر الوسيط، يوم كانت تتلمذ على يد العرب. وعليه، نعجب كل العجب، عندما نرى جامعاتنا في الوطن العربي، تعتمد اللغة الإنكليزية أو الفرنسية، فيما تستحدث من كليات علمية.

---

(٤٢) هو Aristote مربي الاسكندر (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م)، وفيلسوف يوناني من كبار مفكري البشرية. مؤلفاته في المنطق والطبيعيات والإلهيات والأخلاق، أهمها: «المقولات»، و«الجدل»، و«الخطابة» و«السياسة» (فردينان توتل: المنجد في الأعلام. ص ٣٤).

(٤٣) رياضي يوناني عاش في القرن الثالث ق. م. علّم الهندسة في الاسكندرية على أيام بطليموس الأول. ووضع مبادىء الهندسة المسطحة. (فردينان توتل: المنجد في الأعلام ص ٥٧).

(٤٤) فلكي وجغرافي يوناني (نحو ٩٠ - ١٦٨ م). نشأ في الاسكندرية. له «المجسطي»، و«جغرافية بطليموس». (فردينان توتل: المنجد في الأعلام. ص ١٣٥).

(٤٥) طبيب يوناني (نحو ١٣١ - ٢٠١ م). له اكتشافات مهمة في التشريح. من أكبر مراجع أطباء العرب. (فردينان توتل: المنجد في الأعلام ص ٢٠٦).

(٤٦) أحمد أمين: ضحى الإسلام ج١ ص. ٢٩١. وبزرجمهر هو وزير كسرى أنو شروان ملك فارس ولد في السنة ٥٩٠ م وتوفي في السنة ٦٢٨ م. اشتهر بالحكمة والطب وعلم النجوم.

ولا شك في أن جعل التعليم باللغة العربية، يحل كثيراً من مشاكل العربية نفسها، فهو يحل أولاً مشكلة غموض المصطلحات العلمية. وهو ثانياً، يُضيِّق الهوَّة بين الفصحى والعامية. وهو ثالثاً ينشر التعليم بين الناس، ذلك أن اعتماد اللغات الأجنبية، في تعليم المواد العلمية، يزيد إلى صعوبة تعلّم هذه المواد، صعوبة تعلم لغاتها. ولعل من أهم أسباب ظاهرة الرسوب في امتحاناتنا، عدم إتقان طلابنا للغة المواد العلمية. فكثيرون ممن يتقنون المادة العلمية، لا يستطيعون التعبير عما يعرفون منها باللغة الأجنبية.

ولعلّ، من أبرز المشاكل التي نعانيها، الصراع القائم بين العربية الفصحى، واللغة الأجنبية ضمن جدران المدرسة، وبين الفصحى والعامية خارج هذه الجدران، مما يجعل ميدان الفصحى ضيِّقاً، فيصيِّرها، بالتالي، صعبة نتيجة قلّة استعمالها. وما لم نبادر سريعاً، إلى جعل الفصحى لغة جميع المواد العلمية، فإن تعليم العلوم بها، سيكون غداً أعسر مما هو عليه اليوم، وأقل عسراً مما سيكون عليه بعد غد، وذلك نظراً لتزايد المصطلحات العلمية يوماً بعد يوم، وسرعة انتشارها بين الناس.

وعندنا، أن تدريس العلوم بلغة غير عربية، هو نوع من استمرار الاستعمار الثقافي. وعليه، نرى أن تعليمها باللغة العربية أمر ضروري، ولكن، لا بدّ أن تسبقه، أو أن تلازمه، خطوات أساسية، منها استخراج العربية الأساسية(٤٧)، وتيسير أساليب تعلم العربية، وإيجاد المصطلحات العلمية اللازمة، وتوحيد هذه المصطلحات في العالم العربي كافة، وتأمين العلماء الذين سيكتبون بالعربية في كل علم، وبالتالي تأمين المصادر والمراجع اللازمة لكل متخصِّص.

---

(٤٧) وذلك على غرار «الفرنسية الأساسية» Le français fondamental والإنكليزية الأساسية Basic English.

الفصل الثاني عشر

الخط العربي: نشأته، تطوره، مشكلاته

« إنّ حروف العربية مرنة سهلة، لها في النفوس ما للصُّور من الجمال الفني، ولاسيما حين تنقش على مداخل المباني أو الأضرحة، سواء كانت ثلثاً أو كوفيّاً أو نسخاً ».

دونسون روس

١ - الكتابة ونشأة الخط العربي

الكتابة رمز للغة، كما أن اللغة رمز للفكر. وهي ظاهرة إنسانية اجتماعية عامة، استخدمها الإنسان منذ أقدم العصور لتسجيل خواطره، رغبة منه في تذكّرها، أو توصيلها إلى غيره من بني البشر عبر الزمان والمكان. فأفادته في شتّى شؤونه الاجتماعية، حتى أننا نعدّها أحد أهم أسباب التقدّم الحضاري في مختلف المجالات. والثابت أن الكتابة مرّت بأطوار عدّة، قبل أن تصل إلى الطور الهجائي المستخدم في أيامنا هذه[١].

(١) هذه الأطوار هي: الطور الصوري، والطور الرمزي، والطور المقطعي، والطور الصوتي. (انظر أنيس فريحة: الخط العربي، نشأته ومشكلته، مطابع المرسلين اللبنانيين، جونية، ١٩٦١ ص ١١ - ١٤).

ولا شك في أن مرورها بهذه الأطوار كان يتوافق مع قدرة العقل الإنساني على تقبّل فكرة الرمز بديلاً عن الواقع الحسّي.

ولئن أجمع الباحثون على أن الفينيقيين هم الذين نشروا الحروف الهجائية، وعلى أن حروفهم هي أصل كل هجاء، فقد اختلفوا في مكان نشوء الخط العربي، وطريقة وصوله إلى العرب(٢). وأغلب الظن، أن الخط العربي القديم اشتق من الخط النبطي، الذي اشتق بدوره من الخط الآرامي(٣). والثابت أن العرب - في إطار الجهود التي بذلوها في خدمة لغتهم - تمكّنوا من إدخال إصلاحات على خطّهم أهمها:

أ- الشكل أو العلامات الإعرابية: كانت الكتابة العربية، في بدء أمرها، نظاماً قاصراً إلى حد ملحوظ، وذلك بسبب عدم احتوائها على رموز مستقلّة للحركات القصار، مما أدّى إلى انتشار اللحن(٤) بين العرب. وقد حاول هؤلاء علاج هذا النقص، فوضعوا، بصبغ يخالف لون المداد، علامات للشكل تساعد على القراءة والفهم(٥). ويرجّح أن العرب قد اقتبسوا طريقة الإعراب هذه عن السريان الذين كانوا يلجأون إلى نظام

(٢) سهيلة الجبوري: الخط العربي وتطوره في العصور العباسية في العراق، بغداد. المكتبة الأهلية، ١٩٦٢ ص ٧ - ٢٤.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٥. وانظر رمزي بعلبكي: الكتابة العربية والسامية ص ١٢٢ وما بعدها، وإبراهيم جمعة: قصة الكتابة العربية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٧، ص ١٧.

(٤) نقصد باللحن هنا الخطأ في تشكيل الكلمة عند قراءتها.

(٥) يروى أن نقط الشكل تولاّه أبو الأسود الدؤلي خوفاً على القرآن من اللحن والتحريف، فقال لكاتبه: «إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة على أعلاه، وإذا ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف [أي أمامه]، وإذا كسرت فمي، فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبعت شيئاً من ذلك غنّة فاجعل النقطة نقطتين». (ابن النديم: الفهرست، القاهرة. المطبعة الرحمانية ١٩٣٨ ص ٦٠).

النقط في تشكيل كتبهم بصورة خاصة، والمقدسة منها بصورة أخص[٦].

ب- التنقيط: ويعرف بنقط الإعجام، ووظيفته التمييز بين الأحرف المتشابهة (ب،ت،ث،ج،ح،خ ..). وخلاصة الأمر أن نظام النقط كان معروفاً قبل الإسلام، إلا أنه لم يكن يشمل كل الأحرف المنقوطة حالياً، إذ إن بعض الحروف كانت تستعمل لأكثر من صوت[٧]. فلما كثر التصحيف[٨] في العراق فزع الحجّاج بن يوسف الثقفي[٩]، كما يروى[١٠]، إلى كتابه، في عهد عبد الملك بن مروان[١١]، وسألهم أن يضعوا علامات لتمييز الحروف المتشابهة. وبعد التفكير والمراجعة، تقرَّر وضع النقط بشكلها الحالي[١٢]، مع إقرار مبدأ الإهمال والإعجام. كما اتفق على جمع الحروف المتشابهة مما اضطرهم إلى مخالفة الترتيب القديم (أي الترتيب

---

(٦) أنيس فريحة: الخط العربي، نشأته ومشكلته، ص ٤٠ – ٤٣. ومحمود طاهر الكردي: تاريخ الخط العربي وآدابه، القاهرة المطبعة التجارية الحديثة، ١٩٣٩، ص ٧٥.

(٧) أنيس فريحة: الخط العربي نشأته ومشكلته، ص ٤٨ – ٥٠، وإبراهيم جمعة: قصة الكتابة العربية ص ٥٠.

(٨) نقصد بالتصحيف قراءة الحرف على غير حقيقته.

(٩) هو أحد كبار القادة الأمويين (٦٦٠ – ٧١٤ م) ووالي مكة والمدينة والطائف على أيام عبد الملك بن مروان. بنى مدينة واسط واشتهر بالخطابة والشدة في الحكم. (الزركلي: الأعلام، ج ٢ ص ١٧٥).

(١٠) ابن خلكان: وفيات الأعيان. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط١. مطبعة السعادة. نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٨، ج ١ ص ٣٤٤.

(١١) هو الخليفة الأموي الخامس (٦٤٦ – ٧٠٥ م). ولد بالمدينة وتوفي بدمشق. وحّد الإمبراطورية وأنشأ البريد وعرّب الدواوين. (فردينان توتل: المنجد في الأعلام، ص ٤٥٣).

(١٢) لجأ نصر بن عاصم إلى تنقيط الحروف بمداد الكلمة نفسه، وذلك لأن نقط الحرف جزء منه. (انظر إبراهيم جمعة: قصة الكتابة العربية ص ٥٢).

الأبجدي)[١٣]، والترتيب الذي اتبعه الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجمه « العين » (أي الترتيب المخرجي)[١٤]، ثم اتباع ترتيب آخر هو الترتيب الهجائي (أ،ب،ت،ث،ج،ح،خ..) القائم على أساس وضع الحروف المتشابهة بصورة الرسم، بعضها قرب بعض[١٥].

ج – الحركات: يظهر أن الناس اتبعوا في زمن بني أمية الإصلاح الأول (أي نقط الإعراب)، والإصلاح الثاني (أي إعجام الحروف). غير أنهم مالوا في زمن بني العباس إلى أن يجعلوا – تسهيلاً للأمر – الشكل بمداد الكتابة نفسه، لا بصبغ مخالف. وكان من الطبيعي أن يؤدّي هذا إلى اختلاط نظام الشكل بنظام الإعجام، وأن يهدّد من جديد بنوع من اللبس والتصحيف، ممّا حمل الخليل بن أحمد الفراهيدي، على وضع طريقة أخرى للشكل وهي التي عليها الناس الآن[١٦]، فأصبح من الممكن كتابة الشكل والإعجام بلون مداد الكتابة نفسه.

وهذا العمل، رغم أهميته، صادف صدوداً من بعض العرب، وذلك لأنهم يكرهون إضافة أي شيء إلى خطهم، ويرَون في الإعجام و « الإعراب » ازدراء بمعرفة المكتوب إليه وفهمه[١٧]. لكن الصوت المعارض

---

(١٣) هو ترتيب أبجد هوَّز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ. (انظر حفني ناصف: تاريخ الأدب أو حياة اللغة العربية، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٠٩، ص ٣٥).

(١٤) يقوم الترتيب المخرجي على ترتيب الحروف حسب مخارجها من الحلق إلى الشفتين كما يلي: ع، ح، هـ، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ص، س، ز، ط، د، ت، ظ، ذ، ث، ر، ل، ن، ف، ب، م، و، همزة، ي. (انظر كتابنا: المعاجم اللغوية العربية ص ٤١ - ٤٢).

(١٥) إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، ط ٣، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٧٢ ص ٢٣٥.

(١٦) إبراهيم جمعة: قصة الكتابة العربية، ص ٥٣.

(١٧) يظهر أن هذه النظرة إلى الإعجام » و « الإهمال »، قد استمرت إلى زمن =

لها سرعان ما سكت، إذ أقرَّ العرب بفائدتها، فقالوا: «اشكلوا قرائن الآداب لئلا تند عن الصواب»، و«إعجام الكتب يمنع من استعجامها، وشكلها يصون عن إشكالها»[١٨].

د - **علامات الوقف أو علامات الإملاء والترقيم:** لا نعرف بالتحديد زمن إدخال هذه الإصلاحات على الكتابة العربية، والأرجح أنها مستحدثة، عرفها العرب إبان عصر النهضة[١٩].

٢ - عيوب الخط العربي

على الرغم مما أدخل على الخط العربي من إصلاحات، منذ نشأته حتى اليوم، فإنه مازال يحتفظ بعيوب عدّة، كثر الكلام عليها في مطلع عصر النهضة، ولاسيّما بعد انتشار الطباعة والمدارس، واطلاع العرب على الخطوط الأجنبية، ورغبة بعضهم في التخلّص من صعوبات القراءة

= متأخر. فإن أبا النواس هجا رجلاً بعث إليه برسالة يكثر فيها «الإعجام»، و«الإعراب»، لأنه شعر أن في الأمر إهانة له، فقال:

يا كاتباً كتبَ الغداةَ يسبُّني ... من ذا يطيقُ براعةَ الكُتّابِ
لَمْ تَرْضَ بالإعجامِ حينَ كتبتَه ... حتّى شكلتَ عليه بالإعرابِ
أحسَسْتَ سوءَ الفهمِ حينَ فعلتَه ... أمْ لمْ تثِق بي في قراءةِ كتابِ
لو كنتَ قطَّعْتَ الحروفَ فهمتُها ... من غيرِ وَصْلِكُنَّ بالأنسابِ

انظر أنيس فريحة: الخط العربي، نشأته ومشكلته، ص ٤٩.

(١٨) إبراهيم جمعة: قصة الكتابة العربية ص ٥٤ - ٥٥.

(١٩) أما بالنسبة لمسألة الانتشار، فيظهر أن الخط العربي كان ينتشر مع الإسلام، أو مع اللغة العربية نفسها. وهو يأتي اليوم، بعد الحرف اللاتيني في اتساع الرقعة الجغرافية التي ينتشر فيها، إذ تستخدمه جميع الأمم الناطقة بالعربية (إلا أهل جزيرة مالطة الذين يرسمون لهجتهم بأحرف لاتينية)، كما يستخدم في تدوين لغات أخرى كالفارسية والأوردية (لغة بعض سكان الهند)، والملقية (لغة جزيرة ملقا) والكشميرية والسندية، ولغات زنجبار وبعض قبائل مدغشقر والحبشة، كما استخدمه الأتراك والإسبان لفترة طويلة من الزمن. (انظر محمود طاهر الكردي: تاريخ الخط العربي وآدابه، ص ٤٨ - ٥١، وعلي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ٢٥٢).

والكتابة جيماً مها يكن الثمن. وهذه العيوب فصّلها الباحثون استناداً إلى مواصفات الخط المثالي[20]، وتتلخّص بما يلي:[21]

أ- خلوّه من الحروف الصائتة القصيرة: وهذه مسألة مبنية في واقع أمرها على نظام الكتابة في العربية. ففي هذا النظام ثلاثة صوائت قصيرة لكل منها رمز خاص. فللفتحة رمز هو عبارة عن ألف صغيرة مضطجعة فوق الحرف، وللكسرة رمز آخر هو عبارة عن خط صغير مائل تحت الحرف، وللضمّة رمز ثالث هو واو صغيرة توضع فوق الحرف. وهذه الحركات طارئة على الخط، غير داخلة في صلبه بمعنى أن الكتابة كتابتان: واحدة مجرّدة من الحركات، وأخرى مشكّلة. وكلتاهما تطرح مسائل وتثير مشاكل. أما الكتابة المجرّدة من الحركات، فلا تتيسّر قراءتها الصحيحة المسترسلة إلا لفئة من خيرة المتعلّمين تكون قد فهمت، من قبل، معنى ما تقرأ، ذلك أن للكلمة الواحدة أشكالاً مختلفة من القراءات[22]، ولعل هذا

---

(20) تتلخص هذه المواصفات عند بعضهم بما يلي:

1- أن يكون مختزلاً لا يتطلب الكثير من الجهود والوقت والورق.

2- أن يرمز لكل صوت من أصوات اللغة برمز خاص به.

3- أن تكون رموزه متباينة الأشكال، متباعدة قدر المستطاع، كي لا يقع القارىء في الالتباس.

4- أن تحتفظ حروفه بأشكالها، أيًّا يكن موقعها في الكلمة.

5- أن تكون رموزه، خالية من كل إشارة ثانوية، كالنقطة، والخط القصير أو أية علامة أخرى.

انظر: أنيس فريحة: الخط العربي، نشأته ومشكلته، ص 27 - 57.

(21) علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص 253 - 256.

(22) فلفظة «قد» مثلاً، قد تقرأ «قدّ» بمعنى قامة الإنسان، أو «قَدّ» بمعنى «قطع»، أو «قُدّ» بمعنى «قُطِعَ». ويروي أنيس فريحة في كتابه (الخط العربي، نشأته ومشكلته ص 64) نكتتين قرائيتين حدثتا بسبب هذه الاحتمالات المتعدّدة، مفاد الأولى أن تلميذاً له قرأ لفظة «فَسَكون» على هذا الشكل «فَسَيَكُون»، والنكتة الثانية كانت بسبب قراءة امرأة لعبارة «ترعة فُتُوفيّنا» على هذا الشكل «ترعة فَتُوفِيّنا»، ظنًّا منها أن اسم الترعة «فَتُوفِيّنا». كما =

الأمر هو الذي حدا قاسم أمين[٢٣]، على القول: إن القارىء في اللغات الأوروبية يقرأ ليفهم، أما القارىء في اللغة العربية فعليه أن يفهم ليقرأ[٢٤]، هذا فضلاً عن أن الكتابة المجرَّدة من الحركات، تثير ثلاث مشاكل أخرى:

أولاها أنها تطرح صعوبة قراءة الأعلام الأجنبية أو المصطلحات المعرَّبة وما شاكلها قراءة صحيحة، مما يحمل الباحثين، رفعاً للبس ودفعاً للاضطراب، على إثبات هذه المصطلحات وتلك الأعلام، بالأحرف اللاتينية، مباشرة بعد إثباتها بالعربية.

والثانية أنها تؤدّي أحياناً، إلى خداع المعلمين في تصحيح، ما يكتبه التلاميذ. فأحياناً يتعمّد التلميذ إهمال الشكل، ليحمّل الكلمة المكتوبة أوجهاً مختلفة في الأداء، تاركاً للمعلم حرية الاختيار. وغالباً ما تنطلي الحيلة على المعلم، فيقرأ الكلمة على الوجه الصحيح، ظنّاً منه أن التلميذ قد كتبها على هذا الوجه. والحقيقة أن كثيرين من الكتّاب يعيشون على حسن نوايا القرّاء.

والمشكلة الثالثة، أن هذا الضرب من الكتابة، يساعد على شيوع اللحن، والحلال الفصحى وانتشار اللهجات.

أما فيما يختص بالكتابة مع «الشكل»، فيبدو أن مشاكلها هي الأخرى كثيرة، من أهمّها:

= يروي الذين يمنون على العربية هذا العيب، أن ناصيف اليازجي، وهو أحد علماء اللغة العربية، قد دُعي يوماً إلى تلاوة مقطع صغير في مجلس ضيّق، فأبى إلا أن يستمدّ له خوفاً من فلتات الارتجال وسقطات الارتباك (انظر نجيب عقول: لغتنا العربية تحل مشكلاتها بنفسها، الحل الأول. تفكيك وتحريك، صيدا المطبعة المخلّصية ١٩٦٠. ص ٢٢).

(٢٣) كاتب مصري اشتهر بدعوته لتحرير المرأة له. «تحرير المرأة»، و«المرأة الجديدة»، (يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية. ج ٢ ص ١٣٨ – ١٣٩).

(٢٤) عن محمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ص ٣٧٢.

١ - إنها تتطلّب جهوداً كبيراً، ووقتاً أطول، وتكاليف باهظة في الطباعة بالنسبة إلى الكتابة دون «الشكل»، أو بالنسبة إلى الخط اللاتيني.

٢ - إنّ حركاتها مجلبة لكثير من الأضرار، لأنّ الحركة المنفصلة عن الحرف، كثيراً ما تقع على غير الحرف الذي جاءت له، وذلك لعدم ضبط يد الكاتب الأصلي أو الناسخ أو الطابع.

٣ - إنها تجبر القارىء على الإكثار من نقل نظره من السطر إلى ما فوقه، أو إلى ما تحته، باعتبار أنّ حركات العربية، لا تكون إلا تحت الحرف أو فوقه. وهذا التنقّل في حركة العين يُجهِد النظر ويكد الذهن.

ب - تعدّد صور الحرف الواحد: لا شكّ في أن نظام الكتابة في العربية نظام مثالي من حيث تخصيص كل وحدة صوتية برمز واحد مستقل. ففي العربية ثمانية وعشرون صوتاً صامتاً يقابلها ثمانية وعشرون رمزاً مختلفاً خُصِّص كل رمز منها لصوت لا يتعدّاه. إلا أن تعدّد صور الحرف الواحد حسب كونه منفصلاً أو متّصلاً، وحسب موقعه من الكلمة، يترتّب عليه أضرار عدّة منها أنه:

١ - يؤدي إلى صعوبة تعلّمه.

٢ - يكلّف المطابع نفقات باهظة في الحصول على نماذج عدّة لكل حرف من حروف الهجاء.

٣ - يُرهق عمال المطابع القائمين على صفّ الحروف، وذلك لكثرة الصناديق المطبعية المخصّصة للحروف.

٤ - إنه يجعل عمل عمال المطابع عرضة للزلل، مما يُكثر عدد الأخطاء المطبعية في الكتب العربية.

ج- تقارب صور الحروف في الرسم وعدم تميّز بعضها من بعض إلا بالإعجام أو الإهمال أو عدد النقط: وهذا التقارب تترتّب عليه أضرار عدّة منها:

١- إن رسم الحروف المعجمة يتطلّب إسرافاً في الجهد لوضع النقط في أماكنها.

٢- إن القلم كثيراً ما يزلّ في تدوين هذه النقط، فيغفل بعضها، أو ينقص من عددها أو يزيده، أو ينحرف بها عن موضعها وخاصة في الرسم السريع. ولهذا كثر التصحيف في الرسم العربي، حتى أصبح مادة للفكاهة والتندر[٢٥].

٣- إن تشابه الحروف وكثرة النقط، يؤدّي إلى جهد النظر، وكدّ الذهن للتفريق بينها. وأحياناً تطغى النقط على الحروف، حتى يكاد القارىء لا يرى سوى النقط[٢٦].

وبالإضافة إلى عيوب الخط العربي، تأتي عيوب الإملاء، ومنها كتابة الألف «ياء» مهملة أحياناً[٢٧]، وإسقاط حرف المدّ في رسم بعض الكلمات[٢٨]، ومنها أيضاً طريقة كتابة الهمزة وما فيها من قواعد وما حول

---

(٢٥) يروى من هذا القبيل أن جعفراً المتوكل العباسي، كتب إلى بعض عماله: أن أحْصِ من قبلك من المدنيين، وعرفنا بمبلغ عددهم. فوقع على الحاء نقطة، فجمع العامل من كان في عمله منهم وخصاهم، فماتوا غير رجلين أو واحد. (انظر إبراهيم جمعة: قصة الكتابة العربية، ص ٥٥).

(٢٦) كما في «فتنثني، تتثاقل، يتثبّتنا» فالحروف في هذه الكلمات تبدو وكأنها كراسي للنقط، والنقط طبعاً ليست بحروف.

(٢٧) كما في «عيسى»، «موسى»، «بكى» و «مشى»... الخ.

(٢٨) كما في «إله»، «لكن»، «داود»، «الرحمن»... الخ.

رسمها من اختلاف، وكتابة المدّة، وطريقة كتابة الألف والتاء في آخر الكلمة، وكتابة «إذاً»... الخ[٢٩].

٣ - دعوات إصلاح الخط العربي

أمام عيوب الخط العربي الآنفة الذكر، رأى مجمع اللغة العربية، أن يأخذ على عاتقه مسألة تيسيره، فشكّل في السنة ١٩٣٨ لجنة لدراسة هذا الموضوع. لكن هذه اللجنة لم تخلص إلى نتيجة تذكر. وقد تقدم عبد العزيز فهمي[٣٠] بمشروع، يقضي بتبني الحروف اللاتينية في الكتابة العربية، كما تقدّم علي الجارم[٣١]، بمشروع آخر، يتعلّق بتيسير الخط العربي، فناقش المجمع المشروعين في عدة جلسات، ثم قرّر طبعهما مع ما دار حولهما من نقاش، وعرض ذلك كله على الدول العربية. كما قرّر وضع جائزة قدرها ألف جنيه لأحسن اقتراح في تيسير الكتابة. وما أن أُعلنت المسابقة حتى

---

(٢٩) نظراً لكثرة عيوب الخط والإملاء العربيين، أعاد بعضهم تخلّف الشرقيين الحضاري إلى نظام كتابتهم. انظر:

Vincent Monteil: L'arabe moderne. p. 49.

وهذه «الإعادة» منقوضة بالتاريخ والواقع. فالتاريخ يؤكد لنا أن العرب أقاموا في العصور الوسطى نهضة جبّارة اعتمدت عليها الحضارة الغربية الحالية اعتماداً كبيراً والواقع يشهد أن عيوب الإملاء الأجنبي، وبخاصة الفرنسي منه، تفوق أضعاف أضعاف عيوب الخط العربي.

(٣٠) سياسي مصري وقانوني (١٨٧٠ - ١٩٥١). اختير وزيراً للعدل في السنة ١٩٢٥ وعضواً لمجمع اللغة العربية في السنة ١٩٤٠. اشتهر بمشروعه الخاص باستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية.

(٣١) علي الجارم (١٨٨١ - ١٩٤٩). شاعر ولغوي مصري وعضو المجمع اللغوي في القاهرة. له «خاتمة المطاف»، و«ديوان الجارم»، و«النحو الواضح في قواعد اللغة العربية». (يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية. الفكر العربي الحديث في سير أعلامه. المكتبة الشرقية. بيروت ١٩٥٥ - ١٩٧٢. ص ٢٤٧ - ٢٤٩).

تلقّى المجمع أكثر من مئتي اقتراح[32]، فتولّت لجنة فنّية دراستها، وقضت في ذلك عدة سنوات، دون أن تتوصّل إلى نتائج تذكر[33]. أما الاقتراحات فيمكننا تقسيمها إلى قسمين رئيسين.

أ- قسم يطالب بإجراء إصلاحات شكلية، لا تمس جوهر اللغة، ولا صورة الرسم الحاضر. وقد ظهرت في هذا القسم ثلاثة اتجاهات:

١ - اتجاه يرمي إلى معالجة مشكلة الحركات فقط. ويمكن أن تصنَّف فيه كل من اقتراحات أحمد لطفي السيد[34]، وعلي الجارم[35]، والجنيدي

---

(٣٢) إن عدد الاقتراحات التي عالجت مسألة الخط العربي، والتي قدمت إلى المجمع وإلى غيره، قد بلغ الألفين حسب ما ذهب إليه بعضهم. انظر:

Vincent Monteil: L'arabe moderne. P. 51.

(٣٣) مجمع اللغة العربية: تيسير الكتابة العربية. المطبعة الأميرية. القاهرة، ١٩٤٦. ص ج - هـ.

(٣٤) هو سياسي مصري (١٨٧٢ - ١٩٦٣)، تولّى وزارة الخارجية المصرية في السنة ١٩٤٦ وأحد رؤساء مجمع اللغة العربية. له «قصّة حياتي» (فردينان توتل: المنجد في الأعلام، ص ٣٧٥ - ٣٧٦). وقد اقترح في مسألة تيسير الخط العربي ما يلي:

١ - الدلالة بالحروف على الحركات، على أن تدخل هذه الحروف في بنية الكلمة، فتُكتب «ضرب» مثلاً هكذا «ضاربا».

٢ - الدلالة على المد بهذه العلامة (آ)، فتكتب «نام» مثلاً هكذا «نآم».

٣ - كتابة التنوين وفك الإدغام.

٤ - رسم الهمزة دائماً بمفردها، واتباعها حرف المد حسب الأحوال.

(انظر مقاله: «الأمّة ومشخّصاتها»، مجلة الموسوعات، ج ١ العدد ٥، (كانون الثاني، ١٨٩٩ م) ص ١٣٤ - ١٣٥).

(٣٥) أهم ما في اقتراحه ما يلي:

١ - الرمز إلى الضمّة بقوس تتصل بالحرف المضموم، وإلى الكسرة بخط مائل يتصل بالحرف المكسور من تحت، وإلى السكون بحلقة متصلة بالحرف الساكن. فتكتب «ضُرِبَ» مثلاً هكذا «ضرب»، وتكتب «ضَرْب» هكذا «ضرب».

٢ - عدم الرمز إلى الفتحة إلا إذا كانت حركة الواو أو ياء في وسط الكلمة مثل «أوَد»، و «هيَف»، فيكتبان هكذا «أوَد، هيَف». =

خليفة[٣٦]، وأنستاس الكرملي[٣٧]، وعبد المجيد التاجي الفاروقي[٣٨]،

= ٣ - كتابة تنوين الحرف المضموم هكذا «٧/» وتنوين الحرف المفتوح هكذا «/١» وتنوين الحرف المكسور هكذا «ـــ» نحو «كتابـ»، «كتابا١»، «كتابـ». (انظر مجمع اللغة العربية: تيسير الكتابة العربية، ص ٨١ - ٨٤).

(٣٦) كاتب جزائري، كتب في مجالات عدة علمية وأدبية وفلسفية. له: «نحو عربية أفضل»، «من وحي الثورة الجزائرية»، «وفي انتظار نوفمبر جديد». وقد اقترح استعمال الأرقام بدل الحركات لإزالة لبس الكلمات، وذلك على الوجه التالي:

أ- الرقم ١ معناه أن الحرف الذي قبله مضموم.

ب- الرقم ٢ معناه أن الحرف الذي قبله مفتوح.

ج- الرقم ٣ معناه أن الحرف الذي قبله مكسور.

د- الرقم ٤ معناه أن الحرف الذي قبله مشدَّد.

هـ- الرقم ٥ معناه أن الحرف الذي قبله ساكن. وحسب هذه الطريقة تكتب الكلمات: «مُكرَّم، مُكَرِّم، مُكرِم، مُكرَم» على التوالي مكر ٣٤م، مكر ٢٤م، مكر ٣م، مكر ٢م».

(انظر كتابه: نحو عربية أفضل. ثورة على اللغة القائمة وبناء لعربية جديدة. دار مكتبة الحياة، بيروت، لا. ت. ص ٤٨).

(٣٧) لبناني (١٨٦٦ - ١٩٤٧) من كبار أئمة اللغة العربية في العصر الحديث. له: «أغلاط اللغويين الأقدمين» و«نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها» (يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية. ج ٢، ص ٦٦٣ - ٦٦٩) وقد اقترح في مجال تيسير الخط العربي، أن نرمز إلى الضمة بواو مشطورة بخط، وإلى الفتحة بألف مشطورة بخط، وإلى الكسرة بياء مشطورة بخط فكلمة «مجلِسُ» تكتب هكذا: «مجلهِسو» كذلك اقترح رسم التنوين كما يلفظ، والرمز إلى الأصوات غير المعروفة في حروفنا، فنرسم صوت (o) ضمَّة مقلوبة (ء) وصوت (é) ألفاً مائلة، وصوت (u) بشكل الرقم سبعة (٧)، وصوت (è) بشكل الرقم (٨). (انظر مقاله: هل ينبغي تغيير الحروف العربية، مجلة الهلال، ج ٤٠، العدد ١٠ (آب ١٩٣٢) ص ١٣٨٥ - ١٣٨٦).

(٣٨) هو أحد أساتذة اللغة العربية في جامعة أوكسفورد. من مؤلفاته «ابن الفارض» و«على هامش السيرة»، له طريقة جديدة في الكتابة العربية تتلخص بما يلي:

١ - الرمز إلى التنوين بعلامة خاصة به على هذا الشكل ﮯ

٢ - اعتبار الفتحة الأصل في حركة الحروف، مع جواز الرمز إليها بألف عليها علامة سكون هكذا (أ) لتمييز فتحة الواو والياء الصحيحتين.

٣ - الرمز إلى الضم بواو واحدة، وإلى الضمة الطويلة بواوين متتابعتين، وإلى الكسرة بياء ذات نقطتين إن كانت في وسط الكلمة، وبياء بدون نقط إن كانت في آخرها، وإلى الكسر الطويل بياء ذات ثلاث نقط. =

والشيخ عبد الله العلايلي[٣٩].

٢ - اتجاه يرمي إلى معالجة مشكلة تعدد رسم الحرف الواحد. ويصح أن يصنَّف فيه اقتراح المهندس نصري خطار[٤٠]، ومحمود تيمور[٤١].

٣ - اتجاه يرمي إلى معالجة مشكلتي الحركات وتعدد رسم الحرف الواحد

= ٤ - جعل الحرف الذي ترتكز عليه الهمزة يمثل حركتها.

(انظر كتابه: طريقة جديدة للتهجئة والكتابة في اللغة العربية، لندن، نسخ، ١٩٥٩، ص ١٨ - ٤١).

(٣٩) لغوي وفقيه لبناني، ولد في بيروت في السنة ١٩١٤. درس علومه العالية في جامعة الأزهر. يعتبر مرجعاً في اللغة. له «المقدمة اللغوية» و «معجم المعجم» و «المرجع». وقد اقترح أن نأخذ الحروف من الخط النسخي والرقعي والفارسي والديواني والثلثي. فالثلثي للحروف المضمومة، والنسخي للحروف المفتوحة، والرقعي للحروف الساكنة، والفارسي والديواني للحروف المكسورة. وأما الشدّة فقد التزم الاحتفاظ بها، مبقياً على وضعها فوق الحرف الذي بشكله يدل على حركته، وأما التنوين فيرى أن يشار إليه بفاصلة (،) إلى جانب الحرف هكذا (ل،).

(انظر كتابه: مقدّمة لدرس لغة العرب وكيف نضع المعجم الجديد ص ٣٢ - ٣٣).

(٤٠) مهندس لبناني ولد في بيروت في السنة ١٩١٧. اشتُهر بعد استنباطه ما سمّاه «الأبجدية الموحّدة». وهي تعتمد على مبدأ الأحرف القديمة المنفصلة بعضها عن بعض، فتعطي كل حرف من حروف الهجاء شكلاً واحداً بدل الأشكال المتعددة التي يأخذها حسب الرسم الحالي، مما ساهم في إنزال عدد أشكال الحروف إلى ثلاثة وثلاثين شكلاً. أما حروفها فقسم منها مأخوذ من صورة الحرف المنفصل، والقسم الآخر من صورة الحرف المتصل بغيره. (انظر كتيّبه: الأبجدية الموحّدة لتسهيل الحروف الهجائية، نيويورك، المؤلف، ١٩٤٧ ص ٤).

(٤١) كاتب وروائي مصري (١٨٩٤ - ١٩٧٣). اشتهر بدقة الملاحظة وعمق التحليل، والمهارة في تصوير الواقع في قصصه. له «سلوى» «في مهب الريح» و «فن القصص». (جبور عبد النور: المعجم الأدبي. دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٩ ص ٥١٠ - ٥١١). أما اقتراحه في إصلاح الخط العربي فيتلخص في أن نحذف الحروف التي يسميها أهل فن الطباعة «حروفاً من الاول» على أن نؤثر الكاف المبسوطة، وتظل حروف الألف، والدال، والراء، والزاي، والواو، والتاء المربوطة، واللام ألف باقية على صورتها في حال إفرادها. (انظر كتابه: مشكلات اللغة العربية، ط١، مطبعة الآداب، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٧٣ - ٧٤).

في آن معاً. ويمكن أن يصنَّف فيه كل من اقتراح علي عبد الواحد وافي، ونجيب مخول[٤٢].

ب- قسم آخر يريد إدخال تغيير جوهري في اللغة نفسها وفي صورة رسمها. وفي هذا القسم يمكننا أن نصنِّف الدعوة إلى الحرف اللاتيني التي شارك فيها الكثيرون، والتي سنؤثرها بالدرس نظراً لكثرة الداعين إليها، ولما دار حولها من مناقشات.

٤ - الدعوة إلى اللاتينية

إن الدعوة إلى الكتابة بالحرف اللاتيني، قديمة نسبيًّا تعود إلى السنة ١٨٨٠ عندما اقترح ولهلم سبيتا (Wilhelm Spitta) الذي كان مديراً لدار الكتب المصرية آنذاك، كتابة العامية التي يدعو إليها بالحرف اللاتيني. وقد أثبت سبيتا كذلك في كتابه «قواعد العربية العامية في مصر» جدولاً مقارناً بين الحروف العربية والحروف اللاتينية المقترحة[٤٣].

وفي السنتين ١٨٩٠ و ١٩٠١ نهج كل من كارل فولرس (K. Vollers)[٤٤] وكان أيضاً مديراً لدار الكتب المصرية يومذاك، والقاضي الإنكليزي في مصر سلدن ولمور (Seldon Willmore)، نهج سبيتا نفسه في الدعوة إلى العامية وإلى الحرف اللاتيني على حد سواء[٤٥]. لكن يبدو أن هذه الدعوة

---

(٤٢) أديب لبناني (١٩١٢ -) ولد في بلدة الهلالية قرب صيدا. عيِّن مفتشاً في وزارة التربية الوطنية (١٩٥٣ - ١٩٦٠). له: «تاريخ لبنان»، و«ابن طفيل» و «تفكيك وتحريك».

(٤٣) نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر. ص ١٨.

(٤٤) مستشرق ألماني (١٨٥٧ - ١٩٠٩) وأستاذ اللغات الشرقية بجامعة فينا. له «الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق»، و«سيرة ابن طولون لابن سعيد المغربي»، و«فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة جامعة ليبزيج (نجيب العقيقي: المستشرقون. ج ٢ ص ٦٣٣).

(٤٥) المرجع نفسه ص ٢٤ - ٢٥.

لم تظهر ظهوراً مُلفتاً للنظر إلا في السنة ١٩٤٣، عندما اقترح عبد العزيز فهمي، على مجمع اللغة العربية في القاهرة، استخدام الحرف اللاتيني بدلاً من الحرف العربي[٤٦]، متمثّلاً بما فعله مصطفى كمال[٤٧] في تركيا. ولقد درس المجمع اقتراح فهمي، ثم قرّر طبعه مع ما دار حوله من مناقشات، لعرض ذلك كله على الدول العربية[٤٨]. وبعد انتشار المشروع كثُر الداعون إلى تبني الحرف اللاتيني[٤٩]، ولكن يظهر أن الذين تخطوا مجرد الدعوة إلى تقديم المقترحات بشأنها، بقوا قلّة ضئيلة[٥٠].

وأول ما يسترعي النظر في هذا الموضوع، هو أن الدعوة إلى الحرف اللاتيني، قد اقترنت باسم عبد العزيز فهمي، نظراً للمجهود الكبير الذي بذله فهمي، سواء في شرح طريقته وتعداد مزاياها، أم في الدفاع عنها

---

(٤٦) يظهر أن نشر الدعوة إلى الحرف اللاتيني، قبل عبد العزيز فهمي، باللغتين الألمانية والإنكليزية، قد أبعدها عن مجال التأثير في الفكر العربي، ذلك أن المتقنين لهاتين اللغتين، والمهتمين بقضايا اللغة، قبل عبد العزيز فهمي، كانوا قلّة ضئيلة.

(٤٧) زعيم سياسي تركي (١٨٨١ - ١٩٣٨) ومؤسس الجمهورية التركية، وأول رئيس لها (١٩٢٣). من إصلاحاته علمنة الدولة، واستعمال الأبجدية اللاتينية عوض العربية في الكتابة التركية. لقب بـ «أتاترك» أي أب الأتراك. (فردينان توتل: المنجد في الأعلام ص ٢١).

(٤٨) نشر المجمع هذا المشروع، ومشروع علي الجارم لإصلاح الخط، وكل ما دار حولها من مناقشات في كتاب بعنوان «تيسير الكتابة العربية» (المطبعة الأميرية. السنة ١٩٤٦).

(٤٩) انظر مثلاً دعوة سلامة موسى في كتابه «البلاغة العصرية واللغة العربية» (ط ٤. سلامة موسى للنشر والتوزيع القاهرة، ١٩٦٤) ص ١٦١ - ١٦٦. ودعوة رشدي المعلوف في مقاله: «درس من مصطفى كمال»، مجلة الأبحاث، ج ٥، العدد ٣ (أيلول، ١٩٥٢)، ص ٣٥٣ - ٣٦٣. ودعوة سعيد عقل في مقاله «معضلات وقوى»، محاضرات الندوة اللبنانية، ج ٨، العدد ٦، (نيسان ١٩٥٤)، ص ٢٧٠٨. وأنيس فريحة: «حروف الهجاء العربية، نشأتها، تطورها مشاكلها». مجلة الأبحاث، ج ٥، العدد ١، بيروت (آذار ١٩٥٢) ص ٣١ - ٣٢.

(٥٠) منهم سعيد عقل وأنيس فريحة. (انظر سعيد عقل: يارا. مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦١. وأنيس فريحة: محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها. منشورات معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية. القاهرة. ١٩٥٥ ص ٦٩).

وإغراء الناس بقبولها. واقتراح فهمي يقضي[51]:

١ - بالإبقاء على عشرة أحرف عربية، لا نظير لها في الأبجدية اللاتينية وهي: أ، ج، ح، خ، ص، ض، ط، ظ، ع، غ.

٢ - بالاستعاضة عن الأحرف العربية: ب، ث، د، ر، ز، س، ف، ق، ك، ل، م، ن، هـ، و، ي، بالأحرف اللاتينية:

b, t, d, r, z, s, f, q, k, l, m, n, h, w, y.

٣ - بإدخال زوائد على بعض الحروف اللاتينية، كي تؤدي بمفردها نغمات الحروف العربية المقابلة. فقد استعمل فهمي لصوت الألف الحرف اللاتيني (a)، وفوقه العلامة القربوسية ^ هكذا (â)، ولحرف الثاء، الحرف اللاتيني (t) على أن يكون في رأسه شرطتان متصالبتان (ŧ)، بدل شرطة واحدة. كما استعمل للذال الحرف (d)، مع شرطة أفقية فوقه (đ)، وللشين حرف (s) مع شرطة أفقية فوقه (s̄).

٤ - إضافة الأحرف اللاتينية g, j, p, v, e, x التي لا شبيه لنغمتها في العربية، وذلك لكتابة الأعلام الأجنبية والمصطلحات العلمية وغيرها مما نعرِّبه.

٥ - باعتماد الصوائت اللاتينية نيابة عن علامات الحركات. فتكون (a) علامة الفتحة، و (u) علامة الضمة، و (i) علامة الكسرة. أما السكون فلا محل لوضع أيّ علامة لها. أما الشدَّة فيستغنى عنها بتكرار الحرف المشدّد. وأما التنوين فيكفي لتشخيصه إتباع حرف الحركة بحرف نون صغيرة أمامه ومن أعلى، كما أجاز عبد العزيز فهمي أن يرسم التنوين بعلاماته العربية.

٦ - بالاستعاضة عن همزة الوصل بالشولة الفرنسية (La Virgule)(،) بديلاً عنها، على أن توضع أعلى بقليل من سطر الكتابة.

(٥١) مجمع اللغة العربية: تيسير الكتابة العربية. ص ١٥ - ٢٤.

٧ - بعدم كتابة الهمزة إن وقعت في أول الكلمة، والاكتفاء بكتابة الألف أو حرف الحركة.

ولقد أحصى فهمي بطريقته هذه في الكتابة، ست عشرة مزية، تتلخص في أنها[٥٢]:

١ - تؤدي جميع نغمات الحروف العربية وبحرف واحد، لا يشترك غيره معه في أدائها.

٢ - لا يكثر فيها النقط ولا تختلف أعداده ولا وجهات مواضعه.

٣ - تحصر أداء الكلمة في وجه واحد لا يحتمل شكاً ولا إشراكاً.

٤ - تحافظ على جوهر هياكل الحروف.

٥ - تسهّل التعلّم والتعليم.

٦ - تجنّب المعلمين خداع التلاميذ الذين يكتبون الكلمة بطريقتهم الخالية من الشكل، محتملة لأوجه مختلفة في الأداء.

٧ - تجنّب القرّاء خداع الكتّاب الذين يعيشون على حساب سلامة نية القرّاء.

٨ - تتيح للطفل تعلم القراءة والكتابة في زمن وجيز.

٩ - تساعد على التملّم، لأن الطفل متى تعوّد من صغره صحّة النطق بالألفاظ العربية، أصبحت هذه الصحّة عادة له في كتابته وقراءته، وامّحت من خلايا مخّه الأوضاع غير الصحيحة.

١٠ - تساعد على تعلّم أيّ لغة من اللغات التي تكتب بالحرف اللاتيني، وذلك بسبب توحيد أشكال الحروف بينها وبين العربية.

١١ - تسهّل قراءة الأعلام الأجنبية المعرّبة والاصطلاحات العلمية.

---

(٥٢) المرجع السابق ص ٢٨ - ٣٤.

١٢ - تسهّل على الأجانب تعلّم العربية وتمنعهم من تشويه أعلامنا.

١٣ - تحثّ الأجانب على اتخاذ حروفنا المفردة بدل مركباتهم المزجية وفي هذا تسهيل علينا لفهم ما يقصدون.

١٤ - تسهّل الطباعة تسهيلاً كلياً علينا وعلى غيرنا ممن يطبعون شيئاً من نصوصنا العربية.

١٥ - تطمئن مؤلّفي الكتب الأدبية وتؤمّنهم مما يتّقون من تصحيف الطابعين والقارئين، وتوفّر عليهم ما نجده في كتبهم من قولهم تحديداً لنغمة الحروف وحركاتها: «بالنون»، بالتاء المثناة، بالباء الموحّدة.. الخ.

١٦ - تعفي كتبنا من مغبّة الأخطاء الكثيرة والتصويبات التي لا يخلو منها آخر أي كتاب عربي.

٥ - أضرار الدعوة إلى اللاتينية

إن تبنّي الحرف اللاتيني في الكتابة العربية، يلحق ضرراً بالغاً في اللغة العربية وأهلها. وقبل تفصيل أضراره وعيوبه، لا بدّ من الإشارة إلى أن بعض الذين هاجموا الدعوة إلى الحرف اللاتيني، وقعوا في خطأ منهجي. فهُمْ، بدلاً من أن يظهروا عيوب الدعوة بحد ذاتها، راحوا يكشفون صعوبات الإملاء اللاتيني، مشدّدين على الإملاء الفرنسي والإنكليزي خاصة(٥٣). ولا تشتمل طريقة فهمي في الكتابة على أيّ صعوبة من هذا النوع لأنها كتابة فونتيكية لا تاريخية(٥٤). أما أضرار هذه الدعوة وعيوبها

---

(٥٣) انظر مثلاً: مجمع اللغة العربية: تيسير الكتابة العربية ص ٤٨ - ٥٢ ومحمد محمد حسين: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. ج ٢ ص ٣٦٦ - ٣٦٧.

(٥٤) الكتابة الفونتيكية هي أن نكتب اللغة كما تلفظ تماماً دون زيادة أو نقصان. أما الكتابة التاريخية فهي الكتابة الحالية التي وصلت إلينا عبر الأجيال. (انظر أنيس فريحة: الخط العربي، نشأته ومشكلته، ص ١٠٢ - ١٠٤).

فتتلخص بما يلي[٥٥]:

١ – تقطع الصلة بين مستقبل الأمة العربية وماضيها، إذ تحول عاجلاً أم آجلاً بين الأجيال القادمة والانتفاع من التراث العربي الذي هو جزء من كيان الأمّة العربية وأحد مقوّماتها الأساسية. وقطع الصلة بالتراث لا يؤدّي إلى ضعف الوحدة العربية وحسب، بل يحرمنا أيضاً من مكتبة ثمينة ونفيسة تركها الأسلاف، فيها ثمرات عقولهم، ونتائج بحوثهم، وتواريخ أيامهم، ودواوين شعرائهم، وبنات أفكار كتّابهم، ووصف أحوالهم. وربما يرى بعضهم أنه بالإمكان تلافي هذا العيب بترجمة الكتب العربية إلى الرسم الجديد. إلا أن الترجمة فات أوانها، إذ لو جاءت قبل النهضة العربية أيام العباسيين، لأمكن قبولها. أما اليوم فإن خزائن الدول العربية مجتمعة قد تعجز عن رصد الأموال اللازمة لنقل كل التراث إلى الخط اللاتيني، خاصة أنه قد طبع من الكتب العربية، بعد اقتراح فهمي، ما يفوق أضعاف ما كتب بالرسم العربي، منذ نشأة هذا الرسم حتى زمن اقتراحه.

٢ – تضطرنا إلى زيادة الحروف، حتى تبلغ ضعفها في كلمات كثيرة، فإذا أردنا أن نكتب الفعل (كَتَبَ) مثلاً المكوَّن من ثلاثة أحرف، بالرسم اللاتيني، يكون على هذه الصورة «Kataba»، أي أن عدد الحروف يتضاعف فيصبح ستة. وهذه الزيادة في الحروف تؤدّي بلا شك، إلى إسراف في الحبر والورق والوقت والجهود ونفقات الطباعة.

٣ – تؤدي إلى زوال فنون الخط العربي وزخرفاته. ففي الخط العربي

---

(٥٥) معظم هذه العيوب أظهرها الذين دافعوا عن الحرف العربي، وخاصة أعضاء مجمع اللغة العربية في مناقشتهم لاقتراح فهمي. أنظر في الصدد هذا:

– مجمع اللغة العربية: تيسير الكتابة العربية ص ٤٥ – ٦٩.

– لويس خليل: «ترقية اللغة العربية ومشروع الحروف اللاتينية» مجلة المشرق، ج ٤٠، العدد ١، بيروت (كانون الأول، ١٩٤٤) ص ٦.

مزية قلَّ أن توجد في خطوط الأمم الأخرى، وهي إمكانية زخرفته على وجود عِدَّة. ولقد استطاع الكاتبون المجوِّدون والمزخرفون أن يستخرجوا منه أنماطاً زخرفية غاية في الإبداع(٥٦).

٤ - تيسِّر القراءة دون الكتابة، مع أن الكتابة هي الأصل فيما يُقرأ. ولا شك في أن الخطأ في النطق أهون ضرراً من الخطأ المكتوب، لأن كتابة الخطأ تحافظ على خطأ النطق فضلاً عن أنها تسجِّله وتبقيه. وهكذا فلا بد في جميع الأحوال، من إتقان اللغة إتقاناً جيداً تنتفي معه حاجتنا إلى الحرف اللاتيني كي نقرأ قراءة صحيحة.

٥ - لا تُعفينا البتّة من النقط والشكل، وإنما تعود بنا إلى النقط في بعض الحروف (ج، خ، ض، ظ، غ، ž ,ż) وإلى ما يشبه الشكل في بعض الحروف الأخرى (ŧ, đ, ā, a، الشولة الفرنسية « و ») كما أنها لا تعفينا من مشكلة الحروف المتشابهة الشكل، التي قد توقع في الالتباس (ج، ح، خ، ص، ض، ط، ظ، ع، غ، a ,ā ,d ,đ ,t ,ŧ).

٦ - لا تساعد الأجانب على تعلم لغتنا، لأنهم سيواجهون في هذه الطريقة حروفاً عَرَبية غريبة عليهم، وحروفاً لاتينية معدَّلة مثل (ā، đ، ŧ)على غير ما ألفوه.

٧ - لا تنقص عدد أشكال الحروف في الآلة الكاتبة، بل تزيدها. ذلك أن عدد صور الحروف العربية أربعة وستون حرفاً في هذه الآلة. أما في طريقة فهمي، فإن هذا العدد يرتفع إلى السبعين، إذ إن عدد حروف هذه

---

(٥٦) يقول دونسون روس: إن حروف العربية مرنة سهلة، لها في النفوس ما للصور من الجمال الفني، ولا سيما حين تنقش على مداخل المباني أو الأضرحة سواء كانت ثلثاً أو كوفيًّا أو نسخاً. (انظر مقاله: «أثر اللغة العربية في العالم الإسلامي»، مجلة الرسالة، ج ١، العدد ٦، بيروت (نيسان ١٩٣٣)، ص ٢١.

الطريقة خمسة وثلاثون[٥٧]، ولكل حرف منها شكلان: كبير (Majuscule) وصغير (Minuscule).

٨ - تشوّه الكتابة بخلطها الحروف العربية بالحروف اللاتينية.

٩ - تضعُنا أمام احتمال تبدُّل معنى اللفظة الواحدة، إذ لا تفرّق بين الصوت الذي هو حركة، والإشباع الذي هو حرف علّة، ومن ثمّ يصبح للفظتين كـ «رمى» و «رام» مثلاً صورة واحدة في الكتابة «Rama».

١٠ - قد تفسد الإيقاع الخاص بالقصيدة، فتؤدي بالتالي إلى فساد أوزان الشعر. وإن كان بعضهم يعتبر الكتابة عرضاً طارئاً، في اللغة، وأنها ليست من اللغة بل مجرد إناء لها[٥٨]، فلا بدّ من الإشارة إلى أن تغيير هذا الإناء، وخاصّة في اللغة العربية، يؤدّي إلى المساس بالمحتوى نفسه[٥٩].

١١ - قد تطرح باضطرارها إلى وضع أشكال لاتينية جديدة لحروف عربية لا نجد لها نظائر في اللاتينية مشكلتين: أولاهما صعوبة القراءة في هذا الجيل على الأقل، وثانيتهما مشكلة الفوضى في الكتابات المقترحة، ذلك أن هذه الطريقة وليدة اجتهاد شخصي، فهي بالتالي، مدعاة لاقتراحات عدّة تطوّرها[٦٠].

---

(٥٧) منها تسعة وعشرون حرفاً مقابل الأحرف العربية. وستة أحرف لاتينية (V, C, X, G, J, P) أضافها فهي لكتابة الأعلام الأجنبية والمصطلحات العلمية وغيرها مما نعرّبه.

(٥٨) يقول أنيس فريحة في الصدد هذا: «ليست (أي الكتابة) من اللغة بشيء، كما أن الرموز الموسيقية ليست من الموسيقى بشيء». (انظر كتابه: نحو عربية ميسّرة ص ١٩٠).

(٥٩) يقول ماسينيون (Massignon) إنه فكّر، بعد نجاح مصطفى كمال في استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية في تركيا، بإمكانية تعميم عمل مصطفى كمال على إيران وسوريا، لكنه ما لبث أن رأى أن «لتننة» الخط العربي، تؤدي إلى تقويض بنية النحو العربي وروح الثقافة العربية، والخط العربي الذي هو الفن التجريدي الخاص بالمسلمين. انظر:

Vincent Monteil: L'arabe moderne. p 50.

(٦٠) ودليلنا على ما نذهب إليه، أن الاختلاف في ابتكار صور للحروف التي لا نجد مثيلاً لها في اللاتينية، قد ظهر، عند داعٍ واحد من دعاة الحرف اللاتيني أعني به سعيد عقل. ولمعرفة =

١٢ - إنها لا تمنع من تعدد اللهجات، ومن اختلاف القراءات للكلمة الواحدة[٦١]، فالحرف اللاتيني لم يَحُلْ دون تشعُّب اللغة اللاتينية إلى عدة لغات، كما أنه لم يمنع نشوء اللهجات المختلفة في كل من هذه اللغات.

وهكذا نرى أن طريقة عبد العزيز فهمي في الكتابة تُبقي على معظم عيوب الخط العربي، وهي، إن جاءت لتساهم بحل بعض مشاكل هذا الخط، فما برحت تطرح لنا مشاكل أكبر لعلَّ من أهمها، مشكلة قطع الصلة بين مستقبل الأمة العربية وماضيها. وقد تكون هذه المشكلة وحدها كافية لرفض أي دعوة إلى اللاتينية.

٦ - بعض الاقتراحات للتخفيف من مشكلات الخط العربي

رفض اقتراح فهمي، لا يعني الدعوة إلى إقفال باب الاجتهاد في إصلاح الخط، على ما فيه من عيوب، أو الحؤول دون استنباط خط بديل يزيل هذه العيوب دون أن يحرمنا الانتفاع بالتراث، ودون أن يوقعنا بمشكلات أعظم. وإلى أن نجد هذا الخط البديل، ندعو إلى الأمور التالية:

١ - العناية بتعليم الخط في مدارسنا الابتدائية، عنايتنا بتعليم المواد التعليمية الأخرى، وتعويد الأطفال وتدريبهم على الكتابة الجميلة منذ الصغر.

= هذا الاختلاف تكفي المقارنة بين حرفه اللاتيني المقترح في كتابه «يارا - شعر» الذي صدر في السنة ١٩٦١، وكتاب «شعراء فينيقيّ - آيات وصور» الذي كتب سعيد عقل مقدمته ونشره في بيروت (مطبعة ومنشورات قدموس، سنة ١٩٦٧).

(٦١) كان فريحة قد ذهب إلى أن كتابة اللغة العربية بالحرف اللاتيني، بضبط لفظ اللغة مرّة واحدة لجميع الناس، ويمنع، بالتالي، من نشوء اللهجات. (أنظر كتابه: نحو عربية ميسَّرة ص ١٩٠). لكن تشعب اللاتينية إلى عدة لغات (لهجات) يخطِّىء ما يذهب إليه.

٢ – إيلاء أمور اللغة مزيداً من الاهتمام، وتدريسها وفق أحدث الوسائل التربوية، لتمكين المتعلّم من تخطّي صعوبات القراءة.

٣ – ضبط الآيات القرآنية بالشكل الكامل في جميع مراحل التعليم.

٤ – التزام الشكل في الكتب المدرسية الابتدائية، إلا ما لا مجال لخطأ التلميذ فيه، حتى يرسخ في ذهنه نطق الكلمة الصحيح، ثم التخفيف من هذا الشكل في المرحلة الثانوية قدر الإمكان، إلا فيما يتوقع خطأ التلميذ فيه.

٥ – ضبط كل حرف من الكلمة يؤدّي تغيير حركته إلى تغيير معناها.

٦ – استبدال الأرقام العربية[٦٢] (0, 1, 2, 3, 4, 5,.. إلخ) بالأرقام الهندية (٠، ١، ٢، ٣، ٤،... إلخ)، لنتخلّص من التباس الرقم «٢» بالرقم «٣»، والرقم صفر «٠» بالنقطة، ولنقترب من التوحيد العالمي للأرقام.

٧ – استعمال الرمز، كأن نستعمل رمز «ص. ب» لصندوق البريد و«ج. ع. م.» للجمهورية العربية المتحدة، وتعميم هذه الاستعمال ليشمل الأسماء الدولية التي يستخدم الرمز في اللغات الأجنبية مثل «U. S. A» و«U. R. S. S» وغيرها[٦٣].

---

(٦٢) هي في الحقيقة أرقام هندية، أخذها العرب عن الهنود، لكنها عندما انتشرت في أوروبة، عُرفت بالعربية، لأن الأوروبيين أخذوها من العرب.

(٦٣) مازن المبارك: نحو وعي لغوي ص ٧١.

٣ - فهرس الموضوعات

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل التاسع